رحلتي إلى العراق

تأليف: جمس بكنغهام
ترجمة: سليم طه التكريتي

[redacted]

الجزء الثاني

١٩٦٩

ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره

تقديم وتوضيح

حين اقدمت على ترجمة رحلة بكنغهام كانت امامي رحلتان تقعان في اربعة مجلدات كبيرة اولاهما معنونة « رحلة في بلاد الرافدين »

TRAVELS IN MESOPOTAMIA

ففي هذه الرحلة التي بدأها المؤلف في اوائل صيف ١٨١٦ ، سار فيها من طرابلس في لبنان فسوريا ثم اجتاز نهر الفرات في نقطة « بير » واتجه الى ماردين فنصيبين ومنها الى سنجار فالموصل ثم غادرها الى بغداد بطريق اربيل كركوك دلي عباس .

اما الرحلة الثانية فعنوانها «رحلات عبر اشور وماذى وايران»

TRAVELS IN ASSYRIA , MEDIA AND PERSIA

وهذه الرحلة مكملة للاولى لان المؤلف وصف فيها سفره من بغداد الى ايران بطريق خانقين قصر شيرين الى ان وصل الى انقاض مدينة برسبوليس الايرانية القديمة ومن هناك غادر ايران الى الهند ثم عاد من الهند بحرا ليستقر في مدينة البصرة وبوصفها اختتم رحلته الثانية هذه .

وازاء ضخامة الرحلتين بمجلداتها الاربعة التى زادت صفحاتهـــا عن الف وخمسمائة صفحة لم اجد بدأ من ان اقصر الترجمة على ما يخص العراق بحدوده المعينة ولذلك بدأت بترجمة الرحلة الاولى من النقطة التي دخل المؤلف فيها سهل

سنجار قادما من نصيبين الى ان وصل بغداد وذهب منها الى اثار بابـل فكانت هذه الترجمة هي التي ضمها الجزء الاول من هذا الكتاب الذي اصـــدرته في تموز ١٩٦٨ .

اما الجزء الثاني وهو هذا فقد ادرجت فيه ما تبقى من الرحلة الاولى وهو فصل اخر عن اثار بابل والحلة ، وفصل ثان عن بغداد ، وسفرة المؤلف من بغداد الى طيسفون (سلمان باك)

والى هذه الفصول اضفت كل ما كتبه المؤلف في رحلته الثانية عن مشاهداته وملاحظاته منذ ان خرج من بغداد متجها الى ايران الى ان تجـاوز قصر شيرين كما نقلت عن هذه الرحلة كل ما كتبه المؤلف عن البصرة .

اما بصدد الشروح والتعليقات التي اوردتها على الرحلتين في الجـزء الاول وفي هذا الجزء فاود ان يدرك القارىء الكريم انني اعتمدت فيها الى جانب ما كتبه البلدانيون العرب القدامى منهم والمحدثون ، على المعلمة البريطانية والموســوعة العربية الميسرة ، والمنجد والقاموس الاسلامي وغيرها من المصادر التي لا يشك في دقتها وصحة ما ورد فيها من معلومات . وبهذه المناسبة اود ان يعـلم القارىء ايضا ان الجهد والوقت اللذين انفقتهما في تثبيت هذه الشروح كان اوسع بكثير مما بذلته في الترجمة ذاتها ومع ذلك فانه ليسرني جدا ان اسمع من القراء الكرام اي تصويب او تصحيح لما قد يعثرون عليه في هذا الكتاب من نواقص او اخطاء » .

كما ازف الى القراء بشرى انتهائي من ترجمة رحـــلة الدكـتور الالماني (راوولف) الى العراق والتي قام بها سنة ١٥٧٤ وهي من اقدم الرحلات الاوربية الى هـذه البلاد وساعدها للطبع قريبا .

سليم طه التكريتي

الفصل الحادي عشر

البحث عن اسوار بابل

كانت الساعة التاسعة الا ربعا حين غادرنا مكاننا لتواصل مسيرتنا نحـو الشرق . وقد اغراني بالتحرك منظر التلال العالية في تلك الناحيه ، وما ذكـر عن وجود تل هناك له اهميته الخاصة يدعي تل « الاحيمر » وتعقب اثار تلك الخرائب التي تقع حتى خلف خط الحدود (أ) الذى افترضناه لنحـدد تلك الساحة التى تمتد ستين فرسخا وتضم القصر المحصن وحدائقه

اتخذنا طريقنا نحو الشرق فوق ارض ذات تربة فاخرة غطتها حفر تكونت فيها برك من الماء احيانا ورمال الصحراء الجافة احيانا اخرى .

واذ واصلنا سيرنا شاهدنا بقعا من الارض انتشرت فيها قطـع من الآجر والفخار المحطم و كانت تبدو وكأنها كانت في الاصل مكاناً لبعض الابنية التي لم تبق منها سوى هذه الآثار لتشير الى موقعها فى حين لا توجد فى السـاحة المحيطة بها وعلى مسافة ما مثل هذه القطع ، مما يؤكد ان الارض في هذه الفواصل لم تستخدم

لغرض آخر سوى الزراعة *

مررنا مصادفة بتلال طويلة تمتد من الشمال الى الجنوب . وشاهدنا تلالا اخرى مررنا بها في الزاوية اليمنى من الشرق الى الغرب واول انطباع تكون لدينا هو ان هذه التلال كانت احواض قنوات ظلت تروي الارض بالمياه الى ان خربت بابل واذ ذاك تعرضت للاهمال . لكن هذه الفكرة سرعان ما تضعضعت حين حسبنا عدد هذه التلال ، وتقاطعها في اتجاهاتها مما يؤكد انها لا تمثل قنوات للري

قد يكون من الصواب ان البعض منها بقايا قنوات كانت تمد الاجزاء النائية من المدينة بالماء من نهر الفرات ايام عزها ، وانها قد استخدمت منذ ذلك الوقت بصفة قنوات ، ولكن القسم الاكبر من هذه التلال كان في الحقيقة بقايا ابنية قامت في الاصل على شوارع يقاطع احدها الاخر في زوايا صحيحة ، وتقوم على كل جانب منها ساحات واسعة من ارض خالية مستوية .

والشيء الظاهر المميز من هذه التلال يقدم الادلة الكثيرة على ما كانت عليه فما دامت هذه التلال المؤلفة من خطوط مزدوجة او متوازية اكثر ارتفاعا واوسع عرضا في كل جانب منها مما لو انها قد انشئت من التراب الذي نقل من الفجوة

* لم تكن منازل المدينة مماسة مع الاسوار وانما كانت تقوم على مسافة منها ولم يغط الماء كل الساحة التي كانت تقع داخل المدينة بل لم يبن اكثر من تسعين فرسخاً منها وحتى المنازل ذاتها لم يكن الواحد منها يتصل بالآخر وما بقي من الارض تم استخدامه بمثابة حقول وحدائق وذلك يكفي لان يزود المدينة بالمؤن في حالة وقوع حصار عليها .

(كوينتوس كورتيوس : الكتاب الخامس الفصل الاول
[QUINT . CURT . B . V C . 1]

المحفورة ، فان كل واحد منها كان اكبر مساحة من الفراغات التي تفصل بينهاتلك الفراغات التي يتراوح طول الواحد منها ما بين خمسة عشر وثلاثين قدما ويرتفع الى اكثر من عشرين قدما . يضاف الى هذا ان مستوى الساحة الرئيسية التي كانت تؤلف حوض قناة لسحب الماء منها ، اعلى من مستوى الارض المحيطة بها في حين ان هذه التلال تتقاطعها ايضا ممرات متقاطعة لا تدع مجـالا للشك في انهـا كانت في الواقع صفوف مسا كن او شوارع تحولت الى خرائب كذلك توجـد في بعض الاما كن قناتان مجوفتان ، وثلاثة تلال تمتد متوازية احدها مع الاخر الى مسـافة ملحوظة . والتل الوسط منها اكثر سعة واستواء . فالوضع يبدو في شكل شارعين يسيران متوازيين في حين تظهر هنا ـ كما هو الامر في اجزاء الاطـلال الاخرى القريبة من النهر ـ السلسلة الوسطى التي تقطعها تلك التلال وهي تبلغ ضعف البقعة كما تشاهد المنازل المزدوجة التي تقابل واجهاتها ومداخلها كلا من الشارعين وتبدو ذات الخصائص بالنسبة للمستوى ، والحجم ، والاتجاه .

وعلى هذه الشاكلة يمكن القول بان هذه التلال الثلاثة تمثل بقايا المسا كن والشوارع وليست قنوات لانها بالنظر الى اتجاهها وعددها لا يمكن ان تكون من القنوات .

والواقع ان انخفاض هذه التلال عن التلال الاخرى التي تؤلف اطلال القصر والجنائن المعلقة ، قد قلل من اهميتها بالنظر الى الاطلال البابلية الاخرى .

ومع ان القلعه تقع على ارض مستوية ، وجنائن سمير اميس [1] تبـدو مرتفعة ، فان ذلك كله — في نظر « الميجر رنبل » — اثر شاخص يدلل على رعونة زوج سمير اميس بالنسبة الى المنطقة المجاورة ، اذ لا يوجـد سبب يستـلزم ان تكون الابنية الاخرى ، ولا سيما مسا كن افراد الشعب ، ذات اسس اعلى من

المستوى المألوف .

والواضح على وجه الدقة ان هذه التلال التى تألفت من الاطلال المتداعية تبلغ في ارتفاعها ، في كثير من الاماكن ، نفس ارتفاع اطلال نينوى ، وان هذه الاطلال تكون ، في مواقع اخرى ، مساوية في ارتفاعها لاطلال ممفيس و بوباستيس وتانيس ، وساييس في مصر ، وكل هذه مدن متساوية في القدم تقريباً ومتعاصرة في تواريخ انهدامها .

فلو ان تنقيباً جرى للكشف عن الاقسام الجديدة من هذه التلال الرئيسة لامكن في الحال اعطاء قرار كاف عن هذه المسألة .

على انه لم تكن لدينا الوسائل لاجراء مثل هذا التنقيب او التغلغل عميقا تحت الكتلة الشاخصة من الاطلال للتأكد من طبيعة داخليتها وهيئتها اللتين عبثت بهما الرياح والامطار طوال احقاب طويلة غابرة فلم يعد فيها اى دليل للحكم عليها بصفتها هذه . *

* * *

* [وبسبب نقمة الرب سوف لا يسكنها احد وستظل مهجورة وان كل من سيمر ببابل ستأخذه الدهشة ويستغرب من الوباء الذى حل بها . كيف انشطرت مطرقة الارض وتحطمت ؟ كيف غدت بابل قفراء بين الامم ؟ هناك ستعيش فيها وحوش الصحراء مع وحوش الجزر ، ولن يسكنها احد الى الابد ، ولن يأوى اليها احد من جيل الى جيل . ويقول الرب « وكما قضى الله على سدوم وعمورة والمدن المجاورة لها فلن يعيش انسان فيها ولن يعيش ابن انسان هناك »]

[سفر ارميا : الاصحاح ٣٠ الايات ١٣ ، ٢٣ ، ٣٩ ، ٤٠]

وما دمنا نواصل الكشف عن اطلال تلك التلال الكبيرة ، والمربعات المتفرقة ، والبقع المستديرة المغطاة بالاجر والفخار ، فقد مضينا في سيرنا قدما حتى وصلنا حوالي الساعة العاشرة والنصف الى ساحة مسورة في داخلها عدد من اشجار النخيل .

طفنا بالمكان على امل ان نعثر على نزل مأهول فيه لكننا لاحظنا من حالة الخراب التي كان عليها انه قد هجر منذ زمن طويل ، وان بئره الجميلة المغلفة بالاجر والتي كان ذلك البستان يرتوي منها قد جفت الآن .

اشتدت حرارة النهار ولم تبق لدينا سوى قنينة واحدة لا تحوي سوى القليل من الماء . ذلك لاننا حين بدأنا الرحلة لم نكن نتصور ان نقطع نصف هذه المسافة التي قطعناها شرقي النهر .

اخذ رفيقي يشكو هو الاخر مما يعانيه من وطأة الحر وشدة العطش ومع انني كنت اتحسس حالته واحاول اسعافه الا انني لم اتخل عن فكرة تعقب ظواهر الاطلال في هذه المنطقة غير المطروقة ما دامت تلك الظواهر بارزة سيما وان سمة بابل في هذا الاتجاه كانت مثارا للخلاف منذ زمن طويل ، ولانه قد توفرت لدينا الان فرصة لاستحصال معلومات حول هذه النقطة قد لا تتوفر مرة اخرى .

وطبقا لذلك واصلنا السير متجهين الى الشرق فمررنا باماكن عديدة متفرقة يكسوها الآجر والفخار وشاهدنا بضعة تلال على جهتي الطريق الذي كنا نسير فيه حتى بلغنا في حوالي الساعة الحادية عشرة ضريحا صغيرا لاحد الشيوخ نبتت على مقربة منه بضع نخلات في هذا العراء اللاهب الجاف

كانت تبدو وراء الضريح تلال كبيرة احدها هرمي الشكل عال . وكانت

هذه التلال تغريني بالدنو منها . اما رفيقي فقد خارت قواه من شـدة الحر ولذلك قرر ان يستريح هنا فلا يخطو خطوة واحدة

واكثر من هذا اننا خرجنا في الاصل نبحث عن تل يدعى الاحيمر قالوا لنا انه لا يبعد عن شرقي الحلة اكثر من خمسة اميال . ومع اننا ابتعدنا الان اكثر من عشرة أميال عن المدينة في الاتجاه الذي ذكروه لنا الا اننا لم نعثر على ذلك التل بعد .

وعلى هذا الاساس تركت المسيو بلينو والخيال الكـردي عند الضريح ليستريحا في الظل ، واندفعت لوحدي لكن الخيال الذي ارسله المستر (ربج) معي ما لبث ان لحق بي كيلا يقال له انه لا يستطيع احتمال الحر والعطش مثلما يفعـل الاجنبي ذلك فواصلنا سيرنا نحو الشرق فمررنا بعدة تلال تغطيها كسر الاجـــــر والفخار الجميل . وعبرنا سلسلتين او ثلاثا من تلال مزدوجـة تمتد نحو الشمال ونحو الجنوب بدا من مظهرها انها كانت قبلا قنوات او شوارع . لكن يظهر من خط اتجاهها انها كانت شوارع او قنوات استخدمت لارواء هـذا الجزء الباقي من بابل .

اخذت قطع الاجر المتناثرة وراء آخر هذه التلال تظهر بوفرة كثيرة وهي تشير بهذا الى وجود بعض الابنية الواسعة على امتداد النهاية الشرقية للمدينة .

وتظهر هذه الابنية بشكل اكوام متناثرة من بقايا مواد بناء جيـــــدة نقلت من هناك .

بعد مضي ساعة ونصف الساعة على مغادرتنا الضريح بلغنـا تل الاحيمر الذي جئت من بعيد لا تفحصه .

كان تل الاحيمر هذا كبيرا يتألف من انقاض غير متماسـكة ، وينحدر

الى القاعدة بشدة فلا يمكن صعوده على ظهر حصان بل يصعب الصعود عليه حتى على الاقدام ولما كان المرتقى من الناحية الغربية ، رغم انحداره ، ايسر من الناحية الشرقية فقد تسلقنا التل من هناك

كان التل يبدو من مسافة قصيرة في شكل مخروط هرمي يتألف مقطعه من مثلث متساوي الاضلاع وقد توجت قمته بجزء واطيء وطويل من جدار سميك يشبه شرفات حصن صغير اكثر من شرفات احد الابراج وقد تناثرت في اسفله انقاض الاجر والقطع النادرة من الفخار .

ومن مظهر التل ، ومرتقاه العالي من كل جانب ، وسقوط قطع من اعلاه وصلابة قمته نسبيا ، تأكد لدي — من اول نظرة — ان هذا التل يمثل بقية سور واسع وانه ليس جزءاً من اية بناية مكشوفة

اشتدت حرارة الجو الان كثيرا جداً ، فقد غدونا معرضين لحرارة الشمس المحرقة في ذلك السهل الجاف الملتهب . كما اننا تركنا القليل من الماء الذي بقي في مزودنا لدى رفيقينا اللذين بقيا عند الضريح . فقد جابهتنا ريح غربية ومع ان الحرار عند الوقوف في الشمس كان يشير الى الدرجة ١٣٥ مئوية فان هذه الحرارة قد تضاعفت بهبوب ريح لم يعد يطاق احتمالها فهى فضلا عن سخونتها وجفافها وثقلها على الانف كانت تجلب معها سحبا من الغبار والرمال بحيث صعب علينا ان نتبين ما حولنا دون ان تمتلي عيوننا وافواهنا وانوفنا بذلك التراب .

فهذه العقبات ، ونفاد صبر رفيق ، وحدوث ذات الاحاسيس لدى اولئك الذين كانوا ينتظرون اوبتنا عند الضريح والذين ينبغى لهم ان يسيروا مدة اربع ساعات في ذلك اليوم القائظ لبلوغ مدينة الحلة ، كل هذه الامور ساهمت في سرعة

مغادرتنا لذلك المكان بعد ان مكثنا فيه بضع دقائق لالقاء نظرة خاطفة على ما جئنا لرؤيته من مسافة بعيدة .

ومع انني لم ادون ذات الملاحظات المستفيضة عن هذا الموقع ، كما اعتدت ذلك في اي من اطلال بابل الاخرى ، فقد استطعت خلال اليوم التالي في (الحلة) وفي مكان هادىء من الخان الذي حللنا فيه ، ان ادون ما بقي منه جديدا في ذاكرتي .

كان محيط قاعدة تل الاحيمر في هذه النهاية الشرقية الموقع الذي تجولنا فيه بين اطلال بابل يتراوح ، كما يبدو ، بين ثلثمائة واربعمائة قدم ، وشكل التل بيضوي بدلا من ان يكون مدوراً واعظم طول له يمتد من الشمال الى الجنوب ، واقله من الشرق الى الغرب وهكذا كان عرضه عند القاعدة ما بين ثمانين ومائة قدم ويكاد ارتفاع التل ان يعادل الجزء الواطىء من تل المجليبي [٢] او ما بين سبعين وثمانين قدما وهذا مساو لعرض القاعدة تقريباً .

حين صعدنا الى قمة التل وجدنا كتلة صلبة من جدار يبلغ طوله حوالي ثلاثين قدما وسمكه ما بين اثني عشر وخمسة عشر قدما . ومع ذلك فان هذه الاطوال تعد من الابعاد الشاسعة على ان البناء في وضعه الراهن غير كامل ومتهدم من جميع الجوانب . ولم يكن من اليسير والحالة هذه ، بعد ان انخفض ارتفاع القمة عن مستواه الاصلي حتما ، اعطاء قرار بشأنه لانه مهما كان عدد طبقات الاجر التي اقتلعت من الجدار ، فقد بقي الرخو الذي تفتت ملاطه بفعل الزمن وهذا يختلف عن الانهدام الذي اصاب جوانب الجدران وواجهاتها ولو كان من المحتم سقوط قمتها .

والشيء الواضح هو ان ما وجدناه كان كتلة صلبة من جدار ولم يوجد

جزء منه على شكل غرفة او بناء يسكن ، وكان مظهره يشير الى انه قد شيد على حافة مائلة من ناحية الشرق او الجهة الداخلية وهي الجهة التي صعدنا اليها .

كان سمك الجدار عند القاعدة ما بين ثمانين ومائة قدم ، وسمكه عند القمة يتراوح ما بين اثنى عشر وخمسة عشر قدما وارتفاعه العمودى ما بين سبعين وثمانين قدماً .

وحجم الآجر ونوعه اعتياديان فهو مربع الشكل احمر مصفر يحوي بقايا طفيفة من قش مثروم استخدم فى صنعه لكنه غير ظاهر تماماً .

والذي رأيته ان هذا الآجر لم يكن يحوي كتابات او صوراً وكان الملاط الذى استخدم في البناء رقيقاً جداً ولونه من لون الآجر لكنه لم يكن متماسكاً كالملاط الذي استخدم فى بناء القصر . وربما كان هذا البناء الذي بدا نظيفاً وحيداً لا يعود الى تأريخ سالف .

ولعل اهم خاصية تشاهد في هذا التل ، وهى فريدة بالنسبه لاطلال بابل المعروفة ، وجود طبقة من مادة بيضاء على مسافات لا يزيد عرضها عن عرض طبقات القصب التي شاهدتها في « عكركوف » وان هذه الطبقة البيضاء كانت ترى بعد كل اثنى عشر او عشرين سافا من الآجر ، وهي تظهر في شكل خيوط على الآجر اشبه بقطع صغيرة وجميلة من القش او انها متقاطعة ، كما ادهشتني في وضعها حيث كانت تشبه مزيجاً من ورق البردي المصري . فحين انتزعت بيسر آجرتين من التل ظهرت بينها تلك المادة البيضاء في سمك ربع بوصة وكانت ترى بوضوح . وحين تقلع هذه المادة وهي جديدة تبدو بيضاء كالثلج ولها منظر مشرق كالاملاح المعدنية ، او انها تشبه خيوط ريش الزجاج الذي يصنع في انكلترا ، لكنها ما ان تمس بالاصابع حتى تتحول الى مسحوق ابيض

على راحة اليد وهي اشبه بالمادة التي تتخلف على الاصابع بعد امساك جناح احدى الفراشات .

واذ حاولت انتزاع طبقة كاملة بالمدية سقطت فاستحالت الى ما يشبه الرماد الابيض الذى يتخلف عن عود محترق ، وقد تطايرت في الهواء لشدة رقتها وخفتها . ولست اذكر انني شاهدت مسحوقا لطيفاً كهذا ، أو رأيت مادة صلبـــة مثلها توضع بين طبقات الآجـــر ثم تتهشم بغتة لدى اخف لمســـة تلامسها *

وعلى امتداد البصر من هنا كنا نشاهد تلالا متفرقة تسير في خـط مواز تقريبا للربوة التي كنا نقف فوقها ، وتمتد نحو الشمال والجنوب وكانت سعة بابل في ناحية الغرب تمتد امامنا باقصى ماتستطيع العين ان تراه وهى تتقاطعها الشوارع والقنوات ، وتكللها كتل متفصلة هى بقايا اطلال متفرقة من المساكن في حين ان الساحات المستوية التى لاتظهر فيها مثل هذه الاطلال وكانت تستعمل للزراعة كما هو واضح تتجاوز في مساحتها الجزء المشغول بالمساكن بفرق واسع ربما كان بنسبة عشرة الى واحد **

---

* لا زالت هناك كمية صغيرة من هذا المسحوق نقلتها من هذا الموقع ذاته واودعتها الآن لدى احدى السيدات في انكلترا . وقد عرضت تلك الكمية مؤخراً في « متحف التحف » الذى اقامته تلك السيدة .

** يصف ديودورس الصقلي الابنية الخربة المتهدمة في عصره ، ويؤكد انه لا يوجد الآن سوى جزء صغير من المدينة مأهول بالسكان وان الجـزء الاعظم من الارض داخل الاسوار مزروع .

(ديودورس الصقلى الكتاب الثانى صفحة ٧٠ طبعة ستيفن وصفحة =

اما تل المجلي او القصر الملكي فيبدو من هذه الناحية اكثر ارتفاعا ، وقد وجدنا ان موقعه ، بالحك ، فى الغرب يبدأ من شمالي نصف الشمال ، ومابين عشرة واثنى عشر ميلا ، وان هذه المسافة يمكن قطعها فيساعتين وثلاثة ارباع الساعة بالسير المعتاد للخيول التي نركبها وكانت خفيفة الحركة غير متعبة .

= ٩٨ طبعة رود

DIODORUS SICULUS LIB 11 P. 70 STEPHEN. SED 1 . AND P. 98 RODE . EDIT .

اما سترابو الذى الف كتابه بفترة غير طويله بعد ديودورس فيقول ان ذلك الجزء من المدينة قد هدمه الفرس ، ومن ثم اهمله المقدونيون بعض الوقت ، ولا سيما بعد ان بنى سيلوقس نيقاطور مدينة سلوقية على دجلة بجوار بابل ، ونقل اليها هـــو وخلفاؤه بلاطهم ، ولذلك فسلوقية الان اكبر قفرا ومن هنا يمكن ان يطبق عليها ما قاله الشاعر المتألم في مدينة ميغالوبولس (٣) باركاديا (٤)

حين قال ان المدينةالعظمى قد غدت الان صحراء واسعة · (سترابو الكتاب السادس عشر صفحة ٧٣٨ طبعه باريس

STRABO . LIB 16 P . 731 P.738 EDIT PARIS.

ويؤكد « بلينى » بذات الطريقة بان بابـل استحالت الى خراب وطغت عليها جارتها سلوقية التى شيدها سيلوقس نيقاطور . (بلينى : التاريخ الطبيعي الكتـــاب السادس الفصل ٣٠ طبـــعة هاردين

PLINY NATURAL HISTORY LIB 6 C . 30 EDIT HARDIN

ولما كان سترابو قد قارن بابل بميغالوبوس فان « بوسيناس » (٥) (الذى عاش في حوالى منتصف القرن الثانى بعد المسيح) يقارن هو الاخر ميغالوبولس ببابل ، في كتابه عن الاركاديين ، ويقول « انه لم يبق من بابل تلك المدينة العظمى التى لم تر الشمس مثلها ، في هذا الوقت =

وكان الخان المتهدم ، او الحوش المشيد من الطين الذى مررنا به في طريقنا الى هنا ، يبعد عنا مسافة ثلاثة اميال باتجاه الغرب فى حين يقع ضريح الشيخ الذي تركت رفيقي المسيو بلينو واحد الخدم عنه ، يقع هذا فى الغرب وعلى مسافة ميل ونصف الميل . (×)

والى الشرق من المكان الذي كنا فيها امتدت صحراء ،فاحلة تكسوها

= سوى الجدران (بوسيناس : الكتاب الثالث فصل ٣٣
PAUSANIAS - LIB 111 C. 33

ويشير اليها مكسيموس تيريوس (٦) فيقول عنها انها ظلت مهملة ومنبوذة .

ويذكر لوقيان (٧) عنها « انها بعد وقت قليل سيبحث الناس عنها فلا يعثرون عليها كما هو حال نينوى .

ويقول قسطنطين الكبير (٨) في حديث حفظه « اوسابيوس » انه نفسه كان موجوداً في بابل ، وشهد بأم عينيه حالتها الخربة البئيسة وفي زمن القديس جيروم (الذى عاش في القرن الرابع بعد المسيح) كانت بابل قد تحولت الى حظيرة كانت تحفظ فيها الحيوانات المتوحشة داخل اسوارها ليصطادها فيها ملوك فارس المتأخرون ويقول جيروم « لقد علمنا من احد الاخوان العيلاميين » الذى خرج من تلك البلاد وهو يعيش الان راهباً في اورشليم ،ان حفلات الصيد الملكية كانت تقام في بابل ، وان الحيوانات المتوحشة من كل نوع محصورة داخل نطاق اسوارها (هيرون : تعليق في سفرا شعيا فصل ١٣ ص ١١١ مجلد ٣ طبعة بندكت)

IIIRRON - COMMENT IN ISAI CAP X 111 P 111 VOL 111

ثم يعود بعد قليل ليقول « وما خلا اسوار الاجر التي تم اصلاحها بعد =

الرمال الصفراء وتهب عليها احيانا هوجات من الرمال . وكانت هذه الرمال غير متماسكة ، ومتحركة وان اختلفت درجة عمقها فوق التربة . ولم نر خلفنا اي اثر لاطلال في حين كانت اطلال الابنية نرى في وضوح بامتداد الربوه التي كنـــا نقف فوقها. وعلى بعد اربعة او خمسة اميال شرقي الجنوب الشرقي شاهدنا فوق الرمال الصفراء كتلتين سوداوين لا ندرى ان كانت جثتي جملين ميتين ام بيوت الشعر اقامها البدو الرحل ، ام أنها اشياء اخرى تجسمت بفعل انـــكسار اشعة الشمس القوية في افق الصحراء في ذلك الوقت وسوى هاتين الكتلتين كانت الناحية الشرقية قفرا متصلا من الرمال ينتهى الافق فيها في شكل بحيرة واشجـار تكونت من انكسار اشعة الشمس انذاك فوق تلك التربة المشبعة بالاملاح فراحت تعطى الصحارى المتناثرة صفة الماء وتعكس شجيراتها على ذلك المنظر ، في شكل خط من غابات واسعة . اما في الاتجاهات الاخرى فلم يكن يشاهد سوى تـــل طبيعى ، او جبل ، او ظواهر اخرى تعترض امتداد ذلك السهل المنبسط *

= سنوات عديدة لحجز الحيوانات المتوحشة داخلها فقـد تحولت كل الارض التى كانت ضمن تلك المدينة الى قفار . وهذه الاسوار اما ان تكون قد نقضت على ايدى العرب المسلمين الذين افتتحوا هـــذه الامبراطورية التى اقامها الفرس ، او انها تهدمت وتخربت بفعـــل الزمن .

(نيوتن : عن النبوءات ص ١٧٢ ــ ١٧٤

NEWTON ON THE PROPHECIES P . P . 172 - 174

* [مهلا ايتها المدينة التى تعيش على انهار كثيرة ، وكنوز وفيرة . ان نهايتك قد دنت ، وكذلك دنت نهاية اطماعك . انهم لن يرفعوا منك حجر الزاوية، ولاحجراً للاسس وانما ستظلين مهجورة الى الابد. هكذا =

وهذه المدينة التي اثارت دهشة واعجاب جميع القدامى الذين وصفوها ، او قاموا بزيارتها ، غدت مساحتها مثار خلاف بين المؤرخين المحدثين حتى ان اكثرهم اطلاعا وعدم تحيز يرى ان الضرورة تقضى بعدم اخذ البيانات التى ذكرهـــا المؤرخون القدامى بنظر الاعتبـــار ، وضرورة انقاص مساحة المدينة القديمة الى مستوى يتعادل مع تقديراتهم لعدد سكانها ، ولوسائل تزويدهم بالغذاء.

فمؤلف الجغرافيا الكبير « دانفيل » وهو من اول الذين تحروا هـــذه المسألة المهمة ، استطاع عن طريق مقارنة المقياس القـــديم بالمقياس الذى وضعه هو ان يعترف بالعدد الكامل من الفراسخ التى ذكرهـــا القدامى عن محيـط اسوار المدينة ، ويقرر ان مساحة بابل بالنسبة الى مســـاحة باريس لا تزيـد عن نسبة خمسة الى اثنين ، وبهذه الطريقه يقرر ان محيط بابل لا يزيـــد عن ستة وثلاثين ميلا انكليزيا ، في حين كان محيط لندن وضواحيهـا وقت وضعه كتابه ذاك ، خمسة عشر ميلا ونصف الميل ، ومحيط باريس لا يتجاوز خمسة اميال وثلاثة ارباع الميل .

اما الميجر « رنل » الذى جاء بعد دانفيل وكان مثله في المعرفة والقدرة

= قال الرب وان الارض ستضطرب وتنوح لان الرب ســـيستخدم كل مقاصده ضد بابل وذلك ليجعل ارض بابل قفرا من دون سكان وستغدو بابل ركاما ومأوى للثعابين ولن يسكنها ساكن واحد

وبذلك ستثير الدهشة والاستغراب .ان البحر سيطغى على بابل وستغمرها امواجه الجارفة وستتحول مدنها الى يباب وارض جرداء موحشة ارض لا يعيش فيها انسان ، ولن يمر بها ابن آدم ابدا]

[سفر ارميا : الاصحاح ل الايات ١٣،٢٦،٢٩ ٣٧،٤٤، ٤٣]

والحكم فيقول أنه على الرغم من تفوق القرار الذي اعطاه سلفه العظيم في هذا الموضوع الذى يمس دقة القياسات، الا انه لا يمكن ان يشاركه رأيه فيما يخص بابل، فلم يظهر لديه — بالنسبة الى المؤرخين القدامى — ان القياس الذى ابتدعه دنفيل لاحتساب مساحة بابل قد استعمله المؤرخون القدامى انفسهم، او انه كان معروفا لديهم.

فهذا الاثري الجغرافي الانكليزي قد انتهج ذات السلسلة من الابحاث ببراهين افضل وبنجاح اكثر لكن النتائج التى توصل اليها تعتبر اكثر مبالغة من الواقع بسبب عدم كفاية الوسائل التي تزوده بها لترشده في مناظراته تلك.

فبعد تلخيص الحقائق التي يستند عليها لتأييد مساحة بابل التامة التي حددها المؤرخ الاول، يظهر ان تقدير الميجر رنل تلك المساحة باثنين وسبعين ميلا مربعا اقل من المساحة الحقيقية ما دام محيط المدينة الذي قدره دنفيل بستة وثلاثين ميلا هو اوطأ رقم تقاس به مساحة تلك المدينة الهائلة.

فالبراهين التى اوردها الميجر عن نسبة المساحة المأهولة من المدينة ضمن الاسوار، وعدد السكان الذين تساعدهم موارد الريف المجاور على العيش، براهين كاملة لا يمكن اضافة شيء اليها.

اما اذا ثبت لذلك المؤرخ ان بقايا الاطلال القائمة تؤكد ان مساحة بابل كانت بالسعة التى وصفها هيرودوتس، فعليه حينذاك ان يعترف بوجود ذلك البناء وان يسعى لتذليل كل الصعاب وذلك بان يحدد عدد سكان بابل بنسبة معتدلة وان يفترض ان نسبة الارض التى انشئت عليها الابنية كانت اقل ان هي قورنت بمساحة المدينة كلها.

يقول هيرودوتس عند الكلام عن بابل « ان الاشوريين [10] كانوا

يقيمون عواصم عديدة لكن المدينة التي كانت تمثل قوتهم وشهرتهم الخارقتين هي بابل التي غدت المقر الملكي لهم بعد خراب نينوى (١١) فهي تقع في سهل واسع وعلى شكل مربع تام يبلغ طول كل ضلع منه مائة وعشرين فرسخاً ولذلك كانت مساحة الارض التي تشغلها اربعمائة وثمانين فرسخاً ومن هذا يظهر ان الارض التي كانت تشغلها بابل ذات مساحة واسعة جدا اما جمالها وعظمتها من الداخل فانهما تتجاوزان كل ماعرفه . فهي محاطة بخندق واسع عميق ممتلىء بالماء ، والسور الذي يقع خلف هذا الخندق يبلغ ارتفاعه مائتي ذراع وعرضه خمسين ذراعا ملكية والذراع الملكية تزيد على الذراع الشائعة بمقدار ثلاثة اصابع .

ولقد القى التراب الذي نتج عن حفر الخندق في شكل اكوام اول الامر ومن ثم صنع منه لبن مربع الشكل ثم شواؤه في افران

والملاط الذي استعمله البابليون كان مزيجا من القار الساخن الممتزج بقطع صغيرة من القصب وكان هذا المزيج يوضع بين كل ثلاثين سافا من الاجر وحين استقامت جوانب الخندق على هذه الشاكلة شرع البابليون يشيدون السور بالطريقة ذاتها ، فاقاموا على قمته ابراج مراقبة صغيرة ذات طابق واحد ، وتركوا فراغا فيما بينها بحيث تستطيع مركبة يجرها حصانان ان تغدو وتروح فيه *

والحقائق الاساسية التي يمكن استخلاصها من هذا الكلام تتناول ، ماعدا مساحة اسوار المدينة ، ارتفاع تلك الاسوار وسمكها وشكل بنائها . فارتفاع سور ثابت الى ثلثمائة قدم شيء مدهش حقاً لكنه امر قابل للتصديق اذا ما قورن مع اهرامات مصر ومعابدها التي نشاهدها الان ، والمنشئات الاخرى في بابل التي وصفت لنا او التي عثرنا على اطلالها المتداعية . ومهما يكن الامر فان ارتفاع اسوار

---

* هيرودوتس : تاليا HERODOTUS - THALIA

بابل قد انخفض في وقت لاحق بشكل ملموس

فقد ذكر ذات المؤرخ انه (حينما استولى داريوس بن هستاسبيس [١٢] على بابل بالخديعة التي دبرها « زوبيروس » [١٣] ، نقض اسوارها ، وجعلها ارضا مستوية ، وازال ابوابها وذلك ما لم يفعله كورش من قبل *

وقدر كونتوس كورتيوس ارتفاع اسوار بابل بمائة ذراع او مائة وخمسين قدما ، في حين قدره سترابو بخمسين ذراعا او خمسة وسبعين قدما

ورغم اختلاف التقدير بين المؤرخين فان الفرق في هذا التقدير لا يمكن التوفيق فيه الا اذا افترضنا ان احد المؤرخين قاس ارتفاع السور ابتداء من القاعدة الخارجية بما في ذلك الخندق ذاته بينما قاس المؤرخ الاخر السور من الداخل مبتدئا بالقاعدة ومنتهيا بالقمة ومع ذلك فان الفرق في التقديرين يوضح الخلاف الحاصل فيما كتبه المؤرخان .

وكذلك فان العرض الذي ذكره هيرودوتس بمقدار خمسين ذراعاً او خمسة وسبعين قدما انما احتسب من القاعدة الواطئة على وجه التأكيد في حين يقدر كل من سترابو وكورتيوس ذلك العرض باثنين وثلاثين قدما .

اما تل الاحيمر فان مظهره كما رأينا يوحي لنا بان ارتفاعه يتراوح ما بين سبعين وثمانين قدما وعرضه ما بين ثمانين ومائة قدم بما في ذلك مساحة الانقاض المتساقطة حوله ، وعرض قمته ما بين اثنى عشر وخمسة عشر قدما بعد ان تساقط الآجر منه .

وقد علمنا من المؤرخ ذاته الطريقة التي شيدت بها هذه الاسوار فقد ذكر بان اللبن كان مربع الشكل وكان يشوى بالنار ولم يذكر شيئا عن الملاط الاعتيادي

---

* هيرودوتس : تاليا ١٠٩ HERODOTUT THALIA 159

بين كل ساف أو آخر لكنه تحدث عن القار الساخن الممزوج بالقصب بين كل ثلاثين سافا

ومن بين جميع الاسانيد التي ذكرت، والاقتباسات التي اقتبست لتصوير صفة بناء بابل، كان الوصف الذي ذكره هيرودوتس هو الماثل في ذاكرتي حين يتحدث عن القار الساخن. فحيث جرى الحديث عن تلك المادة قال عنها انها كانت قاراً وكلما ذكر القصب قال عنه انه كان يستعمل في شكل طبقات.

والصفة العامة للاثار التي وصفت في تلال المجابي والقصر، وتل عمران تتفق بدقة مع تلك المميزات ففي اول هذه التلال يوجد اللبن، وبين كل ساف توجد طبقة من القصب او الحلفاء، وكلها جديدة لم يصبها اي تغيير منذ اليوم الاول الذي وضعت فيه هناك.

كما يشاهد شيء من القار عدا القطع المتناثرة التي عثر عليها فوق سطح التلال الخربة.

واني اتفق تماما مع ماذهب اليه المستر ريج من ان استعمال القار بمثابة ملاط لم يكن شائعاً كما يتصور البعض. وهذا واضح اولا في قلة الآثار التي عثر فيها على القار وثانيا لانه قد توفر للبابليين الكلس والطين في تربتهم وهما اقل كلفة، واشد مقاومة من القار.

ففي « القصر » الذي يعد بناؤه من احسن الابنية استعمل الكلس ملاطا. وفي « برس نمرود » الذي يقع على الناحية الغربية من الفرات، يبدو ان ذات المادة قد استعملت هناك ايضاً، وقد وصفها جميع الذين شاهدوها بان صلابتها كانت غير معتادة.

واذ نعلم بان المادة التي ذكرت لم يتحدث عنها سوى مؤرخ واحد من

المؤرخين القدامى الذين يعدون من الثقاة في تأريخ بابل ، فعلينا ان لا ننسى بان القار الساخن لم يستعمل الا في بناء الخنادق والاسوار حسب .

وفي تل الاحيمر ، وفي جزء من السور المحيط بالمدينـــة ، عثر على مادة متشابهة في طبقات متباينة .

ولقد دهش الدكتور هاين طبيب دار الاقامة البريطانية في بغـــداد والكابتن لوكيت من الجيش البريطاني الملكي ، حين زارا هذا الطلل لاول مرة ، من صفة ذلك الملاط وتفرده . وقد كانا يعتقدان ، حسبما علمت ذلك من السيد الاول ، ان هذا الملاط يحتوي في الاصل على قطع صغيرة من القـش ولو ان ذلك لم يوح لهما باية فكرة عن تركيبه الذي وصفه هيرودوتس

وعندما تكلم المستر ريج في تذكرته عن الاحيمر قال ان القاعدة تل من انقاض في قمته كتلة بناء من آجر بين كل ساف منه مادة بيضاء غريبة تتحطـم الى ذرات باقل لمسة » .

ويضيف ريج الى هذا قوله « انني لم ازر الاحيمر بعد لكن الذين فحصوه يعتقدون ـ من مشاهدة ذرات تلك المادة البيضاء ، او المسحوق المفروش في شكل خيوط — ان تلك المادة لا بد ان تكون في الاصل طبقات من القصب .

وقد لاحظ في ذات المكان انه لم يعـثر على القصب في الابنية الاخـرى التي تضمها بقية الاطلال لانها كانت مشيدة بالاجر .

والحقيقة البارزة التي تكونت لدينا هي ان هذه المادة كانت مزيجا من القار الساخن الممزوج برؤوس القصب .

وبعد هذه الحقبة الطويلة من العصور التي انقضت منـذ ان اصبحت بابل قفرا يبابا ، يدهش المرء اذ يجد هذا العدد الكبير من الشواهد الدالة على عظمتها

السالفة بارزة اكثر من اى جزء آخر من اسوارها ففي جميع العمليات الحربية التي شنتها القوات المعادية ضد المدينة لا بد وان يكون هذا الجزء قد عانى انتقاما مدمرا على يد العدو المهاجم .

وحين انحطت ثروة المدينة واهميتها، ونقص عدد سكانها، لم يعد احد يعني بترميم تلك الاسوار وبمرور الزمن غدا انهيارها التدريجي سريعا بعد ان هجرها كل السكان الذين كانوا يسكنون ضمن مداها .

ويبدو من ندرة الوقود وغلائه، ومن مظهر كثير من التلال، ان الجزء الاكبر من المساكن قد شيد باللبن، وان هذه المساكن — ماخلا القصر والجنائن المعلقة -- كانت عرضة للانهدام اسرع من تلك التي شيدت بالاجر

كما ان ضخامة هذه الاسوار قد جعلها اكثر ملاءمة لقلع الاجر منها بالنسبة للابنية المنفصلة .

ولما كانت هذه الاسوار تحيط بالمدينه فلا بد ان تكون بعض اجزائها قريبة من الاحياء المسكونة ولذات السبب تم بناء سور الصين العظيم بسرعة لان كل منطقة كان يمر بها السور كانت تنشيء منه القسم الخاص بها وهكذا انهدمت اسوار بابل لان جزءا منها كان معرضا للتهدم او لقلع الاجر منه من قبل البنائين في كل حي من احياء المدينة وظلت ذات الاسباب تفعل مفعولها في تهديم الاسوار حيث قيل ان مدينة بغداد، ومدينة الحلة، ومن المؤكد ان مسجد علي ومسجد الحسين والعديد من الخانات والقرى المتناثرة حولها، كل هذه الابنية قد شيدت من الاجر المنقول من اسوار بابل .

ولم يكن من المستحيل ان هذه الاسوار قد استعملت — كما ذكر ذلك

سانت جيروم في عهده — مشتملا لحديقة عامة . ولما كانت تقع على جانب واحد من النهر فقد ظن جيروم ان اسوار بابل تؤلف حدود المكان الذي قامت الجنائن المعلقة والقصر فيه .

لا يوجد اى دليل يشير الى ان هناك مادة اخرى غير الاجر قد استعملت في بناء الاسوار ولهذا كان قلع الاجر سهلا ، وكانت الاجزاء التي تتحطم منه والملاط الذي يتفتت ، سرعان ما تذروها الرياح ، وتمتزج برمل الصحراء *

ولنعد الى ذكر سعة محيط الاسوار فنقول ان هذه السعة الهائلة تبدو امرا مشكوكا فيه اذا ما قورنت مع مساحات المدن العصرية ولا سيما اذا أخذت كل من لندن وباريس اداة للمقارنة .

فالتقدير يجعل مساحة بابل ثمانية امثال مساحة لندن بالنسبة المنطقة القائمة داخل الاسوار والحد الادنى من هذا التقدير يجعل مساحة بابل الى باريس

---

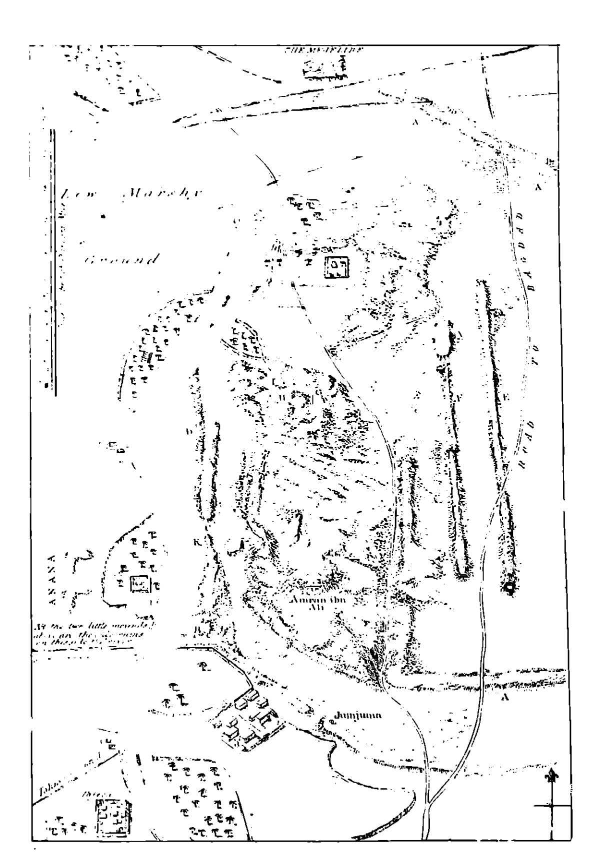
* قال بيروسوس ، كما نقله يوسفس ، ان كورش حين استولى على بابل امر بنقض اسوارها الخارجية لان المدينة بدت في نظره جد محصنة ولا يستطيع الاستيلاء عليها . اما زينفون فانه يذكر لنا في كتابه (سيروبديا) الجزء السابع صفحة ١١٤ ، ١١٧ طبعة ستيفن

XENEPHON - CYROPAED . LIB V 11 PP 114 , 117

بان كورش ارغم البابليين على تسليم كل ما لديهم من سلاح والا كان جزاؤهم الموت كما وزع احسن منازلهم بين ضباطه وفرض الجزية عليهم وعين حامية قوية في المدينة وارغم البابليين على دفع نفقاتها كيما يظلوا فقراء اذ ان تلك خير وسيلة تجبرهم على الاذعان له

نيوتن عن النبوءات ص ١٦٨ ، ١٩٦

NEWTON - ON PROPHE CIES PP . 168 , 169



Low Marshy Ground
ROAD TO BAGDAD
Amran ibn Ali
Jumjuma

بنسبة خمسة الى اثنين .

ولكن عندما ذكر ان نينوى « كانت مدينة واسعة جدا يبلغ طولها مسيرة ثلاثة ايام ، وان النبي يونس لم يبلغ بخرابها الا بعــــد ان دخلهـا في مسيرة يوم واحد ، فان احداً لم يعترض على مساحتها لانها مصادقة من لدن احد الانبياء (يونان : الاصحاح الثالث الاية ٣ JONAH - CHAP 111 V 3)

ويقول « سترابو » ان هذه المدينة في الواقع اوسع من بابل (ســترابو : ص ٧٣٧) . اما ديودورس فيصفها بانها مستطيلة الشكل ، وان عرضها يبلغ تسعين فرسخا وطولها مائة وخمسون فرسخا (الكتاب الثاني فصل ١١) وكانت تمتد زهاء تسعة عشر ميلا على الضفة الشرقية من دجلة ، وعرضها من النهر حتى الجبل حوالى احد عشر ميلا ، وهذه تقرب من المساحة المقدرة لمدينة بابل

يقول الميجر رنل « فاذا ما اخذنا مساحة « غور » عاصمة البنغال القديمة [١٤] في اعظم سعة لها فلن تكن اقل من خمسة عشر ميلا طولا بامتداد نهر (الكنج) وعرضها يتراوح بين ميلين وثلاثة اميال

ويورد « آيين اكبري » ، [١٥] طبقا لذات المؤرخ ، ان سور (محمودآباد) [١٦] في الجزيرة كان على شكل مربع ذي سبعة فراسخ تعادل ثلاثة عشر ميلا ، وان المسافة بين اقصى طرف من الهياكل المخربة في طيبة المصرية تصل الى تسعة اميال تقريباً ، وهذا هو طول قطرها حسب .

ولذلك فلا يوجد سبب يدعو الى عدم تقبل ماذكره هيرودوتس حين قال ان بابل كانت مربعة الشكل وان طول كل جهة منها خمسة عشر ميلا على اسـاس ان الميل الواحد يعادل ثمانية فراسخ ، وان مجموع مساحتها يبلـغ اربعمائة وثمانين فرسخا . في حين ان الـكتاب الذين جاؤا بعد هيرودوتس وبليني قـــد جعلوا

مساحة بابل ثلثمائة وخمسة وستين فرسخا وسبب ذلك يعود - كما ذكر كاتارخوس وغيره - الى اعتبارهم هذا الرقم ملائما لانه يتناسق مع عـــدد ايام السنة وذلك بالشكل الذي يجري فيه الآن تقدير عدد النوافذ في الكاتدرائيات ، وعـــدد الابواب في قصر الحمراء [١٣] باسبانيا ، والمنائر في بعض المدن الشرقية الكبرى ، والمدن المخربة في منطقة « حوران » الجرداء .وقد تضمنت ملاحظات السيد ريج عن هذا الموضوع كل مايحتاج اليه . فهو يقول « من بين جميع المؤلفين القدامى الذين وصفوا بابل كان هيرودوتس وديودورس اكثر تفصيلا ، ولهـــذا ينبغي الاهتمام بالمؤرخ الذى سبق هذين المؤرخين ، لانه شهد بام عينيه ماتحدث عنه من دون مبالغة .

ويواصل ريج قوله « ان المعلومات التي ذكرها المؤرخون المتأخرون ذات قيمة ضئيلة نسبياً ذلك لان الدقة والتجربة الشخصية وان كانتا تضفيان اهمية كبيرة على الوصف الذي ذكره « سترابو » الا انه لم ير بابل الا في الفترة التي غدت فيها ابنيتها كومة انقاض . وعلى هذا فلابد ان يكون سترابو قد اعتمد على المعلومات التي ذكرها مؤرخون اقدم منه عهدا .

وباختصار فان بابل كانت من السعة بدرجة جعلت رحالة مثل هيرودوتس الذي شاهدها كلها العظمى في العصر الذي عاش فيه يعمد الى القول بان « سعتها وجمالها وعظمتها تفوق كل ماعرفته حتى الآن » انها المدينة التي انفردت بالذكر في مائة مكان من الكتاب المقدس ، من التشهير بالاحكام على ايدي الانبياء الى الحالم بالاحلام في التوراة ، باسم « المدينة العظمى » ، انها المدينة التي كان يطلق عليها لقب « مجد الملوك وجمال الفخامة الكلدانية » ، ان مثل هذه المدينة لابد انها كانت عظيمة ، وعلى اقل تقدير ، كانت عظيمة عظم المدن الكبرى المعاصرة لها في الشرق والتي لايشك في سعة مساحاتها بالنظر الى الاجزاء البارزة من مبانيها

الشهيرة فهي تنهض من بين الاقسام الظاهرة التي خربتها الحروب والثورات التي اجتاحت العالم الشرقي . *

---

* في تذكرة عن بعض النقاط التى تخص الجغرافية القديمة ، وفي مقالة عن الملعب القديم (في بابل) كتب المسيو م . دي لو نوز (١٨) يقول « اما بشأن التقدير الذي اورده هيرودوتس لمحيط بابل ومقداره اربعمائة وثمانون فرسخا (هيرودوتس الفصل الاول الصفحة ١٧٨) ، فان صح فذلك امر يثير العجب ولا يحتمل تصديقه واذن فلابد للمرء ان ينقص مقدار الفرسخ عن مقياسه الصحيح ذلك لان الشائع ان بابل كانت مدينة اعتيادية، كما ان «ارسطو »(١٩) لم يؤكد صفات المدينة ولم يعترف بانها كانت تطابق « بولوبونيس » (٢٠) بالنسبة الى محيط اسوارها .

كما ان ديودورس لم يشـــر الى ان بابل كانت تضم اراضي مزروعة ، واخرى غير مأهولة مثلما كانت عليه مدينة نانكين (٢١) القديمة في الصين بعد ذلك بزمن قصير ٠ اما اليوم فلا يمكن تطبيق نفس هذه السعة المفرطة . وعلى هذا الاساس فان تقدير هيرودوتس للميل الواحد بعشرة فراسخ هو ما قدره القدماء لمساحة بابل .

اما بالنسبة الى ارتفاع السور وضخامته فان ذلك قد انشيء لضمان حماية الامبراطورية كلها ، وليصبح من المستحيل على العدو اقتحامه ٠ ولذلك كانت اسوار بابل هذه تعد من عجائب الدنيا السبع ٠ افلا تعطى مثل هذا المظهر النادر ، والمؤثر جداً اذن ؟ .

وعلى هذا المنوال فان مساحة مدينة مماثلة لها نفس الشواهد المنظورة تغدو ضيقة اذا ما قدر طول الفرسخ الواحد بتسعمائة وستين قدماً ٠ =

ويقول رنل « انه لسؤال لا يستطيع احـد ان يجيب عليه بالايجاب ذلك السؤال الذي يدور حول نسبة المساحة التي كانت تشغلها الابنيـــة المشيدة داخل اسوار بابل » .

ان مظهر الخرائب وبقاءها مثل هذه الفترة الطويلة حتى الآن ، لا يمكن ان يعطي الجواب على مثل هذا التساؤل ، وسبب ذلك يعود اولا الى ان التلال المتألفة من الانقاض ربما كانت قد تـكونت بطرق اخرى ، وثانيا ان الاماكن التي لا تحمل شواهد لمواد البناء ظاهرة عليها ربما كانت في وقت ماتضم ابنية قد اختفت كلها تماما .

والذي اعتقده هو ان ثلث المساحة على الاقل كان يضم الابنية ، وان الثلثين الاخرين ظلا خاليين من المساكن لاستعمالها في الزراعة .

يقول كونتوس كورتيوس مؤكدا ان الابنية لم تـكن مصاقبة للاسوار ، وان مسافة واسعة من الارض قد تركت خالية من حولها ، وان الساحة المحاطة لم تـكن مشغولة باية ابنية اطلاقا ، وانها لا تزيد عن ثمانين فرسخا .

ويضيف كورتيوس فيقول ان المساكن لم تـكن ملتصقة بالاسوار ، وربما كان ذلك لبواعث تتعلق بالامن ، وان بقية المساحـة كانت مزروعـة وذلك كيلا يضطر السكان ـ في حالة حدوث حصار ـ الى الاعتماد على التموينـات التي تردهم من الخارج *

ويشك « رنل » في عبارة كورتيوس فهل كان يقصد بها ان المساحة كانت

= مذكرات الاكاديمية الملكية للمخطوطات والفنون الجميلة المجلد ١٦ ص ٣٦٩

MEMOIRES DE LACADEMIE ROYALE DES INSCRIPTIONE ET BELLES LETTRES TOME XXVI P 369

* كونتوس كورتيوس : الـكتاب الثاني ص٤ QUIN.CVRT.LIB.IIp4

بشكل مربع مجموع اضلاعه ثمانون فرسخا ام انها كانت ثمانين فرسخا مربعاً .

فاذا كان المقصود هو العدد الاخير كان ذلك اكثر مطابقة للمساحة التي خصصت للسكان والتي كانت تشغل مابين الثلث والنصف من مربع ضلعه اربعمائة وعشرون فرسخا قدر بها هيرودوتس مساحة المدينة كلها .

ولقد اكد هيرودوتس ان السكان كانوا ، اثناء الحصار الطويل ، يعيشون فعلا على ماتنتجه اراضيهم داخل الاسوار ، وانها عندما احتلها الغازي كورش ليلا لم يعرف سكان الحي المقابل للاسوار حقيقة الوضع الا بعد مرور ثلاث ساعات على شروق الشمس من صباح اليوم التالي كما ذكر « زينفون » ذلك . *

والشيء الذي نستخلصه من هذا ، كما يقول ذلك المستر ريج ، هو ان عدد السكان في بابل لم يكن يتناسب مع عظم المدينة وسعتها بالمقارنة مع المساحة النسبية للعواصم وعدد سكانها في عصرنا هذا ، وان شوارعها كانت تمتد من الباب الى

---

* لقد احتلت المدينة كما اكد ذلك هيرودوتس في الكتاب الاول ، الفصل ١٩١ ، الصفحة ٧٩ « طبعة غال » ، وزينفون في سيروبديا الكتاب السابع الصفحة ١١٣ طبعة ستيفن - ليلة الاحتفال بعيد سنوي عظيم كان فيه الناس يرقصون ويشربون ويمرحون. وذكر ارسطو في كتاب « السياسة » (المجلد الثالث ، الفصل الثالث) ان احتلال المدينة قد تم قبل ان تعلم بعض احيائها بذلك الاحتلال بثلاثة ايام . غير ان ما ذكره هيرودوتس في المصدر السابق كان اكثر اعتدالا ، واحتمالا للتصديق حيث قال « ان الاجزاء النائية من المدينة كانت في ايدي العدو قبل ان يعرف سكان اواسطها ، الخطر الذي كان يتهددهم »

[نيوتن عن النبوءات ص ١٦٦

NEWTON - ON THE PROPHECIES P 166

الباب في اراضي مزروعة ، وقد وزعت عليها المباني في مجموعات واحياء تعطي الى رجل العصر الحاضر فكرة الشوارع التي تمر في منطقة مسورة اكثر من فكرة تقسيم الشوارع في مدينة اعتيادية .

ونحن ـ كما لاحظ ذلك رنل ايضا ـ لم نحصل على معلومات تؤكد ان بابل كانت على شكل مربع كامل ، وان النهر كان يقسم المدينة من وسطها حقا ذلك لأن الاشارة الوحيدة عن هذا الموضوع قد وردت في قول ديودورس « ان نهر الفرات يجري نحو الجنوب وسط بابل » .

اما هيرودوتس فيكتفي بقوله « ان نهر الفرات العظيم يقسم بابل الى قسمين ، وان الاسوار تلتقي لتؤلف مع النهر زاوية في نهاية المدينة » .

وبالاستناد الى المجرى العام للنهر الذي يقع الآن في الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، والى الافتراض القائل بان تخطيط الشوارع الرئيسة كان في اتجاه منحرف عن الشمس لتهيئة ظل اوسع ، يمكن القول بان شكل اسوار المدينة واتجاهها كانا قريبين مما افترضه الميجر رنل ودونه في الخارطة التي صنعها لمدينة بابل وحدد فيها مواقع المدينة ومشتملاتها ، كما ارفق تلك الخارطة بتذكرة عن المدينة ذاتها .

* * *

قبل ان نهبط من السور المهدم الذي اثار كل هذه المناقشات والافتراضات ، حاولنا استخراج بعض الآجر الجديد بملاطه الابيض على امل ان نستطيع حمل نماذج منه الى بغداد لاشباع رغبة المستر ريج الذي كانت اعماله القيمة ، واهتمامه المتزايد بكل مايخص آثار بابل قد جعلته يحظى بالتقدير من لدن كل من يزور ذلك الموقع والآثار التي ظلت غارقة في الظلام اجيالا طويلة .

وفي حوالي الساعة الواحدة امتطينا ظهور جيادنا عند سفح تل الاحيمر

لنعود الى رفيقينا اللذين تركناهما لدى قبر الشيخ .

اشتدت حرارة الشمس الى اكثر مما سجله المحرار عند خروجنا الى هـذه الآثار وهو الدرجة ١٣٥ ف وكنت نافذ الصبر الى درجة انني لم احاول فحص المحرار

كانت الشمس تلفح جباهنا ، والرياح تهب علينا وجها لوجه فتثير عاصفـة من الرمال الصفراء راحت تملأ افواهنا وتؤذي اعيننا فلم نعد نستطيع الرؤية بها .

واستولى الاضطراب على دليلي الكردي ، وهو من اشجع الرجال في كل المناسبات الاخرى ، وفزع مما كنا نلقاه ، ولم يعد يتحدث عن شيء سـوى ريح السموم وآثارها المهلـكة المفاجئة .

غطينا وجـــوهنا باطراف السكوفيات والعمائم التي كنا نلبسها ، وطرحنا رماحنا فوق السروج كيما نتجه الى امام بســـلام ، ولنتجنب تركز الشمس على جباهنا ، وسرنا ببطء دون ان ننطق بحرف واحد وعندما هبت علينا من الشمال الغربي موجة ريح اقوى واشد حرارة من المعتاد كنا نستدير ســـوية ، ونتلقاها بظهورنا من دون ان نتبادل ولو كلمة واحدة ، في الوقت الذي كان يسير فيـه جوادنا معا ينشدان الامن وكأنهما كانا يشاركاننا احاسيسنا . بلغنا قبر الشيخ في حوالي نصف ساعـــة . كانت ملابسنا مليئة بالرمال ، وانوفنا وافواهنا وآذاننا مفعمة بالغبار ، وجفت جلودنا حتى كادت ان تتمزق ونحن نلهث من العطش.

ولم يستطع رفيقانا اللذان تركناهما هناك ان ينعما بالنوم بسبب شـدة الحر وان كانا قد نعما في ظل ذلك البناء السميك الجدران . ولما لم تبق سوى بقية ضئيلة من الماء في الوعاء الجلدي الذي كنا نحمله معا وان رفيقينا ـ كما صرحا بذلك ـ لم يشربا شيئاً منه عند غيابنا ، فقد تقاسمنا تلك الكمية الضئيلة منه فيما بيننا بالقسطاس ومع انها قد وفت بالغرض الا ان ما احتسيناه منها كان لمسح الغبار عن افواهنا دون

ان نبتلع منه قطرة واحدة ، واذ ذاك امتطينا جيادنا واتجهنا نحو « الحلة » .

كانت حالتنا تلك قد ساوت فيما بيننا تماما . فقد كان خادمنا ودليلنا يعربان ، بذات الحرية التي نتمتع بها نحن ، عن آرائهما حول افضل الخطوات التي ينبغي اتخاذها . ولذلك الحا علينا ان نتجه الى الجنوب ، واشارا الى الطريق الذي يتجه الى الحلة رأساً وهو الطريق المتجه الى شمالي الشمال الغربي .

ولما كان اي منهما لم ير هذه البقعة قبلا ولم يستطيعا ان يتذكرا المرئيات التي تشاهد هناك ، وظهرا وكأنهما اشبه بسفن تمخر محيطاً لاحدود له من دون بوصلة تسترشد بها . ولو كانا لوحدهما لما استطاعا بلوغ الحلة بل وحتى شواطىء نهر الفرات قبل ان يسدل الليل ستاره . وكان المسيو بللينو يميل بعض الشيء الى اتباع مقترحاتهما وهو يمثل الصوت المرفوض في القضية .

وفي مثل هذه المناسبة وآلاف مثلها تكون المثابرة هي الفضيلة الوحيدة لمعارضة الآراء المتشعبة . ولذلك ، بعد ان اخذت اتجاهات الاطلال القريبة من النهر ، ونظرت الى الحلة ، سلكت الطريق المستقيم وغير الاثنان اللذان نصحا باتباع الطريق الشمالية اتجاههما وشرعنا نفترق بعضنا عن بعض ، بينما سار المسيو بللينو ، الذي لم يقرر اول الامر اي فريق سيتبعه ، في طريق وسط وهكذا غدونا بعد حركتنا بساعة واحدة متفرقين وكأننا ننتمي الى اطراف او قبائل مختلفة .

ولكن نقطة الالتقاء بيننا قد فرضت نفسها فرضا بعد ذلك . فقد بلغنا بعد ان اجتزنا تلالا واكواما من الانقاض ، بقعة تحيط بها الخضرة وتضم اشجار النخيل وغيرها حيث اسرعنا اليها بشعور مشترك بحثاً عن الماء والظل فيها .

واذ وصلنا تلك الخضرة وجدنا درويشاً طاعناً في السن قال لنا انه امام مزار ينسب الى سليمان بن النبي داود[٢٢]

ترجلنا والقينـا بانفسنا على الارض تحت ظلال بعض الاشجار الكثيفة ·
واذ روينا انفسنا بشرب ماء آسن ملأنا به مزودنا من جرة فخارية وجدناهاهناك سقطنا ، ونحن لانشعر ، في سبات حتى اننا لم نربط خيولنا التي انهكها العطش مثلما انهكنا فأخذت تزحف تحت ظلال الاشجار بحثاًعن هواءباردثم القت بنفسها فوق العشب في سكون ، بينما اضطجعنا نحن على مقربة منها وكأننا جميعاً افراد ذات الاسرة المتعبة .

واستيقظنا في حوالي الساعة الخامسة حيث قدم لنا امام المزار شيئاً من البطيخ التهمناه بشره مع الخبز الجاف الذي كنا نحمله في اكياسنا . واذ انتهينامن ذلك واصلنا السير ثانية وقبل ان تغرب الشمس بنصف ساعة بلغنا الطريق العام الممتد بين بغداد والحلة والذي يقع على مسافة ميل او ميلين جنوبي اطلال بابل ·
واقتربنا من ضفة نهر الفرات في طريق واسـع تقوم على جانبيه جدر طينية عالية اشبه بتلك التي تحيط بحدائق دمشق ، تضم داخلهـا بساتين كثيفة من اشجار النخيل الغنية بالاوراق والمثقلة بالثمار .

وعند المساء دخلنا القسم الشرقي من الحلة او الجزء الممتد على الضفةالشرقية من الفرات .

ويبدو انه يتألف من شارع حسن واحد يمتد الى النهر رأساً ويستعمل بمثابة سوق تتفرع منه عدة شوارع صغيرة على كل من جانبيه . وكانت نهايته الغربية توصد بباب واسعة مررنا منها الآن فوصلنا في التو الى جسر من الزوارق يؤلف هنا طريق المواصلات عبر النهر . والقوارب التي يتألف منها هذا الجسر وكذلك الطريق الذي يمر فوقها تختلف عن قوارب الجسر المقام على دجلة في بغداد ، ويكون العبور عليه خطراً بامتطاء حصان والمرور وسط الزحام . وقد

حدث ان وصلنا الجسر في الساعة التي يشتد الازدحام فيه حيث استرعى المسيو بللينو بملابسه الاوربية انظار كل شخص ، واخذ الحشد يتجمع اقرب فاقرب في وقفات متتابعة من الفضول في التطلع الى ذلك الغريب بافواه مفتوحة متسائلة . كان دليلنا الكردي قد شق طريقه امامنا على جواده الشرس الذي كان لا يفتأ يرتد على اعقابه فيجعل القارب الذي يقف عليه يهتز من هذه الناحية الى تلك محدثاً بذلك حركة في الواح الجسر يعقبها صراخ الناس القريبين منه اما رفيقي الذى كان يأتي وراء الدليل في السير فكان من اللازم عليه ان يعطي تحذيراً عاما . واذ استبد به نفاد الصبر فقد اخذ يعرب عن مشاعره في تلك اللحظة بلغة ، ولو ان احداً لم يفهمها ، الا انها كانت تعبر عن حنقه ، ولما كنت آتي انا وراءه في المسيرة وكأنني تابعه او حاميه ، فقد كان علي ان ارفع رمحي كيلا اصيب به الصبية الذين تجمعوا من حولنا وراحوا يهتفون « فرنجي ، غاوور »[٢٣] كافر » وهم يقفزون على الواح الجسر المتمايلة لكي يضاعفوا من حدة الاضطراب والقلق .

وفي وسط هذا المنظر الذي اثار جدل البعض ، ومخاوف البعض الآخر ، وسبب لي المضايقة ، توقف بدويان كانا على مقربة مني ليقولا لي بمهابة « ياعربي بن العرب » مثلما اعتـــــاد الاسرائيليون ان يسموا النقي الاصل من بينهم بانه (عبري من العبريين) .

كانت عبارة « الحمد لله » تنطلق من اكثر من عشرين لساناً في وقت واحد حين خطونا آخر خطوة على الجسر ، وكذلك عبـارة « ما شاء الله » و « السلامة » ثم اعقبت ذلك صيحات الدهشة والتهنئة بالوصول سالمين الى الضفة الاخرى من النهر ، وكأننا نجونا من عاصفة وسط البحر ، وليس من اخطار جسر عائم في نهر هادىء بطيء الجريان .

وبقدر ما كان يسمح به العبور المضطرب عليه ، قدرت طول الجسر بمائة وخمس وتسعين خطوة حصان وهـذا الطول ليس اقصر من مسافة الفرسخ التي قدرها « سترابو » لعرض نهر الفرات في بابل ، سيما وان الجسر قد شيد على اضيق قسم منه ويذكر « نيبور » ان عرض النهر هنا يبلغ اربعمائة قدم دنمركي ، في حين قدره المستر ريج بخمسة وسبعين ذراعا او اربعمائة وخمسين قدما انكليزيا . اما متوسط عرضه في موقع الاطلال فهو يتراوح ما بين اربعمائة وخمسين قدما وخمسمائة وخمسين قدما وعلى هذا فان اعظم عرض للنهر يقل عن الفرسخ بمقدار الخمس . ولقد قاس المستر ريج عمق النهر في شهر ايار فوجده يبلغ ذراعين ونصف وقد نشر هذا العمق خطأ في تذكرة ريج التي نشرتها مجلة « كنوز الشرق » .

استطعنا ان نشق طريقنا بعسر وسط الحشود التي احتشدت عند الباب التي تحمي الحي الغربي من الحلة ، والتي تقع ، مثل الباب الشرقية ، عند الجسر حيث اتجهنا الى الخان في الوقت الذي كانت فيه المدافع في بيت حاكم المدينة تطلق قذائفها معلنة رؤية هلال رمضان ومن دون ضجة او هرج قبعنا في الخان ونحن نشعر بالسعادة بعد ذلك التعب والتجوال المنهك في البحث عن مكان يتوفر فيه المأوى ، والراحة ، والانتعاش .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الحادى عشر

(١) خلط المؤرخون القدامى كثيراً جداً في الحديث عن بناء الجنائن المعلقة في بابل اذ ظن هؤلاء المؤرخون ان سميراميس ملكة اشور هى التي بنت تلك الجنائن في حين ان الصواب هو ان نبوخذ نصر ملك بابل هو الذى بنى الجنائن المعلقة .

(٢) مرت الاشارة في الجزء الاول من هذا الكتاب الى ان التل الذي سماه المؤلف بالمجلي هو نفسه الذى يسميه الاهلون بالمقلوب وذلك لاعتقاد العامة بأن بابل قد قلبت بارادة الله فغدا عاليها سافلها والمجلبي من كلمة مقلوب .

(٣) ميغالوبولس MEGALOPOLIS من المدن الشهيرة في اليونان برز فيها عدد من الشعراء والمؤرخين وهى تقع في قلب جزيرة مورة (البلولونيز) على بحر ايجه انشئت حوالى ٣٧٠ ق م لتكون مقرا للعصبة الاركادية

(٤) اركاديا ARCADIA منطقة في جزيرة البيلوبونيز اليونانية وقد اصبحت هذه المنطقة مناهضة لاسبارطة ووقعت بينهما حروب عدة

(٥) بوسنياس PAUSANIAS مؤرخ يوناني عاش بعد بنية ميغالوبولس اليونانية في منتصف القرن الثاني للميلاد ووضع كتابا كبيرا عن اقليم اركاديا اليوناني وتاريخه واحداثه وقد ولد بوسنياس في ليديا باسية الصغرى وجمع في كتابه الذي وصف فيه بلاد اليونان كثيرا من الاساطير اليونانية وجغرافيتها

(٦) مكسيموس تريوس MAXIMUS TYRIUS.

(٧) لوقيان (اوقيانوس) LUCIAN ١٣٥ ـ ١٩٠ م مؤرخ يوناني شهير ولد في مدينة سميساط اشهر كتبه « محاورة الاموات » التي لها شبه برسالة الغفران للمعري وقد بلغت مؤلفاته حوالي ثمانين مؤلفا .

(٨) قسطنطين الكبير (٢٨٨ ـ ٣٣٧ م) امبراطور روما الذي مال الى المسيحية وهو الذي عقد المؤتمر المسيحي الشهير في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ م نقل العاصمة من روما الى بيزنطية ، التي جددها وسماها بالقسطنطينية نسبة اليه وعرفت لدى الاوربيين باسم كونستنتنوبل CONSTANTINOPLE الذي حرف الى « اسطنبول »

(—) لم يرد لهذا الضريح اسم في التواريخ الحديثة للحلة ومع ذلك فان هذا الضريح ليس هو المبنى المعروف لدى الحلبيين باسم مقام مشهد الشمس المنسوب الى الامام علي بن ابي طالب (رض)

(٩) اشعيا 1881 احد انبياء بني اسرائيل الاربعة الكبار عاش في القرن الثامن قبل الميلاد قاوم « آحاز » ملك اسرائيل وكان من مستشاري « حزقيا » وقد شجعه على مقاومـــة سنحاريب ملك اشور عندما حاصر اورشليم

(١٠) ماخلا مدينة نينوى كانت للاشوريين عاصمة اخـرى هي مدينـة اشور على مقربة من مدينة « شرغات » (شرقاط الان) كما بنى الملك سرجون الثاني عاصمة جديدة بقرب نينوى سماها (دور شاروكين) تبعد من نينوى ستة وخمسين كيلو مترا الى الشرق من نينوى ذاتها

(١١) سقطت نينوى سنة ٦١٢ ق م بيد البابليين والماذيين الذين تحالفوا ضدها فهاجموها سوية واعملوا السيف برقاب سكانها وخربوا معابدها وقصورها ونقضوا كل ابنيتها وساووها مع الارض واجروا المياه فوقها وكان يقود البابليين في هذه الحالة ملكهم نيوبولاسر بينـما قاد الماذيين ملكهم كى اخسار وسمى اليونانيـــون كى اخسار باسم ارباسيس كما سموا نيوبولاسر باسم بلسيس

(١٢) الثابت تاريخيا ان الفرس استولوا على بابل في عهد ملـكهم كورش الكبير فخربوها ونهبوا كل ما فيها من اموال وخزائن وتحف سنة ٥٣٨ قم ولم يستطع كورش من دخول بابل الا بالتآمر مع اليهود الذين كانوا فيها ولذلك اطلق سراحهم واعادهم الى فلسطين ويفهم من كلام هيرودوتس ان الفرس غزوا بابل ثانية في عهد داريوس وهـذا قول لايزال مثارا للخلاف .

(١٣) زوبيروس ZOPERUS هو القائد اليهودى في جيش بابل ويعرف

باسم « عزريا » او زيريا وكان من الاسرى الذين جاء بهم بختنصر بعد احتلال فلسطين وسبيه اليهود وقد تسلل عزريا الى معسكر كورش واتفق معه على ان يفتح له اسوار بابل ليلة احتفالها بعيدها السنوى حيث قام عزريا بتفريق جيش بابل في جهات متباعدة وسقى حراس الابواب خمراً فدخل الفرس بابل واعملوا السيف في اهلها وهم يحتفلون بالعيد .

(١٤) غور GOUR عاصمة مقاطعة البنغال القديمة وهي من المدن الكبرى والتاريخية في الهند .

(١٥) المؤرخ آيين اكبري من مؤرخي الفرس في القرن السادس للهجرة

(١٦) محمود آباد احدى المدن التى اقامها السلاجقة على الحدود الايرانية العراقية التركية حالياً ويقصد بالجزيرة هنا الاقليم الذي تقع فيه جزيرة ابن عمر وفي الهند توجد مدينة اخرى بهذا الاسم ايضاً

(١٧) قصر الحمراء من اروع روائع الفن الهندسي العربي في اسبانيا ومن ابدع معالم الحضارة الانسانية في العصور الوسطى انشيء في القرن الرابع عشر الميلادي على منحدر جبل « شلير » المشرف على مدينة غرناطة (غرنادا). وقد بدأ ببناء قصر الحمراء ابو الوليد اسماعيل خامس سلاطين بنى الاحمر وتولاه ابنه يوسف سابع هؤلاء السلاطين ثم اكمله ابنه محمد الملقب بالغنى بالله وقد اتلف الاسبان معظم اجزاء هذا القصر بعد ان طردوا العرب من اسبانيا .

(١٨) م . دي لو . نوز M . DE LE NAUZE

(١٩) ارسطو ARSTAT هو نفسه الفيلسوف اليوناني الشهير ارسطو

والذي يسميه العرب ارسطاليس ولد سنة ٣٨٤ ق.م . وتوفى سـنة ٣٢٢ق م . اشتهر عنه بانه كان مؤدب الاسكندر الكبير وهو مـن اعاظم فلاسفة البشرية أسس مذهب فلسفة المشائين

(٢٠) بولوبونيس PELOPONES قاعدة شبه جزيرة بيلوبونيس في اليونان وكانت تسمى « موره » وقد افتتحها الاتراك سنة ١٤٥٨ م وتقع على بحر (ايجه) .

(٢١) نانكين NANKING عاصمة مقاطعة كيانغو في الصين على نهر اليانغستى هي المركز السياسي والثقافي للصين الآن نفوسها اكثر من مليوني نسمة فيها عدة جامعات كانت عاصمة اسرة هنج ١٣٦٨ - ١٤٣١م . وقعت فيها معاهدة ١٧٤٢ التي انهت حرب الافيون اتخذها صين يات صن مقراً له في سنة ١٩١٢ كانت عاصمة حكومة الكومنتانغ من ١٩٢٧ الى ١٩٣٧ استولى عليها اليابانيون في اوائل الحرب العالمية الثانية ثم حررها الشيوعيون سنة ١٩٤٩ .

(٢٢) مزار سليمان بن داود لايوجد في الحلة ولا في اطرافها مزار بهذا الاسم وان كانت هنالك عـــدة قبور لبعض ائمة اليهود في الحلة واطرافها وقد يكون هذا الموقع هو احد المراقد الكثيرة المنتشرة في تلك الانحاء .

(٢٣) غاوور بالكاف المعجمة هي الكلمة التركية التى تقابل كلمة « كافر » في اللغة العربية وهي محرفة عن الكلمة العربية نفسها .

الفصل الثاني عشر

زيارة برج بابل ومعبد بعل او برس نمرود

السابع والعشرون من تموز كانت مهمتنا الاولى ان نبعث بالرسائل التى زودنا بها المستر ريج بكل لطف الى حاكم الحلة والى احد العرب الاقوياء في المدينة المدعو (عيسو بك).

ولقد كان الاول صعب المنال لانه كان فى ذلك الوقت مع حريمه. اما الثانى فما كاد يتسلم رسالتنا حتى بعث الينا ينبئنا بعزمه على زيارتنا

وفى حوالى الظهر أقبل الينا فى الخان يصحبه اخوه الاصغر وطائفة كبيرة من اتباعه. ومن خلال حديثنا معه اكد لنا بانه يضع نفسه عبداً لرغائبنا، ويجعل فى المقدمة تنفيذ اوامرنا وحماية اشخاصنا، وذلك بسبب الاحترام الواسع الذى يكنه لامتنا، وتقديره الشخصي لممثلها القدير فى بغداد واعدنا عليه ما سبق ان قلنا فى الرسالة ذاتها وهو ان الغرض من مجيئنا ينحصر فى زيارة الاطلال التي

تعرف باسم « برس نمرود »[1] فى الصحراء الغربية . وقد حددنا الساعة المبكرة من صباح اليوم التالى للبدء برحلتنا .

واذ ذاك غادرنا بعد ان وعدنا بان كل شيء سيكون معداً لحركتنا في الوقت وفى الطريقة التي نرغب فيها

وفى اثناء النهار وصلت الينا انباء شغب وقعت امام بيت الحاكم فى الليلة السابقة قتل فيها احد الاشخاص وجرح اثنان .

وهذا الوضع بالاضافة الى الخلق السيء الذى اشتهر به اهل الحلة الذين كانوا يقتلون حكامهم ، ويغتالونهم الواحد تلو الاخر دون ان ينالهم عقاب على ذلك ، وكذلك صلفهم وسخريتهم التي اظهروها تجاه رفيقى الاوربى حين دخلنا المدينة ، كل هذه الامور حملتنا على البقاء هادئين فى الخان بقية ذلك اليوم .

الثامن والعشرون من تموز : امتطينا خيولنا قبل ان يطلع النهار وتوجهنا الى بيت عيسو بك لتسلم الحرس الذى سيصحبنا فى زيارتنا لمعبد بعل برس أو نمرود . وقد انضم الينا هنا اخوه الاصغر وستة فرسان مسلحين ممتطين صهوات جيادهم فغادرنا المدينة تحت حمايتهم

بدأ الفجر ينبثق حين خرجنا من اسوار الطين المزرية التي تحيط بالحلة من ناحية الغرب وقد اقيمت على سفح منحدر يقوم على امتداده عدد من الابراج تستخدم لصد غارات عرب الصحراء . ويقع داخل الاسوار تل كبير من الانقاض تغطى سطحه قطع الفخار والاجر ، وبقايا الاثار القديمة التي ظننت لاول وهلة انها اطلال بناية بابلية كبرى ، لكن ما ان اقتربت منها وفحصتها حتى تبين لى انها تجمعت تدريجا من بقايا المواد المهملة التى شيدت المدينة منه

والتي نقلت كلها من اطلال بابل [٢]

خرجنا من المدينة في اتجاه الغرب وبمحاذاة الطرف الجنوبي من سلسلة تلال طويلة عالية كانت تبدو وكأنها تمثل ضفاف قناة تمتد من الفرات الى هذا السهل الغربي

غادرناه هذا المكان في اقل من ساعة واتجهنا نحو الجنوب سالكين طريقنا باستقامة الاثر المتهدم الذي جئنا نبحث عنه وقد اخذ برجه العالي يبرز في اللحظة التي تفتح فيها ضوء النهار .

كان مظهره ، حين بلغناه ، اشبه بمظهر هرم منهار متهدم بقي جزء من برجه في القمة حيث تكون لنا الانطباع بان هذا كان اكثر شهرة من كل النصب في بابل وان كل مايشاهد الآن من آثاره الباقية يعزز الاعتقاد بان هـذا هو برج جوبتر (بعل)[٣] الشهير الذي كان البحث يجري عنه والذي قدر المكتشفون وقوعه بين الاطلال الواقعة على الطرف الآخر من نهر الفرات

تسلقنا الناحية الغربية من البرج بسرعة وحين بلغنا قمته واستعدنا انفاسنا كانت مهمتنا الاولى هي ان نلاحظ مواقع الآثار التي تحيط به كيما نحدد بدقة اكثر موقع ذلك الطلل * لأن الميجر رنل قد اعترف بما اطلع عليه من وصف

* كان الموقع الذى حدد بالحك من فوق قمة برس نمرود يبين ان تل المجلبي او المقلوب يقع في الشمال الشرقي وباتجـــاه الشمال بعشرة اميال ، ومسجد الشمس(٥) في الحلة الشمال الشرقي باتجاه الشمال بخمسة اميال كف اليهودة(٦) ، قبر حزقيال(٧) باتجاه الشرق بسبعة اميال ، « خان دبي »(٨) الجنوب الغربي باتجاه الجنوب بثمانية اميال، خان عنيزة(٩) من الغرب الى الجنوب ونصف الجنوب بثلاثة اميـــال ، البحيرة او المستنقع الاول جنوبي الغرب الى غربي الجنوب الغربي بميلين، البحيرة =

« الاب عمانوئيل »[٤] . وهو وصف غير دقيق ـ بأنه يقع ضمن موقـع بابل ، في حين ذكـر « نيبور » انه يقع خارج ذلك الموقع وعلى بعد ميلين او ثلاثة اميال خلف الاسوار .

اما موقع « كربلاء » او مسجد الحسين فقد اشير لنا بأنه في اتجـــاه الشمال الغربي ، وان مسجد علي يقع في الناحية الجنوبية . ومع ان الصباح كان رائقاً والوقت مناسباً للرؤية الا ان ايا من المسجدين لم يكـن ظاهراً في تلك اللحظـة لان بلوغ كل منهما يتطلب مسيرة يوم كامل ، دون ان يستطيـع المرء تحديد عدد الساعات ، كما ان الخانات التي اشير اليها في المواقـع قد قيل انها تقع على الطريق المباشر من مسجد علي الى مسجد الحسين ذلك الطريق الذي يقطعه عرب الصحراء القاطنون غربيه بشكل ظاهر حيث لا تمضي سنة دون سلب عدد من الزوار الايرانيين ســـواء كانوا فى جماعـــات قوية ام منفردين .

لقد اخذت اتحرى بصفة خاصة عن موقع اثري يسميه السكان المحليون « بورسا » او « بورسا » والمعتقد انـــه يشير الى « بوراسيبا » التي ذكرها سترابو ، او « بارسيتا » كما سماها بطليموس[١٠]

وقـــد ذكرها « جوستن » باسم « بيرسيا » * وهو المكان الذي

= او المستنقع الثاني من الغرب ميلان و نصف الى شمالي الشمال الغربي بثمانية اميال ، البحيرة او المستنقع الثالث من الشمال الغربي الى الشمال الشرقي باتجاه الشمال من ميلين الى ثلاثة اميال

* لقد تأثر الاسكندر بنصيحة العرافين بان لا يدخل المدينة وان يتحول الى برسيا وهى مدينة لم تكن مأهولة وكانت تقع على الجانب =

لجأ اليه الاسكندر عندما حذره الكلدانيون بان لايدخل بابل من ناحية الشرق

وقد اعترف احد الاعراب هنا بوجود هذا المكان لكنه لم يكن يعرف المسافة الحقيقية عن هذا الموقع الذي قال انه يبعد اربع ساعات او ساعة على ظهور الخيل من نهر الفرات ولذلك فلا



الاستراحة عند الضريح بعد العودة من الاحيمر

= الاخر من الفرات . لكن الاسكندر ، وبالحاح من الفيلسوف « انا كزار خوس » (١١) الذي قال له بان لا يأبه بنبؤات السحرة لانها كاذبة وغير محققة ، عاد الى المدينة .

[جوستن الفصل الثاني عشر JUSTIN C. X 11

يمكن زيارة الموقع من دون حراسة كبيرة خوفاً من الاعراب الذين يخيمون على مقربة من الموقع .

لم نكن نشاهد في الارض الخلاء من ناحية الشرق سوى خطوط متباعدة من اشجار النخيل في ارض صحراء صفراء اللون خالية من الحيوان والنبات حيث يمتد خط من هذه القفار الرملية بيننا وبين المستنقعات التي سميت بالبحيرات منذ ان انشئت بابل او بعد ان حل الخراب فيها *

لم يقع نظرنا على اى اثر لجدار او سور ما سواء في شكل تلال ام في شكل انقاض ورباجاءت الرمال على تلك الاثار او ان هذا الحي قد اهمل منذ ان تهدمت بابل لاول مرة لان المظاهر المحلية تدل على ان هذا السور كان يؤلف عائقـــا بوجه اي غزو يرد من تلك الناحية **

---

* مما تجدر الاشارة اليه ان احدى نبوءات اشعيا (الاصحاح ٢١ الاية ١) كانت تنعتها بانها (عبء بحر الصحراء الجرداء) او (سهل البحر) لان بابل كانت تقع في سهل ويحيط بها الماء والذى يفهم من هذا القول ليس ان كل مجموعة كبيرة من المياه تدعى بحرا حسب الاســلوب الشرقي ، بل وتشمل الاماكن المحيطة ببابل ايضا التي كما ذكر ابيدينوس ABYDENUS ـ نقلا عن مغا ثنيس MEGATHENES ـ كانت منذ البداية تطغى عليها المياه ، ولذلك كانت تدعى بحرا . (نيوتن عن النبوءات ص ١٦١ NEWTON - ON THE PROPHECIES P.161

** حذر العرافون الكلدانيون الاسكندر بان لا يدخل المدينة اطلاقا في ذلك الوقت الذي اراد دخولها فيه وهو في طريـــق عودته من « اكبتانا » وفي حملته ضد (الكيشيين (١٢) لكنه استخف بتلك =

وقد ذكر ديورورس الصقلي بان عدد البطائح المحيطة ببابل قد جعلت بعض ابراجها تتحول الى حصون ضرورية للدفاع من اسوارها .

ولقد وقفنا على احد التلال المحيطة عند عودتنا ، فوجدناه على شاكلة هرم منحدر يرتفع الى حوالى مائتي قدم فوق مستوى الارض المحيطة به وفي الجانب الغربي منه بناء من اجر يقع عند القمة ويرتفع خمسين قدما اعلى منه .

اما الجهتان الشرقية والجنوبية فكانتا على درجات متباينة من الكمال . وكان البناء الظاهر يأخذ بالارتفاع في شكل مراحل عالية وظاهرة ترتبط الواحدة منها بالاخرى في عرض مناسب ومتساو

لقد كان هذا هو المظهر الاول من برج بعل الذي شاهده الميجر رنل وقال

= النصيحة بان كرر مقاطع ساخرة من قصيدة للشاعر الاغريقي يوريبديس(١٣)

واخيرا اقنعوه بان لا يدخل المدينة ووجهه نحو الغرب وانما ان يستدير بوجهه نحو الشرق . وقبل الاسكندر ان ينفذ هذه النصيحة لكن وعورة الطريق الذي كانت تغمره المياه والمستنقعات ارغمته على ان يغير ذلك القرار . حتى انه حاول ان يقبل بجيشه كله الى هنا ، وان يدخل المدينة على رأس ذلك الجيش من ناحية الغرب . ولهذا الغرض عبر نهر الفرات وسار بامتداد ضفته الغربية نحو الشمال جاعلا النهر عن يمينه ولما كانت الارض هناك تغطيها المستنقعات ويصعب السير فيها فقد اضطر الاسكندر الى التخلي عن عزمه على دخول المدينة لانه وجد مثل هذا الامر غير قابل للتطبيق

(اريان : الكتاب السابع الفصلان السادس عشر والسابع عشر
ARRIAN B . VII C . 16 . 17

عنه « وقد يستخلص من هذا ان الطبقات العليا منه تحتوى على البنـاء اكثر مما تحتوى على التراب لكن الطبقات الواطئة منه تتألف من التراب » .

اما ستر ابو فيقول « ان جوانب البرج كانت مشعدة بالاجر » والطبقـة الثانية تبين الزاوية الشمالية الشرقية للجبهة الخارجية ومع ان مظهرها اقل بروزا الا انها بينة *

وهناك طبقة ثالثة كان المستر ريج يعتقد انها تمثل الجهة الغربية وهي مشيدة بالاجر اما الطبقة الرابعة والاخيرة في قة ذلك البرج فهى عبارة عن جـدار من الاجر يرتفع الى حوالى خمسين قدما وعوضه ثلاثون قدما ، وسمكه خمسة عشر قدما وعلى هذا الاساس يقدر ارتفاع البرج من القاعدة الى القمة بحوالى مائة وخمسـة وخمسين قدما ويشغل مساحة تبلغ زهاء مائة قدم .

وقد تحولت كتل من الاجر الى مادة صلبة وكأنها قد تعرضت للنار او تحطمت بفعل البارود ** .

ومظاهر هذه الكتل يدعو الى الاعتقاد بان النار قد استعملت في تدمـــير ذلك البناء . * (١٤) .

---

* انظر المواقع النسبية مع المظاهر الراهنة للابنية الاساسية في بابل والتي جاء الحديث عنها هنا في النسخ المصورة من مخططـــات المستر ريج وارائه في لوحة ضمت تذكرته الاصلية عن بابل ونشرتها (كنوز الشرق) وقد ادرجت ضمن المصورات التي ضمها هذا الكتاب .

** تذكرة ريج في مجلة كنوز الشرق LES MINES DE L'ORIENT

* ولقد عرفنا فيما بعد من مقطع من كتاب ديودورس الصقلي اعاد طبعه فاريوس (١٥) واقتبسه عنه فرتنغا (Vertinga) ان ملك الفرثيين او =

ولما كانت هذه هى القمة الاصلية للبناء فان النار التي استخدمت فيها كانت للضحايا والنذور مما يدل على ان برس نمرود كان معبداً للنار وان الاثار المتداعية منه لا تزال تحمل اثر النار المدمرة فيها **

ويبدو ان كل وسائل التخريب الاخرى لم تؤثر في صلابة الاجر الذي شيدت به الطبقة العليا ولهذا استعين بالنار لتدمير البناء حيث يظهر تأثيرها واضحا فى كل طبقة من طبقاته حتى تقوضت الطبقة العليا منها *

ولما كانت هذه الانقاض التى تخص برس نمرود يفترض فيها انها بقايا برج بعل الشهير ، وهو المكان الذى كثر الخلاف حوله زمنا طويلا ، فان الشبه القائم بين الخرائب الموجودة والمعبد القديم يؤكد بانها بناء واحد ليس الا . وقد لاحظ الميجر رنل بحق ان سترابو هو الوحيد الذى زعم انه قاس الارتفاع الصحيح

= احد قواده اباد الطغاة المشهورين بقسوة ولم يترك وسيلة من عقاب الا استعملها ؛ وانه حول كثيرا من البابليين الى ارقاء لاسباب تافهة وهدم اجل اجزاء المدينة وقد حدث هذا قبل ميلاد المسيح بحوالى مائة وثلاثين سنة (نيوتن : عن النبؤات ص ١٧٢

** [هكذا قال رب القرابين : ان اسوار بابل العالية ستتهدم ، وان ابوابها العالية ستحرق بالنار] (ارميا الاصحاح(١١) الاية ٥٨)

* يظهر ان الاسكندر نفسه قدم الضحايا الى الاله بعل وفي هذا المعبد على وجه التأكيد . غير انه لم يذكر شيء عن طبيعة تلك الضحايا (فعندما سار الاسكندر من اربيل بعد ان دحر داريوس متجها الى بابل ، فتحت المدينة ابوابها الواسعة امامه ، وهرعت جماهير غفيرة من الكهنة ورؤساء القوم لاستقباله فقدموا له الهدايا ثم سلموا اليه المدينة والبرج والخزائن الملكية =

للبرج ، وان ذلك الارتفاع كان كبيرا فقد ذكر هيرودوتس ان مساحة المعبد كانت فرسخين (الف قدم) وان مساحة البرج كانت فرسخا واحدا ، وان البرج يرتفع وسط المعبد الى ارتفاع فرسخ حيث تستقر فوقه قاعدة مؤلفة من سبعة ابراج شيدت في تعاقب منتظم ، بينا يقوم في وسط البناء مكان ملائم للاستراحة .

ويقول سترابو ان قبر بيلوس كان هرمي الشكل ارتفاعه فرسخ ،وقاعدته مربعة ومن ذات المساحة . وقد دمره خشارخيش (١٧)

ويقول ديودورس الصقلي ان تمثال بيلوس كان يقوم على قمة هذا البرج ، وان ارتفاع ذلك التمثال كان اربعين قدما . ولابد ان تخريبه على يد خشارخيش قد وقع قبل أن يراه اي من المؤرخين الذين وصفوه ويبدو ان تخريبه كان على نطاق واسع لان ذلك الملك الفارسي - كما ذكر عنه - كان قد جرد المعبد من جميع الكنوز والتماثيل والحلي بل انه فتك بالكهنة ايضا .

ويقول اريان وسترابو ان الاسكندر ابدى رغبته في أعادة بناء ذلك المعبد ويؤكد سترابو ان الاسكندر وجد ذلك العمل شاقا جدا لانه ما كان في مستطاع عشرة الاف رجل ان ينقلوا انقاضه في مدى شهرين اما اريان فيقول ان هذا العمل قد بوشر به فعلا لكن العمال لم يحققوا فيه من التقدم ما كان الاسكندر

= وما ان دخل الاسكندر المدينة حتى امر البابليين بان يعيدوا بناء المعابد التي خربها خشارخيش ، وبصفة خاصة معبد بعل الذي كان البابليون يعبدونه كـإله اساسي عندهم ، والذي قدم اليه الاسكندر نفسه الضحايا بناء على نصح الـكهان البابليين

(جوستن : الكتاب الثالث ص ١٦)

JUSTIN LIB . III P . XV I

يتوقعه . *

مما تقدم تجمعت لنا الحقائق التالية

اولا : ان معبد بعل كان على شكل هرم مؤلف من ثماني طبقات ترتفع الى اعلى بالتعاقب وتتصل احداها بالاخرى

ثانيا : ان كل جانب من جوانبه يبلغ عند القاعدة فرسخا او خمسمائة قدم وان ارتفاعه يبلغ ذات المسافة

ثالثا : كانت تحيط بالبرج ساحة تمتد فرسخين او الف قدم من كل جهة من جهاته الاربع .

رابعا: كان في اعلى هذا البناء معبد لم تحدد ابعاده وولكن يبدو من انقاضه انه كان واسعا جدا .

---

* يقع معبد بيلوس في قلب تلك المدينة (بابل) وهو بناء فخم هائل شيد بالاجر واستخدم الجير فيه ملاطا . وقد دمر هذا المعبد مع بقية معابد بابل على يد خشارخيش عند عودته من حملته الاغريقية

وصمم الاسكندر فيما بعد على اعادة بنائه ولهذا السبب امر البابليين بان يزيلوا الانقاض لانه اراد ان يبنيه بمهابة اكثر وبطريقة انظم من السابق . ولكن لما كان ما انجزوه من العمل اقل تقدما مما توقعه في غيابه اراد استخدام جيشه كله في ذلك . وكان الاشوريون (؟) قد كرسوا كثيرا من الارض وتركوها على حدة للاله بيلوس ، كما قدموا له الكثير من الذهب ومن هذه الاموال تم بناء المعبد في السابق وقدمت فيه النذور للاله (اريان : تاريخ الاسكندر الكتاب السابع الفصل ١٧

ARRIAN - HISTORY OF ALEXENDER-B V. I C - 17

ولقد قاس المستر ريج مساحة هذا الاثر من القاعدة فوجد ان محيطه يساوي سبعمائة واثنين وستين يردة ، او الفين ومائتين وستة وثمانين قدما ويبلغ ارتفاع الطبقات الاربع القائمة نصف ارتفاع البناء الاصلي ، اي حوالي مائتين وخمسين قدما .

اما تسمية هذا الاثر في الوقت الحاضر باسم « برس » فانه تحريف لكلمة « بيلوس » اسمه الاصلي *

فالاسم الغالب عليه هو «البرس» اما كلمة نمرود فقد اضيفت اليه من قبل السكان الذين كانوا مغرمين في اسناد كل شيء الى « الصياد العظيم الذي يقف امام الاله » مثلما كان المصريون يفعلون ذلك ازاء «فرعون» وسكان سوريا تجاه «سليمان» . ويقول المستر ريج ان كلمة (برس) ليست عربية وان معظم المطلعين هنا لم يعرفوا اسباب اطلاق تلك الكلمة على ذلك الطلل .

---

* يقول « بليني » ان المعبد كان يسمى معبد جوبتر بيلوس نسبة الى بيلوس وهو اسم اميركان اول من اخترع علم الفلك . وكانت المدينة في عصر بليني قد دمرت وغدت ارضا خالية بعد ان نهضت مدينة (سلوقية) التى اجتذبت كل سكانها الاصليين (بليني : التاريخ الطبيعي الكتاب السادس الفصل السادس والعشرين

PLINY - NATURAL HISTORY B 6 C . 26

اما بيلوس الاشوريين فالمعتقد انه هو (مهابالى) (١٨) عند الهندوس وشاه-مهبول (١٩) لدى الفرس ، وهو آخر السلالة الثالثة من الملوك الذين ورد ذكرهم في الدابستان ، (٢٠) [تاريخ فارس المجلد الاول ص ٢٤٨

HISSORY OF PERSIA VOL 1 P 248

ويقول المستر ريج « ان كل الرحالين مـن عهد بنيامين التطيلي ـ الذى كان اول من احيا ذكرى تلك الاطلال الشاخصة فى موقع بابل ـ قد توسعوا في ذكر مساحة برج بيلوس فبنيامين التطيلي و «راوولف» وآخرون غيرهما قد وجدوه بين خرائب (الفلوجة) القديمة .

اما «بترو ديلا فاله» فيبدو انه اول من اختار تل «المقلوب» كبقايا لذلك البرج الشهير . ويظهر ان نيبور قد شاهد اثار البرج اول مرة عن بعدحيث اعتبره برجا للمراقبه . وبعـد ان يصف الطلل بايجاز يقول « ولكن اعتماد اعلى ماذكره هيرودتس (الكتاب الاول فصل ١٧٠) في ان هناك اختلافا واسعا بين معبد بيلوس والحصن المحيط به ، فانني قد شاهدت ذلك حيث درت حول البقية وهذا هو السبب الذي جعلني اطلب الى الذين سيقومون بعد بمثل هذه الرحلة ان يقوموا بتجريات دقيقة ويقدموا لنا وصفا صحيحا (نيبور : م ٢ ص ٢٣٦)

وفي حوالى الساعة التاسعة نزلنا من قمة برس جالبين معنا بعض الاجر المكتوب وقطعا من المواد المزججة ثم امتطينا خيولنا عند قاعدة النصب واتخذنا طريقنا عائدين الى الحلة ، في ذات السبيل الذي قطعنا به السهل وقد شـــرع الفرسان المرافقون لنا يتسابقون فكان منظرهم بملابسهم ورماحهم المتلوية منظرا مؤثرا ، وقد علمنا ونحن في طريقنا انه حين تسقط الامطار في الشتاء يتحول الطريق بين الحلة والبرس الى مستنقعات .

وحين دخلنا المدينة ثانية شاهدنا بنايتين ذات قبب مخروطية الشكل اشبه بقبر زبيدة القريب من بغداد وكانت احدى هاتين البنايتين تقع داخل المدينة وهى لا تزال تستعمل مسجدا بينما تقع الثانية في البساتين خارج المدينة ويسمونها مسجد الشمس وهذا الاسم قد اطلق عليها من التقليـد الشائع انها شيدت في البقعة التي ادى فيها علي صلاته (حينـــما كانت الشمس مؤدبة ـ كما قال ذلك

نيبور ـالى درجة انها تأخرت في الشروق ساعتين عن وقتهـا المعتاد امتثالا لاوامر الامام الذي لو طال نومه لضاعت منه ساعة الصلاة المعتادة ولذلك اضطر الى ان يأمر الشمس بان تؤخر ظهورها)

مررنا بصف طويل من الشوارع والاسواق الضيقة وترجلنا في الخان حيث مكثنا هناك الى ان زالت حرارة النهار دون ان نستزيد من التعـرف على مدينة الحلة التي جئنا على وصفها قبلا . وتقع الحلة على ضفتى نهر الفرات الذي يمر في وسطها .

ويربط بين جانبيها جسر من القوارب يقع على مقربة كل نهايـة من نهايتيه باب ينتهى بطريق طويل . والقسم الشرقى ا كثر بروزا في سمته ومساكنه غير ان القسم الغربى منها يحوى ما بين ثمانية الاف وعشرة الاف نسمة معظمهم من التجار العرب . وهناك بعض الوسطاء من اليهود لهم بيعة يتعبدون فيهـا لكنه لا يوجد في المدينة مقيمون من المسيحيين ، وان الاتراك وحدهم هم الذين يحتلون الدوائر التي تعتمد على الحاكم وهو بصفة عامة من الجيورجين المعينين من لدن بغداد .

وفي الساعة السادسة امتطينا خيولنا في الخان ، ثم عبرنا الجسر في طريق عودتنا وكان مزدحماً بالناس كالسابق .

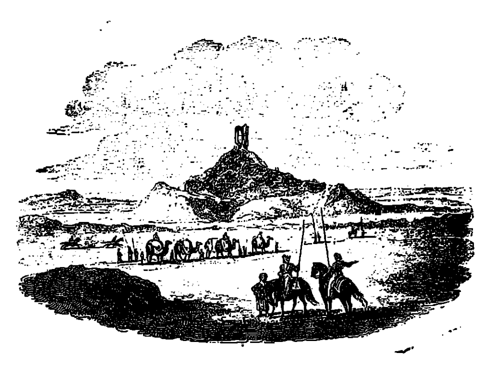
وما وراء القسم الشرقي مباشرة ، واذا مازلنا بين بساتين النخيل . صادفنا فتى عربيا لا يرتدى سوى قميص وشعره تعبث به الريح ، وقد حمل بيده خنجرا عاريا او جنبية ، وقد غطى صدره ورقبته بالدم وهو يسير راكضا لاهث الانفاس في الطريق . ولم يرد على اسئلتنا ويبدو وكأنه كان هاربا من مشاجرة قاتلة .

واذ اقتربنا من التلال القائمة في القسم الشرقي المتهدم من بابل اعرب دليلنا الكردى واحد جماعتنا من العرب عن فزعها الشديد من الارواح الشريرة

للموتى والاحياء على السواء الذين يتربصون عند تلك التلال ليلا ، لكننا اجتزنا تلك التلال دون ان نعبأ بها ، وقد عزيا ذلك الى التأثير الحسن الذى يتحلى به المسيو بلمينو ذلك الاوربي الذي يحذق العرافة والسحر ، وهكذا رقدنا في خان المحاويل بامان

التاسع والعشرون من تموز : لم يتسم بقية طريقنا الى بغداد بحادث ذي بال لاننا كنا نسير بصفة رئيسة اثناء الليل ونتوقف عندما تشتد حرارة النهار في ذات الطريق الذى مررنا فيه قبلا

وفي صباح الثلاثين من تموز واذ اقتربنا من بغداد صادفنا قافلة من الايرانيين متجهين الى الامام حسين للزيارة. وعلى مقربة من ضفاف دجلة بحوالى ساعتين جنوبى بغداد شاهدنا اثار الفيضان على طول الطريق الممتد من الفرات

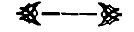


اطلال برس

حتى ان الاوماث كانت تقترب من نهر الى اخر بسبب مياه ذلك الفيضان ·

وهذا في سعته ارحب من اي فيضان يحدث في نهر النيل ، وهو يدل على ان حوض الفرات يكون في الفلوجة اعلى من حوض دجـلة في بغـداد وفي خط يمتد من الشرق الى الغرب ولو ان مجرى النهر الاول بطيء ·

وصلنا مقر المستر ريج الكريم في الوقت الذي كان ينضم فيه الى عائلته لتناول طعام الفطور ، ثم امضينا بعـض ساعات النهار سـوية و نحن نستعيد ذكرى الاحداث التي مرت بنا في سفرتنا ورحنا نقارن ملاحظاتنا واراءنا عن البقايا الهامة من المدينة المخربة التي عدنا من زيارتها



شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الثاني عشر

(١) برس نمرود تسمية محلية لمدينة بورسيبا او باريسا او بئر السبع وتقع خرائبها جنوبي الحلة بحوالي عشرة اميال واصـل اسمها سومري جدد حمورابي (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق . م) بناءها واشتهرت في عهد نبوخذ نصر والبرج الذي اشتهر فيهـا باسـم برج بيلوس بعل ، هو معبد الاله (نبو) ، وكان هـذا البرج مؤلفا من سبع طبقات . وكان يحتفل كل عام بنقل تمثال نبو من بورسيبا بقارب الى بابل ثم يوضع في عربة احتفال خاصة

(٢) هذا التل كان يعرف لدى اهل الحلة باسم « الجبـل » وقد حوله المرحوم سعد صالح حين تولى متصرفية الحلة سنة ١٩٣٨ الى حديقة غناء سميت باسم حديقة الجبل ولكن الاهمال سرى اليها في السنوات الاخيرة فكادت تتحول الى خراب

(٣) اخطأ كثير من الرحالين والمؤلفين بشأن معبد بيلوس (جوبتر)

وموقعه . فالحقيقة ان معبد « بعل » يقع في نينوى وليس في بابل اما المعبد القائم في بابل ، والذي يسمونه خطأ بأسم معبد بعل فيدعى « ايسا كلا » وهو من اشهر معابد بابل واسمه السومرى هذا معناه « البيت الرفيع » وقد خصص لعبادة الأله « مردوخ » كبير الالهة البابلية وكانت تودع في هذا المعبد النفائس من الهدايا والنذور ومنها تماثيل من الذهب الخالص للاله مردوخ وقد نهب الفرس كل هذه الذخائر عند احتلالهم بابل .

(٤) الاب عمانوئيل PERE AMMANUEL كان يقوم باعمال المقيم الفرنسي في بغداد سنة ١٧٥٨ م ويعتبر نفسه اسقف الروم في العراق واسقف بابل وقد دون مشاهداته عن بابل وبغداد وتوفي في الطاعون سنة ١٧٧٣

(٥) مسجد الشمس يقع الى الشمال الشرقي من الحلة وكان بناؤه شبيهاً ببناء قبر الست زبيدة ببغداد وقد ثبت تاريخياً ان نبوخذنصر ملك بابل هو الذى شيد هذا المعبد اكراماً لالهة الشمس وقد بنى المسلمون فيه مسجداً وتذكر الروايات ان الشمس قدردت للامام علي بن ابي طالب (رض) وهو في طريقه الى صفين فأدى الصلاة في هذا المسجد بينا تذكر الروايات اليهودية ان الشمس هنا قد ردت للنبي حزقيال ،وقيل ليوشع بن يونان [الحسني : العراق قديماً وحديثاً ص ١٤٤]

(٦) كفل اليهودة او اليهودية منطقة على بعد ميل من اطلال بابل كان اليهود يسكنونها بكثرة وفيها بيعة لهم منسوبة الى النبي دانيال وقد ذكر ذلك عنها الرحالة اليهودى بنيامين التطيلي في رحلته [انظر تأريخ الحلة يوسف كركوش الجزء الاول ص ١٣]

(٧) قبر حزقيال هو حزقيال احد انبياء اليهود والمسمى (ذو الكفل) موقعه في ناحية الكفل الحالية وكانت تعرف باسم (بر ملاحة) ذكرها ياقوت في معجمه وصفي الحلي في مراصـد الاطلاع وكان اسم الكفل لدى الاغريق هو فولوغوسيا VOLOGSIA نسبة الى فلوغاس احـد ملوك الارشكيين

(٨) خان « دبي » احد الخانات التي كان يمتلكها اليهود في الحلة في عهد المؤلف و « دبى » اسم شائع بين اليهود وقد كانت في بغـداد اسرة يهودية كبيرة بهذا الاسم ولا يوجد اليوم في الحلة خان بهذا الاسم .

(٩) خان عنزة لعله الموقـع الذى نزلته قبيـلة عنزة سنة ١٢١٤ هـ في الطهمازية عندما قدمت للاكتيال من الحلة واعتدت على اهالي الحلة . وربما تحول هذا الموقع الى خان فيما بعد ونسب الى عنزة لانهم اعتادوا ان يكتالوا منه في مواسم الاكتيال وليس في الحلة خان بهـذا الاسم في الوقت الحاضر

(١٠) كل هذه الاسماء تعني « بورسبا » التي ذكرت في بعض المصادر باسم « بابل الثانية » والاسم مأخوذ من « بارسبا » السـومري ومعناه « قرن البحر او سيف البحر » والمعتقـد ان المدينة كانت على مقربة من بحيرة او بحر شبيه ببحر النجف ـ وقد سماها البعض باسم بيرسيباى او بئر السبع

(١١) Anaxarchus انا كزارخوس احد افـراد حاشية الاسكندر الكبير التي صحبته في حملته على الشرق وكان انا كزارخوس من المتفلسفين والمدعين بالعرافة والكهانة

اما برسيا BYRSIA فالمقصود بها بورسبا ذاتها

(١٢) سماهم الكوسيون COSSEANS والصحيح انهم الكيشيون او الكاشيون السلالة التي كانت تحكم ايران والعراق في الفترة ١٥٣١ ـ ١١٦٦ ق . م

(١٣) يوربيديس EURIPIDES ٤٨٠ ـ ٤٠٦ ق . م ولد في سلاميس في اليوم الذي دارت فيه معركة سلاميس الشهيرة اشتهر بمسرحياته الشعرية وبلغ مجموع ما كتبه مائة وثمانين مسرحية بقيت منها تسع عشرة مسرحية حسب . رحل الى بلاط ملك مقدونية فقوبل بترحاب وقد مات مقتولا عنده بعد ان هاجمته كلاب الملك فمزقته

(١٤) الثابت تاريخنا ان البرج كان مؤلفا من سبع طبقات وهي تمثل الكواكب السبعة . اما سبب الحريق الذي حول الاجر الى صخر يح ولا يزال ظاهرا في اثار البرج فلا يعرف ، ويعتقد بعض الباحثين انه كان من نتيجة سقوط نيزك سماوي على البرج ففلقه وحول بعض اجره الى صخر

(١٥) فاليريوس VALERIUS

(١٦) فرتنغا VIRTINGA

(١٧) نقل المؤلف اخطاء المؤرخين القدامي بشأن تدمير بابل ومعبدها الشهير فبعض المؤرخين يقول ان داريوس هو الذي دمر بابل واخرون يقولون انه خشارخيش ـ ويسميه الفرس خشارياشا ـ هو الذي خربه والواقع ان كورش الكبير هو الذي غزا بابل ودمرها بمساعدة اليهود القاطنين فيها . ولكن بابل ما لبثت ان ثارت على الحكم الفارسي فجهز اخشاريا ملك فارس حملة ضدها واخمد ثورتها ودمرها ونهب

كنوزها .

(١٨) مهابالى MAHABALI

(١٩) شاه مهبول SHAH MAHBOOL

(٢٠) دابستان هو الكتاب المقدس لدى الطائفة الزردشتية في ايران اى عبدة النار ويحوى كما يزعمون تعاليم زرادشت وقد حرف اسمه الى (آبستا) ودافستاواستا وافستا وقيل ان دابستان كتاب بالفارسية يبحث في ديانة الفرس والهنود والنصارى واليهود والمسلمين يعزي تأليفه الى مؤيد الدين شاه المولود سنة ١٠٢٨ م ويبدو لنا ان هذا الكتاب الاخير هو المقصود بالدابستان لانه يتنـــاول تواريخ الاديان في ذلك العهد ـ

الفصل الثالث عشر

مشاهدات فى بغــداد

فى اليوم التالي لعودتنا من الحلة اصبت بحمى شديدة نتيجة الحر والتعب الذين لقيناهما فى الرحلة . وقد اضطرتنى هذه الاصابة الى المكوث في فراشي بعض الوقت بينما عانى رفيقى ، ذات الاصابة هو الاخر وفي خلال نفس الفترة

على انني استعدت صحتي بعد مدة حتى اليوم الرابـع عشر حين اصبت ثانية بالحمى عندما تعرضت لاشعة الشمس مرة اخرى عند الظهـيرة حين كنت احاول قياس خط العرض فى بغداد عن طريق قياس ارتفاع سمت الشمس فى منتصف النهار وذلك بطلب من المستر ريج اذ اصبت بضربة الشمـس فانتكست صحتي واصابنى مرض اشد من الضربة الاولى واطول مدة منها *

* كانت مشاهدة ارتفاع اوج الشمس في بغداد في الرابع عشر من اب ١٨١٦ قد اعطت النتيجة التالية :

الارتفاع المنظور للطرف الاوطأ من الشمس ٧٣ ٤١ =

استفدت مدة هذا الحجز من النصيحة الطبية الفضلى التي اسداها الي طبيب المقيمة الدكتور (هاينه) ومن الراحة الى تهيات لي في منزل السيدريج ، والرعاية الودية التى كان يوليني بها هـو وزوجته . على ان حالة الجو وحدها كانت كافية لاعاقة الشفاء سريعا ، اذ ان درجة الحرارة منذ انتهاء تموز حتى منتصف آب كانت تتراوح مابين ١١٩ و ١٢٠ درجة فهرنهايت في الظل اثناء الظهيرة ، مع توقف في الهواء يقطعه بين الفينة والفينة هبوب «السموم» او رياح الصحراء .

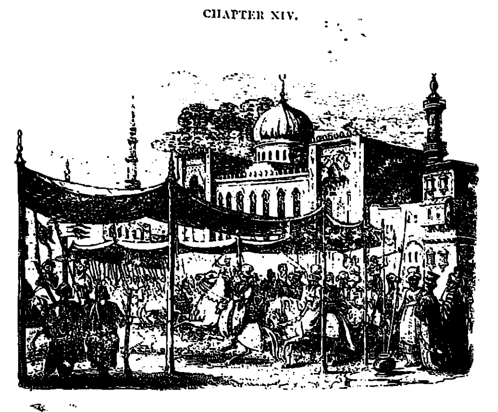
لم يجرب الذين اقاموا في هذه البلاد طويلا مثل هذه الحرارة التى كانت تمتد اياما عديدة متتابعة ، ولذلك كان تأثيرها شاملا تحسسته كل الطبقات .

على ان النقود كانت تستطيع التغلب على الحرارة فقد كنا نهرب الى السطح لننام في العراء ليلا ، ونلتجئ الى السراديب اثناء النهار . وكنا في الحالتين ننطلق متخففين من كل ملابسنا تقريبا ، ونرى العقاب الكافي لنا ان نحن ارتدينا حتى الثياب الخفيفة الفضفاضة مدة ساعة حين تناول طعام الفطور الذى لم يكن ليتأخر عن الساعة السابعة صباحاً كما نعاود ذلك وقت تناول العشاء الذي كان يبدا بعد غروب الشمس بساعة واحدة .

= شبه قطر الشمس	٠٠	١٦
ارتفاع مركز الشمس	٧٣	٥٧
البعد عن القطب	٩٠	٠٠
البعد عن السمت	١٦	٣ شمالا
ميلان الشمس المطروح من الاوج	١٧	١٨ شمالا
خط العرض	٣٣	٢١ شمالا

علمنا من ساعي بريد وصل حديثا من اسطنبول انباء مقلقة عما احدثته شدة الحرارة في المناطق المجاورة لبغداد والموصل ، فضلا عن ان حوادث الوفيات نتيجة تلك الحرارة كانت تنقل الينا كل يوم.

CHAPTER XIV.



PROCESSION OF THE PASHA,
FROM THE MOSQUE TO THE PALACE.

موكب الباشا عند خروجه من المسجد

كذلك علمنا بحادث وقع لاحد الاكلاك كان قادما في نهر دجلة من الموصل الى بغداد ، وحيث هاجمه بعض الاعراب في مكان ضيق من النهر وقتلوا كل من كان فيه من الاحياء .

كان استمرار صوم رمضان، وضعف حالتي الصحية، واشتداد حرارة الجو، من الاسباب الكافية التي ادت الى تأجيل سفرى الى الهند حتى تسنح الظروف الملائمة لاستئناف السفر دون كبير مخاطرة.

خلال هذه الفترة من مرضي الاخير وصلت البصـرة سفينتان من الهنـد احدهما هي اورورا AURORA من سفن شركـة الهند الشرقية وقـد ابحرت بعد وصولها مباشرة عائدة الى بمباى، والثانية سـفينة الاونورابل الكابتن مود وكانت قد اقتادت باخرة انكليزية محملة بالعبيد من مسقط وقد غادرت البصرة هي الاخرى فى الحال ولذلك لم استطع الوصول اليها فى الوقت المناسب.

ومما خفف من شدة احتجازى وجود عدد من الكتب القيمـة المنوعة في مكتبة السيد ريج وما كان يبذل من الاهتمام الزائد بسفرتى المقبلة نحو الشرق كما وجدت في مجموعته الكبرى الثمينة من العاديات مصدرا من مصادر المتعة والمعرفة.

فقد كانت تلك العاديات بابلية بصـفة غالبة تألفت من اختام اسطوانية وحروز وفصوص وايقونات من انواع نادرة. واعجبت بصفة خاصة بنوع من الاختام الاسطوانية المثقوبة طوليا وكأنها اعدت لتعلق حول العنـق. وكانت الزخارف التى نقشت عليها مصرية [1] تتألف من كرة ارضية مجنحة، وخطوط من الماء المتموج وازهار اللوتس والقمر، وكرة في قارب، ونذور من الغزلان ورؤوس الكباش، والهة هلاليه الشكل تشبه ايزيس، وكاهن فى اوضاع مماثلة، والهة تجلس على عروش مماثلة لعروش مصر، وخليط من شخوص برسبوليس [2] ورموز وكتابات بالعلامة المسمارية من إمثال ما تم العثـور عليه في خرائب برسيوليس ونينوى، وبابل.

وهناك بالاضافة الى ذلك تمثال رأس كبش من العقيق يشـبه آمون [3]

وتمثال بقرة او ثور من النحاس يشبه (ابيس) او منفيس [٤] وصورة رجل جالس يضع على ركبته صحيفة مفتوحة وكلها من النحاس ولكن من طراز مصرى وتمثال جعلان من الفخار او الحجر المعتم مثقوب طوليا ومغطي بكتابة دقيقة ، ومـــواد اخرى غيرها .

ومن بين مجموعة النقود لدى المستر ريج نقود عـثر عليها في قمقم على ضفة نهر دجلة ولم يستطع المستر ريج ان يحصل عليها الا بصعوبة لان الباشا كان يود ان يخفى حقيقة العثور على مثل هذا الكنز في مملكته مخافة ان يتضاعف مقـداره اذا ما وصلت انباؤه الى اسطنبول واعقب ذلك طلب من السلطان باسترداده منه على اعتبار ان كل ما يعثر عليه من الكنوز حق مشروع للسلطان

وكانت بين هذه النقود عملات اثينية . وسامانية وكورنيثية ، وعـدد من عملات الاسكندر وانطيخوس [٥]

وهناك عملات فضية على احد وجهى الواحدة منها قلعة ذات ابراج تحتها صورة اسدين ، وعلى الوجه الاخر صورة رجل يكـــاد يطعن وحيد القرن على شاكلة ما هو موجود في منحوتات برسبوليس ولذلك يحتمل ان تكون هذه النقود من ذلك المكان

وما خلا ذلك هناك اوسمة فضية وذهبية من العهد الساسانى [٦] واوسمة سابور واردشير تم جمعها فى اوقات متباينة ، وحلقات واختام وطلاسم كوفية عليها عبارات مقدسة

والحقيقة الوحيدة بالنسبة الى هذه الاختام الاسطوانية البابلية التي كانت تعلق حول الاعناق على غرار التمائم المصرية هى ان الرحالة الالمانى البارون هالر [٧] الذى اشتهر بين اليونانيين ، قد عـثر على احدهـذه الاختـــام فى سهل

مراثون [٨] . والذى لا شك فيه ان هذا الخاتم قد اضاعه هناك احد افراد الجيش الفارسى فى ذلك اليوم المشهور [٩] وربما كان يحمله احد افراد الكتيبة البابلية الذين نجوا منها وعاشوا بعد تدميرها .

وضمت العاديات ايضا تمثالا من البرنز لرجل يضع بين ركبتيه سمكة كبيرة من نوع « لنفام »[١٠] على غرار تصوير الهنود لهذا الرمز وقطعة من حجر البازلت عليها صورة كبش مقابل معبد اشبه بصورة الكبش الذي جلست امامه قطة وعثر عليه في معبد هرمونتيس [١١] بمصر وقد غطي هذا الحجر بكتابات مسمارية .

وهناك حجر عليه صورة كاهن يتوكأ على عكاز في قمته زهرة . وهذه القطعة بابلية بلا ريب لان ديودورس الصقلى قد ذكر ان جميع البابليين كانوا يستعملون عصيا حسنة الشكل فى رؤسها زهور او بعض الحلى

وغالبا ما كان الكهنة المصريون يستعملون مثل هذه العصي ولذلك كانت عصا « ايزيس » [١٢] تنتهي بزهرة اللوتس *

وبين العاديات ختم من البلور عليه حروف عبرية زعم الذين عثروا عليه انه خاتم سليمان لكنه في الواقع نوع من الطقوس الدينية التي استعملها اليهود فى بابل والذين اشتهر لديهم علم الطلاسم **

---

* مذكرة الاكاديمية : المجلد ١٩ ص ١٤٦

** من الطلاسم الشهيرة في الشرق المهر السليماني اى خاتم سليمان خامس ملك في العالم بعد آدم . وقيل انه كان يستطيع - عن طريق هذا الخاتم - ان يتصرف بقوى العمالقة ويسحرهم ، وان الذين يملكون هذا الخاتم تصبح لهم سيطرة تامة على العناصر والارواح والمخلوقات =

كانت حرارة الجو قد حالت دون الاحتفال المعتاد بمولد الامير الوصي الذى يقع في الثانى من آب . غير ان حرس المقيم المؤلف من بعض القوات الهندية اقام استعراضا ، واستقبل الزوار الذين اعتادوا حضور ديوان المقيم بابهى الملابس فى تلك المناسبة ، ولم يكن بين اولئك الزائرين سوى اثنين من الفرنجة احدهما طبيب من دمشق جاء الى هنا للبحث عن وظيفة له لدى الاتراك في بغـداد ، اما الاخر فهو القنصل الفرنسي المسيو فيفورو وكان عليـلا فى ذلك الوقت ، وهو راهب ورئيس الكاثوليك في بغداد . وكان من الزائرين شيخ من الفرس يتذكر محاصرة نادر شاه لبغداد (١٤) .

وكان هذا الفارسى قدولدفي اصفهان سنة ١٧٢٠م ودرس في روما ثم قدم منها الى بغداد للاقامة فيها باعتباره رئيسا للكنيسة الارمنية في هذه المدينة . وماخلا هؤلاء كان هناك عـــدد من المسيحيين واليهود والأتراك وبعـض الدراويش وغيرهم ممن كانوا يعتمدون على المقيمية .

والمسيحيون في بغداد قليلون . اما اليهود فقد ذكر ان عددهم يبلغ في هذه المدينة عشرة الاف شخص على الاقل .

ويبدو انه منذ ان قامت بابل ونينوى بسببهما الكبيرين وجيء باجـداد

[انظر « دربيلو » في كتابه « المطبوعات الشرقية » وريكاردصون في كتابه « البحث »]

واورد « بيللوس بوليــو BELLCS BOLIO احـد مؤرخى اوغسطس (١٣) ان الجنرالات الرومان في عهد جالينوس تعودوا ان يتمنطقوا بحزام سحري خاص قيل عنه انه كان يقيهم من الخطر او الحسد .

هؤلاء اليهود الى هاتين المدينتين من فلسطين ، تفرق اولئك اليهود في هذه البلاد اكثر من اي جزء آخر في العالم .

وكان اليهود ينظرون باشمئزاز الى قانون الزواج الا اذا اقتصر على عنصرهم وحدهم . ولم تنزل باليهود حروب مدمرة لانه يندر عليهم ان يشتركوا في المعارك او في الخلافات التي تقع بين اسيادهم

وقد ظهر لي من تدقيق الاسفار المثيرة المبكرة التي قام بها بنيامين التطيلي في الشرق ان ملاحظاته كانت عرضة للاتهام بشكل غير عادل . ولما كان قد كتب مؤلفاته الاصلية باللغة العبرية ، فلم تكن معروفه لدى قراء الاسفار بصفة عامة وقد تكون بعض ملاحظاته عن بغداد في غير مواضعها .

ويعرف مما كتبه ومن الاوصاف المحلية التي وردت فيه ان هؤلاء اليهود قد انتشرو فعلا في كل البلاد التي وصفها والتي تنحصر فيها وحدها دعاواه عن دقة معلوماته .

ولقد كان بنيامين مثل هيرودوتس وكثير من الرحالة العصريين ما ان يتجاوز الدقة في ملاحظاته حتى تغدو كل معلوماته عبارة عن خرافات ومبالغات ففي الوقت الحاضر مثلا يوجد من اليهود في البلاد التي ذكرها اكثر مما كانوا عليه في ايامه .

لقد تعقبت خطى هذا الرحالة المسبق باهتمام بالغ في سوريا وفيما بين النهرين ووجدت وصفه لمدينة بغداد يستحق الاحترام لصدقه ودقته . ولما كان قد بدأ اسفاره في اوائل سنة ١١٧٣ ميلادية فان اقدم التواريخ للكتابات بغداد تعود الى سنة ١٢٢١ م وهي السنة التي اقيمت فيها الاسوار والابراج التي شيدها الخليفة الناصر سنة ٦١٨ هجرية . اما السنة ١٢٣٢ الميلادية فانها تخص المدرسة او الكلية

التي شيدها الخليفة المستنصر سنة ٦٣٠ هجرية ومن هذا يظهر ان بغداد القديمة التي لا تزال خرائبها ظاهرة غربي دجلة هي التي وصفها بنيامين ، وليست بغداد الحالية فبنيامين يقول عن بغداد انها مدينة واسعة تبدأ بها امبراطورية الخليفة العباسي رأس السلالة التي ينتمي اليها الرسول والتي تتمتع بالاحترام من لدن ملوك عرب الصحراء مثلما يتمتع به الحبر الاعظم بينهم من سيادة ويقال ان محيط قصر الخليفة في بغداد كان يبلغ ثلاثة اميال ، وكان يضم في وسطه غابة فيها مختلف الاشجار والثمار والعديد من الحيوانات والطيور بالاضافة الى بحيرة كانت تستمد مياهها من نهر دجلة بحيث كان القنص والصيد يجرى فيها كنوع من التسلية واللهو .

وكان الفراغ الذى يحتله هذا القصر اوسع من الفراغ الذي كان يحتله القصر المزجج والجنائن المعلقة في بابل والذى شيد بذات الوسيلة تقريبا .

وقد استعمل بعد اكمال بنائه للنزهة وهو نفس الغرض الذى استعمل له بعد انهياره .

كان الخليفة العباسي في عهد بنيامين يدعي احمد [١٥] وهو صديق للاسرائيليين وكان يفهم العبرية قراءة وكتابة بالاضافة الى المامه بقوانين موسى [١٦] .

وفي الوقت الحاضر وعند اقامة الدكتور هاينه طبيب المقيميه ببغداد يوجد « كهيا » [١٧] او ملازم الباشا يعرف العبرية افضل من اليهود ويتحدث بها بطلاقة مما لا يستطيعه يهود بغداد لانهم يتحدثون بالعربية والتركية بصفة اعتيادية . ويبدو ان هذا الخليفة ، وهو مشابه لمن كان يحكم القاهرة ، لم يظهر امام الجمهور في تلك السنة الا في عيد الفطر وفي الفترة التي يعود فيها الحجاج من مكة . ففي هذه المناسبة وحدها يسمح لهم الخليفة بلثم اردانه بعد ان عادوا الى مملكته في سلام

ولما يتمتع بـــه لديهم من احترام باعتباره ممثلا للنبي الذي يجلونه اعظم اجلال .

وبعد ان جرت محاولة ذات مرة لاغتيال هذا الخليفة على يد بعض الطامعين في الحكم افرد لجميع ضباطه مساكن لهم داخل اسوار قصره ، في الوقت الذي قيد فيه بالسلاسل افراد عائلته الذين كانوا يطالبون بالاشتراك معه في الحكم .

وقد قضي على الطامعين بعدما انتقل الحكم الى سلطان من الاتراك كانت كراهيته لاخ يراه على مقربة من عرشه مضرب الامثال .

ومهما يكن الامر فقد عانى اولئك الطامعون في وقت بنيامين شظف العيش لان كل واحد منهم كانت له حاشيته وبذخه الذي اصابه عن طريق اقتطاع بعض القرى والاقاليم من المملكة ، وجمعه الاموال وانفاقها على اغراضه الخاصة .

وقد ذكر ان الخليفة حين كان يخرج في رمضان من قصره الى المسجد الكبير لاداء الصلاة فيه كان يمتطي ظهر بغلة ، ويرتدي ملابسه الفخمة ، ويعتمر بعمامة فاخرة ، ويلبس رداء اسود للتدليل على تواضعه ، وليذكر الذين يرونه ، بانه ــ مع كل ما يحيط به من فخفخة ــ لابد وان يلقي الموت ظلاله عليه في يوم من الايام

وفي مثل هذه المناسبة يسير وراءه عادة شيوخ العرب وهم يرتدون فاخر الثياب ، ويمتطون صهوات جيادهم ، واذ ذاك يزدحم الطريق من القصر الى المسجد بحشد كبير من الناس بينهم المنشدون والراقصون والموسيقيون لتحية الرئيس فتحييه هذه الجموع بقولها « السلام عليكم ياسيدنا ومليكنا » فيرد عليهم بان يرفع يده الى فمه وجبهته ، ثم يلمسها بكم اردانه ، ويتجه الى الجمهور فيمد يـــده ويحييه بنفس التحيه قائلا « وعليكم السلام » وهكذا يستمر تبادل عبارات الاحترام على

طول الطريق حتى باب المسجد *

ويقول بنيامين ان الخليفة حين يبلغ المسجد يبدأ بتلاوة آيات من القرآن ثم يتلقى تبريكات امام المسجد وترحيباته واذ ذاك ينحر احد الجمال مثلما يضحى الآن باحد الخراف في عيد الاضحى وبعد انتهاء الصلاة يعود الخليفة الى قصره فلايخرج منه بقية ايام السنة . وهكذا ترى ان التبجيل لشخصه يبلغ درجة يعتبر القوم فيها الارض التي يمشي عليها مقدسة .

ويبدو ان هذا الخليفة اكثر ورعا من اولئك الذين يشغلون مثل هـذا المنصب عادة .

ومن جملة ما كان يتحلى به هذا الخليفة انه كان متقشفا فهو لا يأكل ولا

---

* ورد عند الحديث عن اولى فتوحات التتر للموصل وبغداد وصف يبين شكل اللباس الذي كان الخليفة القائم(١٧) يرتديه ، والاحتفالات التي كانت تجري له . وهذا الوصف مطابق للوصف الذي يذكره بنيامين التطيلي هنا (تأريخ فارس : مجلد اول ص ٣٥٥)

HISTORY OF PERSIA VOL - I P . 355

(*) كانت مملكة ملكشاه (١٨) احد افراد السلالة السلجوقية او التترية واسعة تمتد من شواطىء البحر الابيض المتوسط حتى سور الصين . وكان المصلون يدعون له كل يوم في مدن القدس ، ومكة ، والمدينة ، وبغداد ، واصفهان ، والري(١٩) ، وبخارى ، وسمرقند ، واورجنجي وكشغر (٢٠)

وقام ملكشاه سنة ٤٨١ هجرية بالحج الى مكة وبنى عدداً من الخانات في طريقه اليها . والغى الرسوم المفروضة على الحجاج (تاريخ فارس المجلد الاول ص ٣٦٦)

يشرب ولا يلبس الا ما يستطيع ان يدفع ثمنه من عرق جبينه ولذلك كان يشغل اوقات فراغه في حياكة نوع فريد من الحصر تستخدم سجادة الصلاة يختمها بختمه ويرسلها الى موظفيه لتباع في الاسواق .

وهذه المزية مثال حسن للصناعة ، ونموذج فاخر للاعتزاز بالمبدأ القائل «يجب ان يعيش المرء من وراء اعماله النافعة» .

ويصف بنيامين هذا الخليفة بانه رجل صدق واستقامة ، يحترم كلمته ، ويتمسك بقواعد دينه ، ويحيط نفسه باللطف والالفة امام كل الطبقات ، ويتزعم حياة الطهر والعدالة . وكان هدفه الوحيد ان يحسن اعماله

ولقد اقام على ضفاف نهر دجلة مستشفى للمرضى ومصحة للمجانين فبالاضافة الى ماوفره في المستشفى من كل ما يحتاج اليه المرضى واقام فيه ستين صيدلية مزودة بكل انواع الادوية والعلاجات المعروفة في ذلك العهد . كما اعد كل ماهو ضروري من الطعام والراحة كل ذلك على حسابه . وكان يصدر اوامره بوجوب بذل كل العناية بالمرضى الى ان يتم شفاؤهم .

وكانت مستشفى المعتوهين تسمى «دار الرحمة» وكانت معالجة المرضى فيها منتظمة كما هي في المستشفى الاول ويقوم بالاشراف عليها اشخاص اكفاء عينوا لهذه الغاية .

ويستنتج ذلك الرحالة اليهودي بقوله «ان الملك قد عمل ذلك لغرض اظهار الرحمة ازاء كل اولئك الذين كانوا – اثناء اقامتهم في بغداد – يتعرضون لاي مرض فى ابدانهم ام في عقولهم» .

وهذا يؤكد ما سبق ان قلناه قبلا بان الخليفة كان رجل انسانية مطلقة

ومقاصد سامية*.

وكان احد الخلفاء العرب السابقين قد اسس في القاهرة ما يسمى بمسجد الزهور او مستشفى العميان على طراز مماثل ولا زال هذا المستشفى قائما

وعلى الرغم من عظمة مساحة بغداد وشهرتها كعاصمة للعالم الأسلامي ، ومن الاماكن الرئيسة التى سكنها اليهود. فقد قيل عنها انها لم تكن ، عنـــدما كتب بنيامين رحلته ، لتضم الا عشر ما تضمه فى الوقت الحاضر من اليهود ، او حوالى الف نسمة وهو تقدير اذا ما قورن بالالفي يهودى الذين كانوا يسكنون القاهرة وبالعدد الضئيل الذي قدر به عددهم في مدن سوريا الرئيسة ، فلا بد ان يعفي ذلك الرحالة من تهمة المبالغة العامـــة التى اثيرت ضده حول هذا الموضوع بصـــفة خاصة .

والذي اعتقده ان ما تحدث به بنيامين عن هذه الاماكن التي شاهدها بنفسه امر لاغبار علي صحته ولو انه كان ، بلا ريب ، عرضة للخطأ فيما ذكره من معلومات عن الاقطار التي لم يشاهدها كما هو شأن الذين يذكرون مثل هذه الامور اعتمادا على الغير .

ومن المدهش ان نلاحظ بين رؤساء الطوائف التي استقرت فيما بعد في بغداد ، وجود رجل يدعي « اليعازر بن اسامة » رئيس الطبقة الخامسة الذى يتصل نسبه بالنبي صموئيل (٢١)

---

* « رحلة بنيامين التطيلي » مجموعة برجيرون باللغة الفرنسية الكتاب الرابع ص ٣٤ ، ٣٥

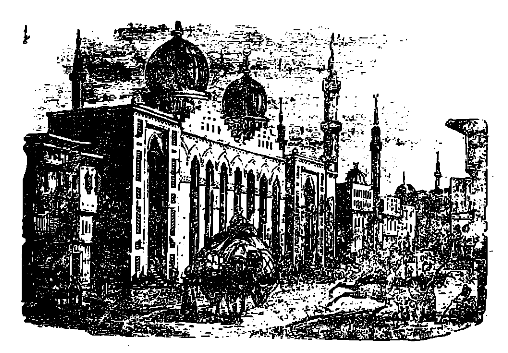
VOYAGE DE BENJAMINE DE TEADULA • COLLECTI ON DE BERGERON LIV 1 PP 34 , 35

وكان هذا الرجل وهو عازف محترف على القيثار ، يعزف مع اخوته على آلة الملك داود المقدسة ، بنفس الاسلوب الذي كانت تستعمل به في تلك العهود .

وكان رئيس الطبقة التالية يدعي « زهرة اصحابه » وقد ذكرت اسماء الاخرين تفصيلا .

على ان الشخصية البارزة فيما بينهم هو « دانيال بن حسداي » وكان يسمى مدير السبى والذى كان يحتفظ بكتاب نسبه المتحدر من النبي داود رأسا .

وقد نال دانيال هذا سلطة واسعة من الخليفة الذى اصدر اوامره الى



شارع الميدان في بغداد سنة ١٨١٦

من رسم المؤلف

المسلمين وغيرهم من اتباع الديانات الاخرى بان يحترموا مدير السبى وان ينهضوا لتحيته ، وانذر من يخالف ذلك بان يضرب مائة عصا على قدميه .

وحين كان دانيال يذهب لمواجهة الخليفة يصطحب معه عددا من الفرسان والاشراف من اليهود يترأسهم واحد منهم يهتف ، مثلما كان المعمدان يفعل ذلك امام المسيح ، قائلا « افسحوا الطريق للسيد ، اجعلوا طريقه مستوية . افسحوا الطريق للسيد بن داود انه على وشك ان يقبل » .

وكانت طريقة تلقيه السلطة من الخليفة انه كان في يوم الاحتفال بذلك يركب العربة الثانية فى المملكة بكل ما يحيط بها من زينة ، ويرتدي اثوابا من الحرير مطرزة ، ويضع على رأسه تاجا مثلثا ثمينا ، ويلتف برداء ابيض اللون اشبه بما يستعمل اليوم عند اداء الصلاة فى بيع اورشليم ، ثم يتمنطق فوق ذلك الرداء بسلسلة ثمينة من الذهب كيما يظهر بافخم ابهته مثلما كان النبى دانيال نفسه يفعل ذلك فى ديوان بلشاصر الكبير فى سوسه [٢٢]

واذ نستعمل العبارات التى استعملها بنيامين التطيلي ووصف بها بغداد وحكامها والبارزين من سكانها ذلك الوصف الدقيق ، فاننا نقول ان بغداد تقع في ارض سنعار ، او شنعار تحيط بها البساتين الجميلة التي تنتج الفواكه الفاخرة وهي ملتقى التجار والباعة من كل انحاء العالم . كما انها مقر الحكمة والعلم ومدرسة الفلاسفة والرجال الذين حذقوا علوم الرياضيات والفلك ومذاهب التصوف .

واذا ما تعقبنا الطريق الذي سار فيه ذلك اليهودي من هنا نجد ان مدينة « جهياغا » التى بلغها في يومين من بغداد قد تكون هي مدينة (الفلوجة) المدونة على الخرائط الحالية [٢٣]

على انه لم يقل ان تلك المدينة هي بابل ، كما افترض ، وانما اعتبرها مدينة

ريسبين ذات الالواح التي قيل عنها انها كانت مدينة عظمى ، وانه لا تزال هنالك بعض الاثار الواسعة التى تعزز هـذا الافتراض . وكانت تقـع على مسيرة يوم كامل من بابل القديمة اما اذا كان السفر بالقوارب في نهـر الفرات الذى تقـع على ضفافه هذه الاماكن ، فان المسافة يمكن قطعها بسهولة في وقت اقل

وهنا يتحدث عن قصر نبوخذنصر الذي لم يستطع ان يدخل اليه بسبب ما زعم عن وجود افات ووحوش فيه لكنه ما دام قد تحدث عن القصر وحدده في مكان لا يزال سكان البلاد يعتبرونه موطن الهوام والشياطين بالاضافة الى مختلف انواع الزواحف ، فانه ولا ريب كان يتحدث بهذا عن تلال (المجلبى) مما يبدو ان القصر والجنائن المعلقة كانت قائمة في مكانه والذي يعتبر الجزء الوحيد من كل الاقليم الذي يطلق عليه اسم بابل حتى بالنسبة للوقت الحاضر

لكنه يميز هذا بوضوح عن برج بابل الذي وصفه بانه يقع على بعد اربعة اميال خلف « حلاّن » يقصد بذلك الحلة والذي يبعد في الواقع حوالي ستة اميال حيث وقع بعض الخطأ فى احتساب المسافة من بابل الى الحلة والتى كتبت بالارقام خمسة عشر ميلا بينما هي في الواقع خمسة . ولقـد كان هناك حوالي عشرة الاف يهودي وهو نفس عددهم الحاضر في بغداد في حين قدر عدد المقيمين منهم في بغداد بحوالي الف شخص وهو نفس عددهم الحالي في الحلة مما يبدو ان التغيير قد شمل الاماكن حسب في حين ظل عدد اليهود في المكانين ثابتا بلا زيادة او نقصان .

ولقد تحدث بنيامين بالتفصيل عن المظاهر المحلية « لبرس نمرود » فهو بالاضافة الى تقديره المسافة بشكل صحيح وهي اربعة اميال عن الحلة يقول ان هذا البرج قد شيد من طراز من الاجر يسمى بالعربية « القصر » (٢٤)

وقد حدد في ملاحظة في الهامش ، ابعاد هذا الاجر بثماني بوصات عرضا ، وست بوصات سمكا ، واثنتي عشرة بوصة طولا .

وهذه الابعاد تقرب من الحقيقة ، ويقول ان الاسس يبلغ طولها ميلين ، وربما اراد بذلك محيط البناء ، وانه قصد من ورائه ادخال المتهدم وتلال انقاضه وغيرها في هذه المساحة

ويتحدث بنيامين عن ممر او ابي على جوانب المعبد يبلغ عرضه عشرة اذرع مما لا يظهر له اثرما في الوقت الحاضر ، وربما تصور وجود ذلك الممر تحت انقاض الخرائب الخارجية مما يتلاءم مع اقدم المخططات لهذه البناء والتي الحقت بالكتب المقدسة . ويقول ان الواقع يؤكد وجود مثل هذا الممرات وان كان هـــو لم يشاهدها اثناء زيارته

ويستمر في وصفه للبرج بعد ان صعد الى قمته فيقول ان النظر يمتـــد الى حوالي عشرين ميلا حول البرج وخاصـة لان الارض هناك واسعة ومنبسطة تماما وهو وصف صحيح كل الصحة .

ويقول ايضا ان الاقوال التقليدية التي مازالت موجودة تذكر ان البرج قد تهدم بفعل « نار سقطت من السماء » وذلك ، ولاشك رأي له اصوله في مظاهر الكتل الكبيرة المزججة التي وصفها هناك . ويضيف الى هذا قوله « ان الجزء الاعلى من البناء قد تهدم ، ولم يبق منه سوى الطبقات السفلى التي صعدت الى قمتها » .

وعلى مسيرة نهار من ذلك البرج يقوم معبد وبيعة « نافيوس »[٢٥] التي يسكن بجوارها مائتان من اليهود وعلى بعد ثلاثة فراسخ منها يقع قبر النبي «حزقيال» والبيعة والقبر مطابقان بالاسم والمسافة للمكانين اللذين لا يزالان يعرفان به حتى الآن الامر الذي يؤكد ان بنيامين قد زار بنفسه برج «برس» والذي وصفه بانه

هو برج بابل بكل مظاهره الصحيحة .

* * *

ولما لم يكن هنالك من سبب آخر غير اعتلال الصحة وحرارة الجو غير الاعتيادية ، يضطراني الى البقاء في بغداد فقد كنت مبتهجاً بزيارة عدد من الاماكن التي تحدثت عنها في مقدمة هذا السفر من امثال الفلوجة وبعض الاماكن الحاضرة التي يحج اليها اليهود .

ونظرا للاوضاع الراهنة كانت الحركة تكاد تكون منعدمة اثناء النهار ، كما كان يندر ان يتجمل احد شدة الحر في الليل . ولذلك كانت الاعمال التي كنت اؤديها محدودة تكاد تنحصر في بعض القراءات الخفيفة التي كنت اقضي بها الوقت بسبب التأثير الذي تتركه حرارة الجو على الذهن فتجعله غير قادر على معالجة اي موضوع يتطلب التفكير .

ولقد قمت خلال ليالي رمضان بزيارة معظم المساجد اثناء اقامة صلوات العشاء فيها وكنت امضي بعد ذلك عدة ساعات الى ان ينتصف الليل متجولا في الاسواق ، ومستريحا في المقاهي ومطوفا في معظم الاحتفالات التي تقام في المحلات العامة .

لم ار بين مساجد بغداد التي شاهدتها مسجدا يمكن مقارنته بمساجد القاهرة او بالمساجد الكبرى في بيت المقدس ، ودمشق ، وحلب وديار بكر .

فمسجد الميدان الذي اضيفت اليه في الآونة الاخيرة زخارف كثيرة ، والذي يحتفظ بقبة ومنارة جميلتين زخرفتا بالقاشي الملون والكتابات ، هذا المسجد لايشاهد في داخله اي لون من الجمال . وماخلا نظافته واضاءته فهو لا يستحق اى وصف خاص .

اما مسجد الوزير [٢٦] الذي يقع على مقربة من شاطىء دجلة عند الجسر مباشرة فهو الاخر ذو مساحة كبيرة وقبة جميلة تجمل منظره اخاذا بينا كان داخله متسخا وفي حاجة الى الترميم الواسع .

واضيء مسجد الباشا (٢٧) الذي يقع على مقربة من المسجد الاخير اضاءة افضل من بقية المساجد الاخرى ذلك لان مصابيحه المعلقة في شرفته الخارجية ، هي المصابيح الوحيدة في المدينة التي تظل موقدة حتى منتصف النهار . على ان المسجد من الناحية الاخرى لا يحوي اية مظاهر ملموسة . ففن بنائه سقيم الذوق ، ومنارته منحنية كثيرا حتى لتبدو وكأنها تهدد بالسقوط سريعا .

ومسجد (عبد القادر) (٢٨) ربما كان اكبر واجمل مسجد في بغداد كلها . على ان المسجد لا يحوي شيئا يثير الاعجاب سوى قبه اللطيفة المسطحة .

وهذا المسجد اوطأ منزلة من مسجد سليمان عند موقع المعبد اليهودي في بيت المقدس ، ومن المساجد الفخمة في دمشق وحلب

ولا يخلو الميدان كل ليلة من الازدحام باناس من مختلف الطبقات حيث تغني هنا مختلف صنوف الاغاني والموسيقى وممارسة الرقص وايقاد النيران والمصابيح وغيرها بالاضافة الى مظاهر الابتهاج الاخرى هناك *

---

* يمتد صيام رمضان شهرا كاملا في كل سنة .ولما كان المسلمون يحسبون تواريخهم بالشهور القمرية فان شهر الصوم يحل بصفة متوالية في كل فصل من فصول السنة ضمن دورة من الزمان تكون اساسا لبدء السنين الشمسية وما يقابلها من السنين القمرية . والشتاء الذي تهبط فيه درجة الحرارة وتطول لياليه ، من الاوقات التي يفضل الناس حلول شهر =

اما الاسواق التى يكون معظمها مقفرا اثناء النهار فانها تعج اثناء الليـل بحشود من العاطلين وقد اكتسوا افخر ثيابهم . ويظهر هؤلاء بارتداء سراويل من الحرير الخفيف وكأنهم على نسق واحد في الالوان ولو ان العمائم تكون بيضاء اللون غالبا .

وترى الفتحة التي تنشر ظلالها عند الصباح على الممرات المعقودة من الاجر قد زالت الان بايقاد القناديل والمصابيح في كل حانوت وعلى كل سرير وفى شرفات المقاهي مما يشيع البهجة والحيوية فيها

ففي ليالي رمضان هذه تكون اسواق بغداد مطابقة للفكرة التى تتكون لدى المرء عنها من الاطلاع على اوصاف المدن الشرقية في القصص العربية . على ان بغداد بدت في نظري كالحة غير مثيرة حين مررت بها لاول مرة اثناء النهار وعلى هـــذا فقد عوضت الان عن خيبة الامل التي صدمتني اول الامر

= رمضان فيها . اما اسوأ الفصول فهو فصل الصيف ولا سيما حينما تكون الحرارة فيه شديدة كما برهن الصيف الحالي على ذلك . ففي خلال هذا الشهر كله يصوم كل مسلم بصفة ثابتة منذ طلوع الشمس حتى غروبها ولا يسمح له ان تمس شفتاه شيئا من الماء او غليون التبغ .

وفي المساء يتحلل الصائمون من الامساك حتى الصباح التالي وبعد ذلك يخصص الليل كله للمتعة

ويظل هذا التعاقب المفروض من صوم في النهار وفطور في الليل منذ ان يبزغ اول فجر للمساء الذي شوهد فيه قمر رمضان حتى ظهور هلال العيد الذي يعقبه .

ففرحت كثيرا حين رحت اجوس خلالها واختلط بالحشود المرحـــة فيها اثناء الليل .

وكان المنظر الذي أفرحني اكثر من غيره هو مارأيته وسط جسر القوارب القائم فوق نهر دجلة .

كان نسيم الصباح فى ذلك الوقت هامداً لااثر لحركة نسمة واحدة فيه . وكان النهر يتهادى فى مسيرته بجلال ، ولا يحطم سطحه الزجاجي سوى ضربات المجاديف التى كانت تتقسم تياره حين يمر بالخطوط التي تحدثها تلك الضربات .

وعلى صفحة هذه المرآة الكبرى كنا نشاهد انعكاس سماء اخرى ذات نجوم تساوى فى بهائها مرآة السماء التي كانت تمتد من فوقنا ونحن على شرفة المنزل في منتصف الليل ، ولم تكن فى الجو ولا سحابة واحدة تغطي ولو جـــزء اصغر من تلك السماء الزرقاء التي ازدحمت بالالوف من العوالم المشعة . وكانت المجرة (٩) التى انفصلت بقطارها الابيض عن العوالم الاخرى مسافات بعيـدة تكاد لا ترى ، تؤلف حزاما عريضا منيرا عبر الافق وينعكس هـذا الطريق الناصع الذى يحيط بالسماء الاخرى التي ترى تحتنا ويرتسم على صفحات النهـر الساكن امامنا .

كان الاشخاص الوحيدون الذين يشاهدون على الجسر في مثل تلك الساعة من الليل هم بضعة عمال انهكتهم متاعب النهار ، وسرقت منهم مجاديف قواربهم فانطووا على انفسهم اشبه بالثعابين بين الاحراش ليصيبوا جزءا من الراحة كانت ضرورية لهم كيما يستعدوا لمتاعب الغد

ان الاغنياء وحدهم الذين يخصصون الليل للقصف والمســـرة ، والنهار

للراحة والهدوء . اما الفقراء فهم مضطرون ، رغم صومهم ، على العمل ليحصلوا من ورائه على جزء من معاشهم اليومي

وما خلا هذا المكان الذي كنت احضر اليه غالبا خلال شهر رمضان وامضي فيه زهاء الساعة في اعجاب صامت بهذه السماء الجميلة ، والنهر الهادىء من تحتها دون ان ارى اي مخلوق على مقربة مني سوى اولئك النيام المتعبين الذين ذكرتهم ، كانت اصوات المرح تسمع من كل جانب

لقد كانت كل ضفاف النهر مضاءة على مد البصر بامتداد مجرى نهر دجلة. وكانت المقهى التي تقع بقرب مدرسة المستنصرية او « كلية المعلمين » التي يرد ذكرها دوما في القصص العربي ، تبدو وكأنها شعلة من نور على الجانب الشرقي من دجلة .

اما المقهى الثانية وهي اكبر من هذه وتقع قبالتها تماما ، فانها تتقد بمصابيحها على الضفة الغربية . ولما كانت هاتان المقهيان تواجهان الطرفين المنفصلين للجسر فان سيلا من النور يمتد منهما عبر الجسر حتى يصل الى وسط النهر حيث تشاهد على صفحة مياهه انوار مصابيح طافية واوان مليء بالمواد اللاهبة مما يزيد من شدة الضياء*

وفي مساء التاسع عشر من آب واذ كنا نعجب بسماء ذلك الجو المتلالئة

* من المناظر التي ترى اثناء الملاحة في نهر دجلة وجود مادة النفط المستعمل للوقود والذي بعد ان يستخرج من مصدره تحت الموصل ينتشر على صفحة مياه دجلة حتى ليبدو النهر وكأنه قد غدا شعلة من نار (٣٠) [اوتر : مجلد اول ص ١٥٨ Otter Vol - 1 P - 158)

اقترحنا تثبيت احدى النجوم لمعرفة خط الطول المستخلص من ملاحظة الشمس في الرابع من ذلك الشهر . وكان كوكب « النسر الطائر وهو من مجموعة العقبان يهبط في وقت ملائم لهذا الغرض وقد احتسبنا خط طوله قبل ان نغادر مائدة الشاي التي كنا نجلس حولها على الشرفة .

كانت الاداة الوحيدة التي يملكها المستر ريج هي من نوع مزاول «سبنسر» و «برونغ» و «رست» الشائعة ، وكانت هذه الالة قد تعطلت في بعض اجزائها الصغيرة بفعل الحرارة الشديدة .

وحتى لو توفرت هنا مزولة اخرى افضل منها، لما تهيأت حالة اكثر ملاءمة من هذه لرصد الكواكب بالنظر لوجود شرفة واسعة ، وافق اصطناعي ، وجو رائق جميل في الليل دائما . غير انه بانعدام مستوى الزوايا ، وآلة التوقيت ، والمراصد ، او الازياج ، كنا مرغمين على ان نقنع بمثل هذه النتائج التي استطعنا ان نحصل عليها بواسطة المزاول وحدها مستعينين في هـذا بجداول «نوري» و «مور» . وهذه المشاهد هيأت لنا خط عرض مقداره ٣٣ ١٨ ٥٧ شمالا الذي ان احتاج الى ثلاث ثوان من الدرجة ٣٣ ١٩ فلسوف يبلغ درجة قدرها ٣٣ ٢٠ بين هـــذه وبين الرصد الشمسي الذي سبقه . واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار عدم الدقة التامة في الآلة استطعنا ان نبرز هذه المطابقة الكاملة لاظهار ان نتائج الرصدين كانت جد مقاربة من الحقيقة *

---

* الارتفاع الصحيح لكوكب الطائر في سنة ١٨٠٠م هو ١٩ ٤١ آ

التغيير السنوي	٢	٩٢	٤٨
سني الكسوف		١٦٫٥	
	٤٨	١٦	=

الارتفاع الصحيح للشمس في آب ١٨١٦م	١٩	٤١	٤٩
الارتفاع الصحيح للشمس ١٩ اب ١٨١٦م	٩	٥٢	٠٠
	٩	٤٩	٤٩
انخفاض كوكب الطائر في سنة ١٨٠٠م	٨	٢٠	٥٧ شمالا
التغيير السنوى في الزيادة ٨ ٥)			
سنى الكسوف ١٦٫٥) ٠٠		٢	٢٢
الانخفاض الصحيح للشمس ..	٨	٢٣	١٩ شمالا
خط العرض المشهود للكوكب الطائر في الاوج .	٦٥	٤	٠٠
الانحراف في خط العرض .. ٢٦)			
اختلاف مرأى الكواكب بالنسبة الى الناظر ٤)	٠٠	٠	٢٢
خط العرض الصحيح للشمس	٦٥	٤	٢٢
البعد القطبى	٩٠	٠	٥٥
البعد السمتي	٢٤	٥٥	٣٨ شمالا
الميلان الصحيح	٨	٢٣	١٤ شمالا
خط العرض	٣٣	٨	٥٧ شمالا

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الثالث عشر

(١) قد لاتكون هذه العاديات مصرية كما خيل للمؤلف ذلك وانما هي بابلية او سومرية وذلك هو الاصح لأن ماجمعه السيدريج منها كان في العراق الا اذا كانت لديه مجموعة خاصة من الاثار المصرية المشابهة

(٢) برسبوليس PERSPOLIS هو الاسم اليوناني لمدينة فارسية اقيمت قرب سوسه عاصمة العيلاميين في ايران ومعناها « مدينة الفرس » اما العرب فكانوا يطلقون عليها اسم « اصطخر » والنسبة اليها « الاصطخرى » وقيل ان الاسكندر الكبير حين اجتاح فارس بعد هزيمة دارا في اربيل خرب مدينة برسبوليس هذه .

(٣) آمون هو كبير الآلهة لدى المصريين القدماء وكان معبده الرئيسي في مدينة (نوب) قرب العاصمة تيبس (طيبة)

(٤) ابيس APIS اسم الثور الذى كان المصريون القدامى يعبدونه وكانوا يصنعون له التماثيل وعلى جبهته هلال ابيض وعلى ظهره صورة نسر وعلى

لسانه صورة ابي جعل ، اما منفيس (ممفيس)وتعرف باسم (منف) ايضاً فهي العاصمة وكانت تقع على شاطىء النيل على مقربة من القاهرة وتسمى اثارها الان عين شمس .

(٥) انطيخوس ANTIOCHUS هو والد سيلوقس الذي تولى حكم العراق بعد وفاة الاسكندر الكبير وقد بنى سلوقس مدينة انطاكية على نهر العاصي تخليداً لأسم والده انطيخوس

(٦) العهد الساساني نسبة الى الساسانيين الذين تولوا الحكم في ايران بعد الفرثيين وقد امتد حكمهم من سنة ٢٢٦ حتى ٦٣٦م واشهر ملوكهم اردشير وسابور وكسرى انو شروان واخرهم يزدجرد الذي اسره المسلمون في معركة القادسية التي وقعت سنة ١٦ هـ وانهت الحكم الساساني واخضعت ايران للعرب المسلمين

(٧) البارون هالر B. HALLER من العلماء الاثاريين المشهورين

(٨،٩) سهل مراثون MARATHON من اشهر سهول اليونان وفيه وقعت المعركة الشهيرة في التأريخ القديم بين الفرس الغزاة واليونانيين والتي جرت في ايلول سنة ٤٩٠ قبل الميلاد والتي انتصر فيها اليونانيون، رغم قلة عددهم ، على الفرس الذين ولوا الادبار مخلفين وراءهم جثث قتلاهم مكومة اكداساً فوق اكداس

(١٠) LINGAM نوع من السمك يعبده الهندوس رمزاً لالهتهم

(١١) معبد هرمونثيس HERMONTHIS كان قائماً في مدينة هرمونثيس التي عرفت باسم « ارمنت » ايضاً وتقع هذه المدينة على بعد خمسة عشر كيلو متراً جنوبي الاثر الفرعوني « اونمنتو » اي برج منتو

(١٢) ايزيس IZIS من آلهة المصريين القدامى ويطلق عليه ايضا اسم اوزريس واسيريس

(١٣) اوغسطين هو القديس اوغسطين (٣٥٣ ـ ٤٣٠م) ولد في نجمنتى بشمال افريقيا من أب وثني وام مسيحية اعتنق المسيحية في الرابعة والثلاثين من عمره ودافع عن الكنيسة دفاعا قوياً جعله بمنزلة الامام لدى المسيحيين وكان لآرائه في التربية والتعليم اثر بالغ على هذه الحركة فى العالم المسيحي في العصور التاليةوقدوضع عدة مؤلفات عالج فيها كثيراً من المسائل المهمة

(١٤) ولد نادر شاه في مدينة مشهد سنة ١٦٨٨ م كان في اول عهده جمالا ثم دخل في خدمة الشاه واخيراً تغلب عليه وعين نفسه شاهاً على ايران وقد غزا الهند واسيا الوسطى ثم غزا العراق في سنة ١٧٤١ وحاصر بغداد في ربيع تلك السنة ولكنه ارتد عنها وتوجه الى كركوك واربيل فاحتلها وحاصر الموصل فلم يستطع منها منالا . وقد توفي نادر شاه سنة ١٧٤٨ في مدينة فتح اباد

(١٥) هو الخليفة « المستنجد بالله » الخليفة الخامس والثلاثون من خلفاء بني العباس ولي الخلافة بعد ابيه « المقتفي » في الفترة مابين (١١٦٠ ـ ١١٧٠)

(١٦) قوانين موسى هى الالواح او الكلمات العشر

(١٧) كهيا او كيخيا تحريف لكلمة « كدخدا » التركية ويقصدبها معاون الوالي وقد حرفت هذه الكلمة مؤخراً لدى الاكراد الى « كوخة » وصارت تطلق على رئيس العشيرة او شيخ القرية وتعتبر من القاب

(١٨) ذكر المؤلف اسم القائم بالنون وليس بالميم وهو خطأ مطبعي واضح . والخليفة القائم هو الخليفة العباسي التاسع والعشرون الذى تولى الخلافة في الفترة ما بين ١٠٣١ و ١٠٧٥ وهي الفترة التى تمثل نهاية الحكم البويهي وبداية الحكم السلجوقي في العراق

(١٩) هو ملكشاه الاول ثالث سلاطين الدولة السلجوقية في العراق في عهد الخليفتين القائم بامر الله والمقتدي بالله

(٢٠) بلاد الرى يقصد بها اقليم خراسان وما وراءه

(٢١) بخاري وسمرقند وبقية المدن داخلة الان في تركستان احدى الجمهوريات التى تؤلف الاتحاد السوفياتي

(٢٢) ذكرت بعض المصادر ان اليعازر بن اسامة ادعى بانه متحدر من نسل اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام . اما صموئيل فهو ليس من انبياء اليهود كما ذكر المؤلف ذلك وانما هو من ملوكهم كاضمت مجموعة الملوك ـ وهي من التوراة ـ كتابين باسم صموئيل يتحدث الاول عن الملك شاؤول والثاني عن الملك داود

٢٣ ـ هذا خطأ فاضح لان بلشاصر ملك البابليين كان مقره في بابل وليس في سوسه عاصمة العيلاميين حكام فارس

٢٤ ـ اخطأ الرحالة بنيامين فى ذكر اسم مدينة (جهياغا) والصحيح ان الاسم (هو صهباجا) وهو الاسم الذى اطلقه العرب على مدينة (الفلوجة) التى يعود تأسيسها الى عهد السومريين.

٢٥ ـ ذكرها المؤلف هكذا ، LAGZAR ، وهو تحريف ظاهر لكلمة (القصر) العربية

٢٦ ـ بيعة او معبد نافيوس كانت هذه قائمة في القرية التي عرفت باسم اليهودية او كف اليهودية والتى تقع على مقربة من ناحية (الكفل) التي يوجد فيها قبر حزقيال نبي اليهود الذى سمي بذى الكفل لانه كفل اليهود بالخلاص من اسر بابل وقد اقيم في مكان القبر مسجد له مئذنة جميلة كانت موضع قصة شهيرة في زمن السلطان عبد الحميد حين ادعى اليهود ان المسجد ليس سوى بيعة من بيعهم وعندما احتدم الخلاف اوفد من حكومة الاستانة احد موظفيها للتحقيق في ذلك فرشا اليهود ذلك الموظف فارسل تقريرا انكر فيه وجود المئذنة في المسجد المذكور

٢٧ ـ جامع الوزير يقع ملاصقا لسوق السراى عند الطرف الايمن من مدخل جسر المأمون (الجسر العتيق) وكانت في موضع هذا الجامع مدرسة عرفت باسم المدرسة (التتشية) نسبة الى الملك تتش بن الب ارسلان السلجوقى الذى انشأها

وقد سمي باسم جامع الوزير نسبة الى حسن باشا والى بغداد وقد جدد بناء هذا الجامع في السنوات الاخيرة

٢٨ ـ مسجد الباشا هو جامع الباشا الواقع في باب المعظم مقابل وزارة الدفاع حاليا والمعروف باسم جامع المرادية ، نسبة الى مراد باشا والى بغداد من قبل السلطان سليم سنة ٩٧٨ هـ

٢٩ ـ سماه المؤلف باسم مسجد (عباس القدر) وهو مسجد الامام

عبد القادر الكيلاني الذي يقع على شارع الكفاح (شارع غازي) وهو من المواقع القديمة في بغداد ذلك لان الامام الكيلاني كان قد توفي سنة ٥٩١ هـ (١١٦٥) ودفن في المسجد المذكور

٢٩ ـ « المجرة » مجموعة هائلة من كواكب تعد بالالاف وتبدو في الليالي الصافية وكأنها قطعة من نور مضيء ويطلق العامة في العراق على المجرة اسماء مختلفة منها (درب التبان) اى طريق ناقل التبن ، او (مسحال الجبش) اى مسرى الكبش ، كما تسمى باسم بنات نعش ايضا .

(٣٠) قد يفهم من قول (اوتر) هنا ان النار التي ترى على صفحة النهر هي من اتقادالنفط الذي تطوف كميات منه في دجلة من مكان استخراجه في القيارة والذى لا يزال يشاهد حتى الان ولكن الحقيقة ان النيران التى شاهدها بكنغهام واوتر كانت اضواء شموع متقدة يضعها اهل بغداد على الواح او اوان معدنية ويطوفونها في النهر بصفة نذور ولا سيما ايام الصيف

الفصل الرابع عشر

سفرة الى خرائب طيسفون وسلوقية

٢٠ آب - لقد استعدت الآن بعضا من قواي، وقد هبط المحرار الذي كان يشير الى الدرجة ١١٠ فهرنهايت عند منتصف الليل الى مثل ذلك المستوى اثناء النهار ولذلك استفدت من دور نقاهتي للقيام بسفرة قصيرة الى خرائب طيسفون وسلوقية قبل ان ابدأ رحلتي الطويلة الى الشرق

وفي صباح اليوم العشرين من آب، وعند شروق الشمس، غادرت الباب الجنوبي لبغداد القائم على الضفة الشرقية للنهر بصحبتي فارس المستر ريج ذلك الكردي الذى صحبني في سفرتي الى خرائب بابل.

كان طريقنا يمتد فوق سهل مستو ذي تربة خفيفة لطيفة لم ترو ولم تزرع منذ زمن طويل، ولكنها تمتد مهملة ضائعة

وكان سيرنا عبر السهل نحو الجنوب الشرقي عامة مائلا نحو الجنوب وقد التقينا في طريقنا بجماعات كثيرة من الاعراب يسوقون دوابا محملة بالقش والحطب مما يستعمل وقودا لدى كل الطبقات في بغداد، وكان معظم الرجال

الذين يسوقون تلك الدواب مسلحين تسليحا قويا مما ترك لدينا انطباعا سيئا عن وضع الطريق الذي كنا نسير فيه .

وبعد ان اجتزنا بضعة بساتين للنخيل على الضفة الشرقية من دجلة الذي كان يقع الان على جهتنا اليمنى وصلنا بعد حوالى الساعة الى منعطف شرقي النهر. كانت الضفاف عالية ، شديدة الانحدار ، والنهر ضيقاً يجري بمعدل اعتيادي يبلغ حوالى ثلاثة اميال في الساعة كان نسيم الشمال الغربي اللطيف قد بدأ يهب على سطح الماء ومع ذلك ظل النهر صافيا تماما حيث كانت تطفو عليه بعض القفف القادمة من بغداد تتحرك بقوة التيار وتدار بالمجاذيف في حين كان مركبان كبيران يتحركان صاعدين ضد التيار بفعل الاشرعة الكبيرة المربعة التي كانت تعانق الريح .

وبعد مضي ساعة ونصف الساعة من هنا ، ولدخولنا ذات السدير ، بلغنا ضفاف نهر ديالى الذى كان يتهادى بلطف من الشمال الشرقي متجها نحو دجلة .

كان على النهر جسر من قوارب وكان صالحا للمرور عليه قبل مدة لكنه قد تحطم الان فى حين القيت الزوارق التي اريد اصلاحها فى الوحل دون ان تمس .

كان النهر عميقاً جدا لا يمكن عبوره مخاضة . وكانت محاولة خطرة ان يقطعه الجواد سباحة ذلك لان الطمى الرقيق في قعره من شأنه ان يزيد من وزن الحيوانات فاذا ما لامست القعر مرة غدا من الصعب تخليصها منه ، ولذلك عبرناه في قارب مفتوح اشبه بذلك القارب الذي استخدمناه في عبور نهر الفرات عند نقطة « البير »

كان عرض نهر ديالى يبدو نصف عرض نهر دجلة الذي يصب فيه

وكانت ضفافه عالية، ومياهه رائقة حلوة وتياره يجرى بمعدل بطيء لا يتجاوز الميلين في الساعة الواحدة. ولقد عثر الصيادون في هذا النهر على سمك من النوع الذي يسميه العرب: (البز) وكل واحدة منها كبيرة تكفى لان يحملها حمار واحد لكني لست اعرف سمكة فى المياه الاوربية يمكن مقارنتها بهذه. وتنقل هذه الاسماك الى بغداد وتباع بسعر معتدل نظرا لجسامة حجومها، لكن الاغنياء لا يرغبون فى تناولها ولذلك تستهلكها الطبقات الفقيرة بصفة رئيسة

تبلغ المسافة بين بغداد ومجرى ديالى ما بين ثمانية وتسعة اميال ومع ان الشمس قد ارتفعت عاليا الا اننا لم نر المدينة ذاتها. كان قصر كسرى العالي فى المدائن عند موقع طيسفون القديمة يلوح امامنا، بعد ان عبرنا هذا النهر. وكان يبدو هائلا بشكل ظاهر، وذلك فى هذا الفضاء المتكسر الذي احدثه الافق الجنوبي فوق ذات الخط الذي يسير مخادعا ويشاهد فى كل ما يحيط بنا. فلقد كان القصر يبدو لنا من هنا اعظم من «دير وستمنستر»[1] حين ينظر اليه من ذات المسافة وهو في مظهره العام اشبه بذلك البنـــاء سوى ان الابـــراج تنعدم فيه

وتعتبر الكتدرائية الكبيرة التى اقامها الصليبيون، ولا تزال قائمة في «اورثوسيا» القديمة[2] على ساحل سوريا نموذجا للقصر فى مظهرها العام حين تنظر الى تلك البناية وانت تقترب اليها من ناحية الجنوب وان كان لا يوجد مظهر واحد للمقارنة بين كل هذه الابنية بشكل مفصل.

كانت تقوم على الضفة الشمالية من ديالى بعض اكواخ من القش تسكنها عوائل قليلة تحصل على معاشها من وراء نقل المسافرين عبر النهر. اما فى الناحية الغربية وعلى مقربة من دجلة فقد تناثرت بعض بيوت الشعر التي يسكنها رعاة الغنم

من الاعراب ، بينما كانت ترى في الناحية الجنوبية بعض اشجار النخيل وما عدا ذلك فلا اثر للخصب او الزراعة هناك .

ومنذ اللحظة التي بلغنا فيها ضفة هذا النهر تركز اهتمامي بصفة خاصة في التلال العالية الكبيرة في الناحية الشرقية والتي لا تبعد اكثر من خمسة اميال عن الضفة الجنوبية للنهر ، وهي في شكلها وسعتها تشبه خرائب قصر بابل ولذلك كانت رغبتي في زيارتها قوية جدا غير ان رفيقي الذي لا تعوزه الشجاعة الشخصية قد لا يوافق على ان ننحرف الى مثل هذه المسافة في طريقنا .

واستنادا الى المعلومات التي ادلى بها صاحب القارب الذي عبرنا به النهر كانت هذه المناطق غير آمنة وقد سكنها مزيج من الاكراد والفرس والعرب ممن يبدو عليهم ان الصفات السيئة هي التي وحدت مجتمعهم ذاك .

لم نكن نعرف شيئا عن هذه التلال وكانت تلك خيبة امل لي لانني منذ اللحظة التي شاهدت فيها تلك التلال تنهض في ذلك السهل المستوي الاجرد كنت اشعر مطمئنا بان هذه التلال هي خرائب مدن نشأت في ايام سالفة .

وقدسبق لمؤلف حملة الاسكندر عندما قطع الطريق الملكية من (ساردیس) الى (سوسة) عدد انهار دجلة والزابين الاكبر والاصغر ثم ذكر نهرا رابعاً هو نهر « جنديس » الذي قسمه كورش الى ثلثمائة وستين قناة لينتقم بذلك من هذا النهر الذي غرق فيه جواد اثير لديه

غير ان الميجر رنل يلاحظ ان المقصود بذلك هو نهر ديالى والذي ينبع مصدره من ذات المكان الذي ينبع نهر الزاب منه

ويبدو ان هيرودوتس ، او ارستاغوراس الذي اقتبس وصفه قد خلطاً بين هذه الانهار ، لان نهر مندلي يبدو انه هو نهر جنديس الذي قسمه كورش

وان ديالى نهر مستقل يمتد واسعا وهو اكثر عمقا (٣)

وقد اطلق الميجر رنل في خرائطه على نهر ديالى اسم «خوسبوس المدائن» تمييزاً له عن خوسبوس سوسة وذلك لأن ملوك فارس قد حددوا استعمال مياه هذين النهرين ولم يكونوا ليشربوا مياه اي نهر آخر في حملاتهم البعيدة .

وقد سمي القدماء هذا النهرين باسماء كثيرة منها (تورنا) و « ديالى » وهو الاسم الذي يعرف به في الخرائط الحديثة في الوقت الحاضر .

كذلك اثار موقع مدينة « ستياس » (٤) الذين ذكر الميجر رنل انه يقع على مقربة من اتصال ديالى بدجلة ، قد اثار اهتمامي في التحري عنه الى جانب الاسماء والخرائب الواقعة على الضفة المقابلة للنهر . لكنني لم افز باية معلومات مفيدة لان سكان البلاد انفسهم لايعرفون سوى الشيء الضئيل عن المواقع والاسماء والاثار وحتى اذا ما عرفوا عن ذلك شيئاً فلا يأبهون به كثيراً .

ويقول الرحالة « دنفيل » ان زينفون قد رأي هذه المدينة في وقت كانت فيه واسعة جداً ومأهولة بالسكان ومزدهرة ، وانها كانت تمتد مسافة خمسة عشر فرسخاً على هذه الضفة من نهر دجلة من المكان الذي يعبر فيه هذا النهر على جسر مؤلف من سبعة وثلاثين قارباً .

ويضيف دنفيل الى ذلك ان بطليموس قد اخطأ عندما وضع هذه المدينة واراضي « ستياسين » ـ التى اخذت اسمها منها ـ فيما وراء نهر دجلة . كما ارتكب « بليني » ذات الخطأ عندما اطلق على « اوفيس » اسم انتيوخ (انطاكية) ، وقال « ان اراضى ستياس تقع الى الشرق منها » .

وربما كان « دنفيل » نفسه قد اخطأ في حديثه عن ستياس حين قال ان « تكسيرا »(٥) قد مر بتل من الانقاض في مكان المدينة وذلك بعدان قطع خمس او ست ساعات بعد مغادرته بغداد . فذلك التل هو عكركوف او

« كوركبات »(٦) الذي اضاف اليه اسم « نمرود » على اعتقاد انه هو الذى بنى تلك المدينة *

وفي بحث عن مملكة نينوى قدمه المسيو « دي بروس » الى الاكاديمية الفرنسية قال فيه ، عن الكلام على المدن الاربع التى شيدها « نمرود » في ارض شنعار ، ان « اكد » او « اركد »(٧) قد انشئت طبقاً لرأي « بوكارت » على ضفاف نهر « ارغاد »(٨) الذى كان حسب شهادة « ستسباس » ، يغسل اسوار مدينة سيتاس التي تقع شرقي دجلة بين سوسة(٩) وطيسفون الامر الذى حمله على الاعتقاد بان سيتاس كانت ذات المدينة التى بناها نمرود **

والمعلومات التى اعتمد عليها الميجر رنل في تثبيت مدينة سيتاس في خارطته ليست واضحة تماما . فهو بعد ان يتحدث عن خطأ هيرودوتس الذي وضع « اوفيس » عند التقاء دجلة بجنديس الذي نفهم من وصف ارستا غوارس اياه بانه هو نهر ديالى ، ولو ان نهر جنديس الحقيقي يعتقد انه هو نهر مندلي وذلك ما فعله الجغرافي الانكليزي رنل الذي يقول « وطبقاً لتأريخ تقهقر العشرة الاف فلا يمكن ان تكون اوفيس واطئة الى هذه الدرجة لانها تقع على بعد لايقل عن عشرين فرسخاً فوق سيتاس المدينة القائمة على مصب ديالى تماماً اذ ان اليونانيين لم يمروا بها في طريق تقهقرهم ***

(*) دنفيل : ص ١٠٠ — D,ANVILLE - P. 100

** مذكرات المجمع الفرنسى المجلد ١٧ ص ٣١

MEMOIRES DE L'ACADIMIE FRANCAISE VOL 17 P 31

*** رنل : مصورات جغرافية هيرودوتس : آسيا ص ٢١٠

M. RENNEL ILLUSTRATION OF HERODOTUS GEOGRAPHY ASIA P. 210

واشير في خارطة ضواحي بابل الى موقع هذه المدينة الذي ثبت قبالة مصب ديالى بنهر دجلة .

ومع ان المعلومات التي تعزى الى هذا الموضع تبرر ما ذكره رنل الا انني لم اسمع باية اسماء او خرائب في في تلك الناحية يؤكد بقايا ذلك الموضع .

ففي هذا الجزء من العالم الذي كان من قديم الزمن مسرحاً لامبراطوريات عالمية يتنافس على اقامتها الطامعون من ملوك الشرق والغرب معاً لا بد وان يكون مصير العديد من المدن هو ازالتها من الوجود دون ان يترك اي اثر يدل على عظمتها السالفة وعلى هذا فالرحالة الذي يدرك توالي وقوع مثل هـــذه الحوادث لابد وان يصاب بخيبة امل ويستغرب لانه لا يستطيع ان يميز بقاياتلك المدن مهما كان الموضوع مدعاة للاسف .

* * *

اتجهنا من ضفاف نهر ديالى الى الجنوب لأن قصر كسرى العالي يحملنا على السير جنوبا باتجاه الشرق حيث سرنا في هذا الاتجاه زهاء ساعة ومن ثم عدنا ثانية الى ضفاف دجلة . كانت تشاهد وسط النهر ضفة واسعة نشأت عن انحسار النهر ويبدو من لونها انها كانت مؤلفة من الرمل وقد ظهرت تلك الضفة وكأنها جزيرة وسط النهر وقد بدت مساحة دجلة هنا ومعدل جريانه مساويين لما سبق ان رأيناه في بغداد .

كان الجزء الذى قطعناه من الطريق يجتاز سهلا اجرد فيه اثار زراعـة حديثة العهد . اما الان فقد بلغنا ارضا تغطيها شجيرات كثيفة تنبعث منهـــا رائحة عطرية زكية *

* سبقت الاشارة الى الطريق الذي قطعه زينفون وتحدث عنه وعن هذه الميزة في بلاد ما بين النهرين

كانت تلك الرائحة تنبعث من شجيرة خضراء داكنة تحمل ثمرة اشبه بالفاصولية الكبيرة لونها احمر خفيف وقد حملت الدواب التي مررنا بها مثل هذه الاشجار متجهة بها الى سوق بغداد كما يمكن العثور على مثل هذا النبات بكميات قليلة او كثيرة بامتداد نهر دجلة من اسكي موصل حتى هـذا المكان (١٠)

بعد مرور ساعة من ذلك المكان وحوالي ساعتين مذ عبرنا نهر ديالى وصلنا الى تلال . طيسفون كانت هذه التلال ذات ارتفاع معتدل ولون خفيف تغطيها اجزاء الفخاريات المحطمة وهى دلائل تؤكد سكانها السالفين . وتبدو هذه التلال وكأنها سلسلة شبه دائرية . واسعة تتجه نحو الشرق حيث يحدد خطها المتواصل وشكلها محيط اسوار المدينة .

كم تكون فرحتى شديدة لو استطعت ان اقيس محيط تلك التلال لتكون لدي فكرة صحيحة عن سعة تلك المدينة وشكلها والتي كانت تحيط بها تلك الاسوار لكننى لم اكن قد شفيت تماماً من مرضي الاخير ولأن حتى هذه الرحلة القصيرة قد اتعبتني فاخذت حرارة الشمس تشتد حين اقتربت الظهيرة ليقف مؤشر المحرار عند الدرجة ١٠٨ درجة

كان محيط شبه الدائرة الذي تؤلفه هذه التلال يقدر بحوالي ميلين . وكانت المنطقة التى هبطنا اليها الان من المدينة رغم اتساعها لاتضم سوى قلة من التلال

وبعد ان اجتزنا ارضاً داخل الاسوار مغطاة بقطع من الآجر والفخار وصلنا بعد حوالي نصف ساعة الى قبر سلمان باك الذى يقع ضمن مسافة قصيرة من قصر كسرى المتهدم . .

وجدنا هنا ملجأ مريحاً واميناً جداً داخل فناء رفيع الجدران تبلغ

مساحته حوالي مائة خطوة مربعة وفي وسطه يقوم ضريح سلمان باك او سلمان الطاهر صديق الرسول محمد ﷺ ذلك الحلاق الفارسي الذي نبذ عبادة النار واعتنق الاسلام وعاش حياة ملؤها الايمان بالدين الذي اعتنقه ثم دفن عند وفاته في نفس مدينته الاصلية وهي المدائن .

ويحترم كل المسلمين في هذه البلاد ذكرى هذا الصحابي المحبوب لدى رسولهم العظيم وما خلا العيد السنوي الذي يحتفل فيه جميع الحلاقين في بغداد خلال شهر نيسان بزيارة قبر رئيسهم ، فان الاخرين يقصدونــــه في كل مواسم السنة .

ففي فترة وجودي هناك رأيت مسافرين قادمين من « شستر » قد توقفا عند سلمان باك في طريقهما الى بغداد لزيارة هذا الضريح .

واذ لم اجد صعوبة في الاختلاط بكل حرية مع اهل البلاد فقد دخلت الى الضريح مع الزائرين معاً وقبلت عدة مرات ، ولو لم يكن ذلك بذات الحماسة التي اظهرها الفارسيان ، جوانب الابواب التي اتسخت بطبقات الايدي البشرية عليها وضمخت بلون احمر عميق مما يشاهد غالباً على مداخل معابــــد الهنود وجدرانها .

اسندنا جباهنا باحترام على الابواب ، ثم استدرنا حول القبر ثلاث مرات وبعد ان قبلنا زواياه وجوانبه في سيرنا مثلما تفعل ذلك طائفة « البرادكشينا » الهندوسية وقف الفارسيان احدهما الى جنب الاخر واتجها نحو الكعبة لاداء الصلاة واستغربا لانني لم اشاركهما الصلاة وبعد ان اكملا صلاتهما جرى حديث حـــــول هذا الموضوع وكان مما اظهرته من الاحترام لضريح صديق النبي محمد ﷺ برهاناً على انني لم اكن في نظرهما وهابياً حيث يعتبر عدم الاهتمام بقبور الموتى مـن

المظاهر الرئيسة لاسلوب الاصلاح الذي سار عليه الوهابيون .

وحيث افضيت اليهما بان الصلاة التي تؤدي لخالق الكون لا شأن لها بالارض التي تؤدي فيها شريطة ان يكون القلب نقياً اخذا يعتبرانني من الميالين الى المذهب الوهابي .

ومع ان هذا المذهب على اتفاق بما ورد في القرآن بل هو في الواقع ما يطبقه المؤمنون بالقرآن فقد كانا مقتنعين بوجود فائدة خاصة في زيارة الاضرحة المقدسة واداء الصلاة فيها ولو انهما لم يحاولا انكار وجود الله في اي مكان وصلاح جزء من معبد الطبيعة الواسع لاداء التعبد الذي ينفتح به القلب امام صانع الكون العظيم .

* * *

يتألف البناء المشيد فوق ضريح سلمان باك من محراب مقبب ، ورواق معقود ، ومرافق اخرى متصلة به .

وتبلغ مساحة المحراب من القاعدة حوالي خمس عشرة خطوة مربعة وقد زينت جدرانه الداخلية بالقاشي الملون .

وتقوم فوق المحراب ، وعلى ارتفاع حوالي عشرين قدماً ، شرفة مثمنة الزوايا ، اما سقفها الداخلي فقد شيد على الطراز العربي من محاريب صغيرة مدببة على ما هو موجود في قبر زبيدة (١١) في بغداد القديمة ايام الخلفاء وقد زينت هذه الشرفة بالرسوم والزخارف الفارسية . وتتوج ذلك كله قبة مستوية متناسقة ترتفع ما بين ستين وسبعين قدماً وقد اضيئت اضاءة جيدة بشبابيك مفتوحة عند القاعدة ، واخرى ذات زجاج ملون عند الشرفة المثمنة الزوايا في الوسط .

ويقوم الضريح ذاته وسط المحراب وهو مربع ذي شكل مستطيل يحيط

به سياج وتنتصب عند الرأس ركيزة مثلثة القوائم يتألف الجزء الاعلى منها من قطعة خشبية تشبه الراس البشرية تقريباً وهي تماثل تماماً لوحة الحلاق الاوربي التي توضع فوق ركيزة ذات ثلاث قوائم .

وقد اخفيت هذه الركيزة الى النصف عن الرؤية وذلك بالقاء ستار فضفاض عليها من الحرير الاخضر المطرز بنجوم من ذهب .

وقيل ان هذا يشير الى مهنة ذلك الزاهد التي كان يتعاطاها في حياته ، وان هذا الستار كان هدية من بعض الحلاقين الذين يزورون ضريحه كل سنة .

لكن الشيء الذي شاهدته هو ان الحلاقين في الشرق لا يستعملون مثل هذه الركائز وقد يجوز انهم استعملوها عندما كان الملوك الساسانيون يستعملون الشعور الاصطناعية ـ كما يشاهد ذلك على نقــود العوائل الفارسية المالكة واوسمتها ـ فاصبح استعمال الشعور الاصطناعية من الامور الشائعة في بلاد فارس ولا سيما في العاصمة طيسفون التي كان ذلك القديس المبجل واحدا من ابنائها *

حين خرجنا من الضريح الى الممشى المعقود الذي يؤدي اليه ونعمنا بهوائه العذب سألت ذينك الشوشتريين عن اطلال « سوصيانه » عاصمة الملوك الساسانيين وعن قصر « شوشان » (١٢) ذي الكتابات الاثرية الذي يقال انه لا يزال قائما في « شستر » الــتي يقيمان فيها ، فلم احصل على اي شيء منها . فهما لا يعرفان ان تلك المدينة كانت المقر القديم لملوك فارس ، ولا عن مسارح التأريخ الديني والدنيوي

* الملاحظ ان الشعور الاصطناعية وغيرها من اغطية الرأس الثقيلة كانت قد تطورت الى ازياء منذ اقدم العصور . فهي تشاهد على كل التماثيل في برسيبوليس . وفي معظم معابـد مصر وعلى رأسي تمثالي « ممنون » و (اوسيماندياس) في طيبة .

وان كانا قد تحدثا الي عـــن قبر «دانيال» في ششتر والذي يزوره المسلمون والمسيحيون واليهود معا .

ويطري المؤرخ يوسفس ، النبي دانيال ويعزي اليه عدة فروع في المعرفة ومنها فن البناء ويعطي على ذلك مثلا البناء الشهير الذي شيده دانيال في سوسه فهو يقول ان هذا البناء شيد على شكل قلعة كاملة فاخرة ويقول ايضا ان قبور ملوك الفرثيين (١٣) والفرس كانت مدفونة في تلك القلعة *

ويوصف الطريق مابين بغداد وششتر بانـه خطر للغاية وان طوله يبلغ مسيرة عشرين يوما في قافـلة . والريف الذي يمتد بين هاتـين المدينتين يقطنه اعراب لورستان (١٤)

* * *

وبهبوب عاصفة شديدة من الشمال الغربي كانت تهدد باقتلاع النخيلات القليلة الموجودة هنا خفت حرارة الجو كثيراً اذ وقف مؤشر الحرار في الثالثة بعد الظهر عند الدرجة ١١٣ درجة في الظل**

ومهما يكن الامر فقد مكثنا داخل ذلك الحوش الى ان خفت درجـــة الحرارة وقبل ان تغرب الشمس بحوالي ساعتين خرجنا لمشاهدة الطلل الكبير

---

* مذكرات الاكاديمة الملكية مجلد ١٩ ص ١٤٣

** ذكر قبلا ان اشجار السرو كانت تحيط ببابل لكن الاسكندر امر باقتلاعها واستخدامها في بناء سفن الاساطول الذى اراد ان يمخر به الخليج العربي ويفتتح به شواطىء جزيرة العرب
(اريان : الكتاب السابع فصل ١٩
ARIAN - VOL - VII C XIX

الذي يتركز الاهتمام حوله في ذلك المكان ويقع هذا الطلل على بعد سبعمائة خطوة جنوبي الضريح وهو يمثل بقايا الصرح الهائل الذي يطلق عليه السكان اسم «طاق كسرى» . ويتألف هذا من جناحين وقاعة وسطى واسعة تمتد الى اعماق البناء كله وكان شكله كاملا تقريبا ويبلغ طوله مئتين وستين قدما وارتفاعه نحو مائة قدم ومن الجبهة تحتل القاعة الكبرى المفقودة ناحية الوسط ومدخلها ذو ارتفاع وعرض مساويين للقاعة ذاتها . ويبلغ عرض الطاق حوالي تسعين قدما وارتفاعه من خط الجبهة لايقل عن مائة وعشرين قدما وعمقه مساو لارتفاعه .

ويمتد الجناحان على كل من جانبي الطاق فيجتازان الجبهة التي تتألف من جدران سميكة كانت في الاصل تضم شققا من خلفها كما يشاهد ذلك من الاثار الباقية ومن البابين الجانبين اللذين يمران من هناك الى القاعة الوسطى الكبرى .

وهنالك باب اخرى تؤدي من خلف هذه القاعة ايضا ويظهر من هذا ان القاعة كانت تستخدم بمثابة غرفة استقبال في المناسبات التي يحتفل بها .

والجدران التي تؤلف هذين الجناحين في خط الجبهة شيدت على شكل مائل فحين نرى ان سمك القاعدة يبلغ زهاء عشرين قدما لايزيد سمك القمة عن عشرة اقدام . وتبدو جدران القاعة الوسطى في الاسفل أكثر سمكا مما في الاعلى . وتشاهد في السقف انابيب مجوفة تنثني طبقا لشكل البناء المقوس ، وشرائح من اخشاب كبيرة مازالت نهاياتها ترى في الجدران على مقربة من طاق الدخول في الجبهة .

والبناء كله مشيد من آجر يشابه في حجمه وشكله ومادته الآجر الذي يشاهد في اطلال بابل . وقد زجج عدد من هذا الاجر باللون الاخضر على غرار ما عثر عليه في بابل وعكركوف لكنني لم اشاهد عليها اياً من الكتابات او الرسوم

والملاط الذى استعمل في البناء هو الجبس في طبقات اكثر سمكا مما يرى في اي من ابنية بابل . وهو اقرب الى طراز البناء اليوناني اوالروماني الذى عثرعليه في اطلال الاسكندرية اذ كانت طبقات الجبس سميكة سمك الاجر ذاته ، بينما يكاد الجبس الذى استعمل في ابنية بابل سواء في برس أوالقصر او الاحيمر ، لايحس بوجـــوده .

وتناسق البناء هنا يختلف عن ابنية بابل وابنية الاجر الجميلة التي شيدت في عهد الخلفاء ببغداد ولا تزال قائمة .

وللجناحين جبهة قسمت الى طابقين يضم الاسفل منهما فرجات كبـيرة مقوسة ، ومدخل باب مقوس تفصله عن الاخر فصوص محدبة او شبه اعمدة ترتفع الى نصف ارتفاع البناء وتضم بين اقسامها دواوين منفصلة يتألف كل واحد منها من ثلاث فرجات صغيرة متناسقة تقوم فوق فرجات كبيرة مقوسة ومـن تحتها مدخل مقوس ايضا .

وتقوم في الطابق الاعلى فرجتان مقوستان مزدوجتان في ديوان يفصل الواحدة منهما عـــن الاخرى فص يمتد الى قمة البناء . ويعقب ذلك في الطابق الثالث دواوين يتألف كل واحد منها من ثلاثة محاريب صغيرة مجوفة وكأنها قد شيدت في شكل هيكل او قبة مزدوجة تفصل الواحد عن الآخر فصوص طويلة تمتد الى القمة .

واخيراً يشاهد في الطابق الخامس خط متواصل من محاريب صغيرة مقوسة يفصل الواحد عن الاخر فصان صغيران مزدوجان تحطم رأسا هما الان .

والجناحان متشابهان في التصميم تقريبا وكان للبناء طابعه الخاص عندما كان كاملا غـــير متهدم وعندما كانت الجبهة مغلفة بالرخام حسب التقليد الشائع آنذاك .

واقواس البناء كلها من طراز روماني . والفن المعماري هو الفن الروماني وان كان في بساطته اكثر جمالا . ويرى الطابق المدبب على حاله في الطلل الان وان كانت النهايات الهرمية التي تتوج بعض المحاريب الصغيرة الطويلة الضيقة في الجبهة ، والفصوص القائمة فيها ، لاتضم اية تماثيل او تيجان .

وجبهة البناء وان كانت تواجه نهر دجلة مباشرة ، الا انها تقع شرقي النهر الذي يتلوى هنا بالتتابع ·

* * *

· صعدنا بعض التلال الواقعة على بعد مائة يرد جنوبي القصر وهي مؤلفة كسابقتها من زاب انتشرت فوقه قطع الفخار وتشير الى سلسلة من الابنية المتهدمة . وكنا نرى من فوق هذه التلال خطا متواصلا من تلال شبه مستديرة تمثل اسوار المدينة وبذلك تأيدت فكرتي السابقه عن طول هذه الاسوار .

وكان في مقدورنا ان نشاهد من هناك التلال الاخرى العالية التي لا تزال تحتل موقع سيلوقية* على الجانب المقابل من النهر حين يصبح النهر هنا ملتويا الى درجة ان

---

* كان سيلوقس ، وهو اكبر حام لليهود ، والذى سميت هذه المدينة باسمه ، قد انشأ عددا من المدن تحمل ذات الاسم ، وان كانت سيلوقية البابلية هذه والواقعة على نهر دجلة تعد المدينة الرئيسة بين تلك المدن .

ويقول المؤرخ « ابيانوس » (١٥) في كتابه الشهير الموسوم (سرياكيس) SYRIACIS ان سيلوقس قد ابتنى مدنا كثيرة في اسيا الكبرى والصغرى معا ، وان ست عشرة منها قدسها (انطاكية) نسبة الى (انطيخوس) وهو اسم ابيه ، واطلق على تسعة منها اسم سيلوقس ، نسبة اليه ، وسمى ستا اخرى

القوارب التى تمخر عبابه متجهة نحو بغداد تستدير باتجاه جنوبي الجنوب الغربي من جهة ، وباتجاه الشمال الغربي من جهة اخرى

كان يجب علي ان اعبر من هنا باحد الزوارق الى موقع سلوقية لو لم يكن المستر ريج قد اكد لي عدم وجود شيء يستحق البحث هناك وقد قال

= باسم «لوديسيا» نسبة الى (لوديس) وهو اسم والدته ، واطلق على ثلاث مدن غيرها اسم (افاميا) وهو اسم زوجته (١٦) وسمى مدينة واحدة باسم ستراتونسيا نسبة الى ستراتونيس اسم زوجته الاخيرة .

وطبقا لما ذكره يوسفس في الكتاب الثاني عشر الفصل الثالث من مؤلفه قام سلوقس بتوطين اليهود في كل هذه المدن ومنحهم الامن والامتيازات المادية على غرار ما يتمتع به المقدونيون والاغريق ولا سيما في انطاكية سوريا التي سكنها اليهود باعداد هائلة وبذلك اصبحوا يؤلفون جزءا هاما من تلك المدينة مثلما كانوا عليه في مدينة الاسكندرية ومن انطاكية السورية انتشر اليهود في كل ارجاء سوريا واسيا الصغرى

اما المدن الشرقية التى تقع وراء نهر الفرات فقد استوطنها اليهود قبل ذلك الوقت بزمن حين جاء بهم الاشوريون والبابليون سبايا الى هناك فتكاثروا في اعداد كبيرة لكن سيلوقس نيكاتور كان اول من منحهم حق السكن في مقاطعات اسيا التى تقع على هذا الجانب من نهر الفرات .

ولما كان اليهود مخلصين وخادمين له جدا في حروبه ولمصالح

لي بانه شاهد تمثالا في ذلك الموقع لكنه كان في حاجة الى شخص يعرف ذلك المكان بدقة كيما يستطيع العثور عليه ثانية

وقد قيل ان الزوارق تنفق خمسة ايام احيانا في صعودها ضد التيار من هذا المكان الى بغداد بسبب التواء مجرى النهر

وقبل ان نغادر هـــذا المكان لاحظت اشباح بعض المرئيات الرئيسة

واعتمادات اخرى فقد وهبهم الامتيازات في كل المدن التي شادها ولكن يبدو ان اليهود البابليين هم الذين جعلوا سيلوقس يقف الى صالح كل اليهود . ذلك لان يهود فلسطين الذين كانوا يخضعون لحكم (بطليموس) (١٧) لم يكـــونوا قادرين على اداء الخدمات لسيلوقس .

غير ان بابل كانت هي المكان الذي وطد فيه الاسس الاولى لحكمه وكان عدد اليهود في هذه الانحاء كثيرا مثل عددهم في فلسطين ان لم يكن اكثر منهم . وعلى هذا فان من المحتمل كثيرا ان يكون اليهود قد ثبتوا على ولائهم لسيلوقس ، وكانوا يمثلون القوة الاساسية التي اعتمد عليها في تقدم المدينة

وهذا هو السبب الذي دعاه الى اظهار كل هذا الاهتمام بهم اذ لايبدو هناك اى سبب آخر لمنح كل هذه الامتيازات العظيمة لهم .

[الدكتور بريدو : العلاقة بين العهـــد القديم والجديد ص ٨١٤ ـ ٨١٥]

DR - PRIDEAUX - RELATION BETWEEN OLD & NEW TESTAMENT PP 814 - 815

بارزة* كما شاهدت كل جزء من ضفاف النهر خاليا من الاشجار .

ويعود قدم هذا المكان الى عصر « نمرود » الصياد العظيم الذى يقف امام الرب والذى قيل عنه ان ابتداء مملكته كان فى بابل ، واكد ، وارك ، وكالنح فى ارض شنعار

ولقد ظن بعض الاثريين ، ولا سيما المسيودي بروسيس احد رؤساء الاكاديمية الفرنسية ـ وهذا قد اقتبسناه عنه قبلا ـ ان (كالنح) التي نتحدث عنها هنا كانت تقع في موقع طيسفون (١٨)

ففي مخطوط لهذا المؤلف قدم الى الاكاديميــــة الفرنسية قال ان اسم (كالنح) الذى يعنى المسكن الكامل HABITACUM PERFECTOM وهي المدينة الرابعــــة التي بناهـــا (نمرود) يبدو عليهـا انها تقع فى شالونيت CHALONITE (١٩) احدى مناطق بابل شرقى دجلة .

« وهذا القول يحمل المرء على الاعتقاد التام بان كالنح هى طيسفون التي كانت في الاصل عاصمة ذلك الاقليم ، ومن ثم اصبحت عاصمـة الامبراطورية

---

* تمتد تلال انقاض سلوقية من الجنوب الشرقي باتجاه شرقي نصف الشرق الى الجنوب الغربي باتجاه نصف الجنوب بحوالي ميل واحد ويكون اتجاه نهر دجلة الصاعد الى بغداد جنوبي الجنوب الغربى بحوالي خمسة اميال ويسير اتجاه الجزء الاعلى الآخر من النهر شرقا لكنه يظهر من هنا متجهاً نحو الشمال الغربى على مسافة ميل واحد من امتداد اشجار النخيل على « ديالى » شمالي الشمال الغربى مسافة سته اميال .

[سفر التكوين الاصحاح العاشر الاية العاشرة].

الفرثية كلها والمقر الشتوي لموكها »

ويضيف دي بروسيس الى ذلك قوله « انه طبقا لرأي ابى الفرج » (٢٠) فان هذه المدن التي تعرف باسم ارك ، وا كد ، وكالنح ـ التي يسميها كاليا ـ انما هى الرها ، ونصيبين والمدائن ، او اورفه ونصيبين والمدائن *

ويعالج (السر رالى) (٢١) هو الاخر موقع هـذه المدن لكنه لا يلقي المزيد من الاضواء على هذا الموضوع ÷

على ان الثقاة اكثر تحققا من موقع سلوقية التي تقع على مقربة من ذات الموضع بامتداد الضفة الغربية من نهر دجلة ، والتى شيدت بصفة رئيسـة خارج بابل القديمة .

ويعتقد ان تأسيس المدينة قد جرى في الواقع لغرض مستعجل هـو تهيئة الوقت لاعادة بناء بابل عاصمة الشرق الكبرى المخربة المهجورة بعد إن ثارت على داربوس بن هستاسب الذى دك اسوارها **

---

* مذكرات الاكاديمية الفرنسية الملكية المجلد ١٧ صفة ٣١

÷ تأريخ العالم : الكتاب الاول ١٠ ـ ٢

HISTORY OF WORLD 10-2

** «فى ذلك الوقت [كما قال سترابو في كتابه المجلد ١٦ ص ٧٣٨،٧٤٢ وبليني المجلد ٦ الفصل ٢٦ ، وبطليموس ســوتر الذي ذكر السنة ٢٩٣ ق.م في المجـلد ١٢] بنى ســيلوقس مدينــة ســلوقية على دجلة وكانت تبعد حوالي اربعين ميلا عن بابل . وقد بنيت هذه المدينة على الجانب الغربي من النهر فوق المكان الذي يقابل المكان الذى تقوم فيـه بغداد الآن على الجانب الشرقي من =

ويقول المسيو دانفيل في مذكراته عن الفرات ودجلة ان الغرض الاول من تأسيس سيلوقية (سيلوسيدا) هو ان تنافس بابل ، وان تكون مدينة اغريقية خالصة بلى مدينة مقدونية MACODONUM MORIS حسب تعبير بليني ، وان تكون لها ميزة الدولة الحرة SUI JURIS

= النهر . وسرعان ما تعاظمت سلوقية لتصبح مدينة كبرى . وذلك لأن بليني يخبرنا بان عدد سكانها كان ستمائة الف شخص . ولم يكن في لندن اكثر من مائة الف نسمة والتى تعد الآن ـ اذا ما تجاوزنا الرقم المعطى لسكان نانكين في الصين ـ اكبر مدينة في العالم بلا جدال .

فبسبب انهيار ضفاف نهر الفرات المتواصل اصبح الريف القريب من بابل مغموراً بالماء ، وصار فرع ذلك النهر الذى يمر وسط المدينة ضحلا ، ولم يعد صالحاً للملاحة ، وهـذا هو الذي جعل وضع بابل غير ملائم جداً ، ذلك لانه ما ان شيدت المدينة الجديدة حتى خلت بابل سريعاً من كل سكانها ولما كانت سيلوقية تقع في مكان اكثر ملاءمة ، ولأن مؤسسها قد جعلها عاصمة لكل اقاليم امبراطوريته التى تقع فيما وراء نهر الفرات ، ومكاناً لاقامته حينما يكون موجوداً في هذه الانحاء بذات الوضع الذى كانت عليه انطاكية بالنسبة للاقاليم الاخرى التي كانت تقع على هذا الجانب من الفرات ، وبالنظر لهذه الفوائد فقد غادر البابليون مدينتهم القديمة باعداد هائلة والتجأوا الى سلوقية .

وما عدا ذلك سمى سلوقس هذه المدينة باسمه ، وهو الذى وضع تصميمها لتظل اثرا خالدا هناك بعد عصور ، ومنحها امتيازات كثيرة على بقية مدن الشرق الاخرى

ويذكر نفس المؤرخ ان عدد سكانها كان كبيرا ، وانه لا شك في ان وقوعها في اعظم بقعة خصبة من الشرق ـ كما يقول (بليني) ذلك ـ قد ساهم كثيرا في رخائها، فقد استطاعت ان تحافظ على اهميتها مدة خمسمائة سنة بعد الانتهاء من بنائها بل عاشت حتى عهد ذلك المؤلف ذاته * .

= وفقد حاول ان يجعلها تحقق هذا الغرض ، ودعا البابليين الى الانتقال اليها . وبهذه الوسائل ، وبعد فترة قصيرة من بناء سيلوقية ، غدت بابل خالية من السكان تماما ولم يبق فيهـا سوى جدرانها ولهذا يقول بليني عنها (المجلد ٦ الفصل ٢٦ من كتابه) انها قد خلت من سكانها وتحولت الى قفر بفعل جارتها سلوقية التي كانت تقع على نهر دجـلة وهذا هو الغرض الذي قصده سيلوقس من بناء مدينته هناك

وذكر سترابو في الجزء السادس عشر الصفحة ٧٣٧ من كـتابه ، ذات الشيء وضارعه في هذا ايضـا (بوسنياس) في كتابه (القناطر ARCADIES] فقال « ان بابل الـتى كانت في وقت من الاوقات اعظم مدينة طلعت الشمس عليها ، لم تكن في زمانه ، اى حوالى منتصف القرن الثاني للميلاد (لانه عاش في عصر اوريان وانطونيوبيوس ـ انظر فوسيوس (٢٢) في كتابه تأريخ الاغريق (ج) الفصل ١٥ ـ) شيئا مذكوراً اذلم يبق منها سوى اسوارها (الدكتور بريدو : العلاقة بين العهد القديم والجديد . ص ٨٠٨ ـ ٨٠٩)

* شـيدت سلوقية على يد سلوقس نيكاتور على بعد اربعين ميلامن بابل وفي نقطة يلتقي فيها نهر الفرات بدجلة بواسطة احدي القنوات

وكان موقع المدينة على الجانب الغربي من دجلة ، وفي موضـــع اكثر قدما يدعى (كوكسى) او (كوشى) (٢٣) عند مصب قناة تمتد من الفرات الى دجلة حسبما يذكر ذلك بليني في مكان اخر من كتابه

وقد اشتهرت هذه القناة باسم نهر الملك ولقد حددنا موقع هذه المدينة على وجـــه الدقـــة . ذلك لان مصب نهر الملك في دجـــلة يقـــع فوق تلك المدينـــة . فالطريق التـالى الذي يقود الى اقاليم الامبراطوريـة الفرثية ـ بالشكل الذى رسمه ايزودور الخاركسى (٢٤) في كتابه الدولة الفرثية STATHMIS PHARTHICISE - لا بدوان يعبر تلك القناة قبل الدخول الى سيلوقية *

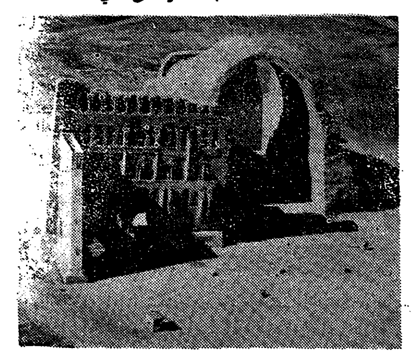
وبعد ان يمحض بليني المسافة التي حددها المؤرخون القدامى بـين بابل وسيلوقية ، والمواقع التي ذكرت بشكل قريب من بقاياهـــا الحقيقية ، يواصل سرد

وكان في المدينة ستمائة الف من السكان في وقت ما . وقد انتقلت اليها تجارة بابل وثروتها وكان الاقليم الذى شيدت فيه يدعى اقليم بابل لكنها نفسها كـانت تمثل دولة حرة . وكان السـكان فيها يطيعون القوانين والاساليب المقدونية وقيل ان صفة اسـوارها كانت مشيدة في شكل نسر نا شر جناحيه ، وكـانت التربة التي حولهـا من اخصب البقاع في الشرق (بليني : التأريـــخ الطبيعى الكتاب السادس الفصل ٢٦

(PLINY- NATURAL HISTORY VOL 6 CH 26

* (دنفيل : عن دجلة والفرات ص ١١٧ وما بعدها طبعة باريس ١٧٧٥م
D'ANVILLE - SUR TIGRE ET EUPHRAT P 177 PARIS 1775

حكايته فيقول ان طيسفون كانت ثانية مدينة سببا في التعجيل بالقضاء على بابل*
وهاتان المدينتان كانت تقعان احداهما قبالة الاخرى على ضفتي دجلة .



طاق كسرى في طيسفون (سلمان باك)

* لكي يصنع الفرثيون بمدينة سيلوقية مثلما فعل اليونانيون الذين اشادوها بمدينة بابل ، عمد الفرثيون الى بناء مدينة «طيسفون» على بعد ثلاثة اميال من سلوقية وفي بقعة تدعى « كالونيتس » وذلك لكي يبعدوا السكان عن سلوقية ، ويتركوها قفرا ، ولو انها لاتزال حتى الآن تعد المدينة الرئيسية في المملكة »
(بليني : التأريخ الطبيعي . الجزء السادس الفصل السادس والعشرون)

والنفوذ الذى ظلت سلوقية تحتفظ به عدة قرون بعد انشاء الدولة الفرثية كان من الاسباب التى دعت المتأخرين من الفرثيين الى تحطيم تلك المدينة التي حطمت كبرياءهم بذات الاحساس الذى اصاب سيلوقية ذاتها عندما راحت تتطلع الى التقليل من اهمية بابل *

* يقول الدكتور بريدو (٢٥) « انه ينبغي الاعتراف بان الاشارة التي وردت عن بابل توضح بانها ظلت قائمة بعد زمن طويل حيث توقفت هجرة السكان عنها كما ذكر ذلك « لوقيانوس » في كتابه (الجزء الاول الفصل العاشر) وكذلك «فيلوستراتس» (٢٦) » (الكتاب الاول، الفصول ١٧، ١٨، ١٩) وغيرهما

لكننا نجد في كل مؤلفات هؤلاء المؤرخين وفي اي مكان، ان الحديث عن بابل يرد على اساس انها المدينة التي ظلت قائمة بعد وفاة سيلوقس نيكاتور، ومن هذا يجب ان يفهم ان المقصود به ليس بابل القديمة التي تقع على نهر الفرات، بل سيلوقية التي تقع على نهر دجلة.

والواقع ان «بلوتارك» عند سرده حياة «كراسوس» (٢٧) يتحدث عن بابل وسيلوقية باعتبارهما مدينتين متمايزتين كانتا قائمتين آنذاك. فبلوتارك في ملاحظته السياسية يعتقد ان اعظم خطأ ارتكبه كراسوس في حملته الاولى على بلاد ما بين النهرين انه لم يتجه نحو بابل وسلوقية رأسا ويحتلهما ويذكر «ابيان» ذات الشيء في كتابه عن الفرثيين على ان بلوتارك كان مخطئا لان ماذكره عن المدينتين اللتين كانتا قائمتين آنذاك ليس سوى اسمين اطلقا فيما بعد على مكان واحد بالذات هو سيلوقية وحدها اما بالنسبة الى بابل القديمة فيظهر من المؤرخين =

والطريقة التى اوضح بها بلينى تتفق مع هذا تماما . فهو يقول (وهذا امر يصعب فيه على المرء ان يفترض بان الفرثيين قد شيدوا قاعدتهم فى طيسفون قبل سقوط سيلوقية) (دانفيل : عن دجلة والفرات الصفحة ١٢٠)

وكانت حملة(تراجان) التي خرجت من روما سنة ١١٢ ميلادية واجتازت انطاكية سنة ١١٤ م بعد ان اخضعت كلا من اذيسا ، و اوسرون (٣٣) وبطناس (٣٤) و نصيبين وسنجار ، وعبرت نهر دجلة على جسر اقيم تحت اشـــرافه هو فاستولى بها على (اديابا) (٣٥) وغوغاميلا او اربيل ، وحاصر بهـــا طيسفون وسلوقية .

وقد قيل ان كسرى كان آنذاك منشغلا باخماد الثورة التى قامت في اقاليمه الشرقية ، ولذلك سرعان ما استسلمت هذه المدن لتراجان بجميـــع الارياف المجاورة لها .

الذين اشرت اليهم انها كانت قد اقفرت بزمن طويل قبل عهد كراسوس على ان «ابيان» لم يفعل اكثر من ترديد رأي بلوتارك اذ كان يتعقبه كلمة بكلمة في هذا الشأن

ولما كانت سلوقية قد ظفرت بالشهرة والعظمة مثل بابل ، فقد كانت في البداية تدعى سيلوقية البابلية ، او سيلوقية اقليم بابل ، لتمييزها عن المدن التي كانت تحمل اسم سلوقية وتقع في اماكن اخرى .

وفضلا عن ذلك فقد كانت سلوقية تقع في منطقة بابل(بليني:الكتاب الاول الفصل السادس والعشرون) وعلى امتداد بابـــل (ستيفانوس بيزانطينوس)(٢٨)ذلك ان «لوكان» (٢٩) فيالكتاب الاول من مؤلفه (فارساليا PHERSALIA)لايقصدبكلمة «بابل» سوى سيلوقية ،او =

وما لبث الامبراطور الروماني بعد ذلك ان هبط جزيرة «مسين»[٣٦] التي كانت تقع بين فرعين لدجلة والفرات ، حيث امضى هناك شتائي ١١٦ و ١١٧ م وعاد ثانية بعد ذلك الى طيسفون ليخمد ثورة الاقاليم التى استولى عليهامؤخرا.

بابل الجديدة وهذا امر واضح . ذلك لانه يتحدث عنها باعتبارها عاصمة للمملكة الفرثية ، اذ حطمت تماثيل كراسوس ونصبه بعد ان اندحر الرومان في كاريه (٣٠) ، مما يفهم منه بان المقصود بذلك هو سيلوقية او بابل الجديدة حسب وليست بابل القديمة .

فبابل الجديدة ، وليست بابل القديمة . هي التي كانت قاعدة الملوك الفرثيين

وعندما ذكر بابل هذه في مكان اخر من مولفه (الكتاب السادس ، الفصل الخمسون) وصفها بان نهر دجلة كان يحيط بها بذات الطريقة التي كان نهر اورنتس (٣١) يحيط بها مدينة انطاكية . فسيلوقية او بابل الجديدة ،وليست بابل القديمة ، هي التي كانت تقع على نهر دجلة

اما المؤرخ فيلوستراتس فهو يذكر قدوم « ابولونيوس » (وهو شبيه بدون كيشوت) (٣٢) الى مقام ملك الفرثيين في سلوقية آنذاك ، والتي سميت باسم بابل فيمابعد .

فهذا الاسم هو الذى اوقعه في الخطأ الكبير بالنظر الى خطئه في بابل القديمة ولذلك نراه عندما يصفها في مؤلفه (الكتاب الاول ، الفصل الثامن عشر) يكرر ذات الوصف الذي اطلقه عليها كل من هيرودوت ، وديودورس ، وكورتيوس وسترابو . وغيرهم من المؤرخين (بريدو العلاقة بين العهد القديم والعهد الجديد ص ٨١١ ـ ٨١٣)

و كان ختام حملته تلك بالحروب الناجحة التي خاضها ضد العرب ، وعودته الى ايطاليا ، ووفاته من مرض اصابه بعد غارة حربية قام بها في نهايـة تلك السنة وذلك امر معروف تماما .

ولم يكن هناك شيء اكثر دقة من المواقع الصحيحة والنسبية ، مـن تحديد موقع طيسفون وسلوقية ، وكذلك تحديد التواءات نهر دجلة فيما بينهما، والذي صور في خريطة الميجر رنل عن المناطق المحيطة ببابل التي نشرت ملحقة بمذكراته عـن اطلال بابل في كتابه « مصورات جغرافية هيرودوتس » .

ويقول دانفيل «لم يعد هناك ادنى شك بالنسبة الى طيسفون وسلوقية اللتين دمرتا تدميرا تاما تقريبا ولو انهما وحدتا في فترة ماتحت اسم «المدائن» الذي اخذ حسب القاعدة النحوية من اسم «المدينة» الكلمة التي تعني ببساطة «مدينة» ما في اللغة العربية»*

وعن اشتمال المدائن على المدينتين وبناؤها على انقاضهما ، نجد هذه الملاحظة في « تأريخ الساسانيين » الذي ترجمه المستر سلفستر دي ساسي عن المؤرخ الفارسي مرخوند (١) .

« بعد الحروب التي خاضها شابور ضد العرب واليونانيين مشتركا تحت قيادة قسطنطين ، واستعادته نصيبين التي وضع فيها مستعمرة من اثنى عشر الف فارسي قيل انه عاد الى بلاده حيث وصل سالما الى العراق ووضع اسس مدينة المدائن التي كمل بناؤها في مدة سنة واحدة

وقد اقـام هذا الامير ايوانه هنا، وجمع من حوله كل اشراف فارس ،

* دانفيل : عن الفرات ودجلة ص ١١٩

و بعد ان تربع على العرش اثنتين وسبعين سنة انتهت ايامه هنا »* .

و بعد وفاة يزدجرد الملك الثالث بعد شابور ، اختير احد المتحدرين من اردشير ليخلفه في الحكم وقد سمى هذا باسم خسرو وهو الاسم الذي يكتبه العرب كسرى حيث جيء به الى المدائن وتم تتويجه فيها** . وفي عهد هذا الكسرى ، او انوشروان العادل كما يدعونه احيانا ثار (مزدك)[٣٧] رئيس احدى الطوائف الذي كان يدعو الى المشاركة في النساء وجعل زواج الاقارب من الفضائل التي ينبغي تشجيعها . وكان من اول اعمال هذا الملك ان يحطم زعيم تلك الطائفة وكل اتباعه .

وهذه الحقيقة والشهرة العامة للاعمال التي قام بها اثناء حياته جعلتا احد شعراء الشرق ما ان يرى قصره الذي لم يكن قد خرب بعد حتى يهتف «انظروا الى ثواب عمل مستقيم فحتى الدهر لم يعد قادرا على تدمير قصر كسرى » ***

وقد امتدت شهرة انوشروان ذاته ، طبقا لما اورده المؤرخ الفارسي ، الى درجة ان ملوك الشرق كانوا يقدمون له التبجيل . وكان من بين الهدايا العديدة التي ارسلت اليه من البلاد البعيدة بعض القصص الخيالية متمثلة في طراز شرقي حقيقي من قصور ذهبية معبدة باللالىء ، وحريم يضم الف فتاة عذراء كلهن من بنات الملوك ، وبعض الهدايا البالغة الجمال مما كان يزين فراش ملك الصين ومنها قلاع من الذهب ابوابها من احجار ثمينة وفتيات جميلات تتدلى اهدابهن الحريرية الطويلة على خدودهن ، مما خصص لاستمتاع ملوك الهند .

* سلفستر دي ساسي ص ٦ ٣
** نفس المصدر ص ٣٢٩
*** ذات المصدر ص ٣٦٠

وقد تكون خاتمة هذا العرض الدال على المباهاة اكثر صحة حيث قيل انه تم اثناء حكم انوشروان جلب كتاب عنوانه (كليلة ودمنة)[٣٨] من الهند الى فارس وكذلك لعبة الشطرنج، ونوع من صبغ اسود يدعى هندي كانت تصبغ به الشعور البيضاء وتحويلها الى لون اسود حتى جذورها وان هذا الصبغ يبلغ من الكمال الى درجة انه يستحيل تمييزه عن اللون الاصلي

ذلك ان خسرو. الذي يعزى اليه بناء قصر المدائن هذا، كان ولاشك صاحب ثروة عظمى ويبدو ان الاتصال التجاري مع الهند في الشرق . واوربا في الغرب والذي اختير في سبيله الموقع الوسط لعاصمة ملكه بشكل يدعو الى الاعجاب قد ساهم مساهمة قوية في زيادة ثرواته كجزية معتادة لامبراطوريته.

وبعدد «جيبون» الثروات التي ضمها قصر « داستاغرد »، ذلك المأوى المفضل للعاهل الفارسي حيث نعرف مما ذكره « سدرنوس » [٣٩] * ان هرقل [٤٠] عندما اجتاح هذا القصر الامبراطوري وجد فيه الند ،وعود الند، والحرير، والخيوط، والفلفل والموسلين او البسة الموسيلين بلا عدد، وكذلك السكر والزنجبيل واثواب منسوجة من الحرير، وسجاد مطرز، وسبائك خيوط من الذهب والفضة

وقد اعتبرت المواد المصنوعة هي الاخرى من بين اسلاب طيسفون او المدائن ** عندما استولى (سعد) قائد عمر (٤١) على هذا الموقع

وقد اقتبس هذان الحادثان لاظهار انه في الوقت الذي بدأت فيه الدولة

---

* ابو الفداء طبعة رويسكه ص ٧٠

** ذات المصدر ص ٤١٨

الرومانية بالانحطاط كانت السلالة الفارسية المتنامية تتاجر مع الهند عن طريق هذه البلاد التي كانت في ايدى الفرس تماما **

* * *

كان الوقت مساء حين عدنا الى اما كننا في فناء ضريح سلمان بالك فتناولنا طعام العشاء الذى جئنا بمواده من بغداد ، وقد شاركنا فيه شيخ الضريح او المقيم عليه ، اذ ان استمرار صوم رمضان جعل وجبة المساء فطورا استقبلها الجميع بالترحاب .

وفي حديث مع الناس هنا اجريت تحريات عن مكان يدعى ساباط المدائن (٤٢) ذكره (المسيودي سلفستر ساسى) وقال عنه انه يقع على مقربة من مدائن كسرى وانه يعتقد ان هذا الاسم محرف عن كلمة (بلا شاآباد) او موطن بلاش) * (٤٣)

كان عنف العاصفة التى هبت اثناء النهار قد زال الان ولذلك رقدنا بارتياح في الهواء الطلق ونعمنا بالنظر الى سماء اكثر صفاء من المعتاد حتى في مثل هذا الجو وان كانت العاصفة قد زادت من لقائه دون شك .

الحادي والعشرون من اب : هذا القطار العظيم من الكواكب التي تتبع

** تذكرة الدكتور فنسنت عن البحر الاحمر ، المجلد الثاني الجزيرة العربية ص ٣٢٢

* مذكرات المسيو سلفستردى ساسى ص ٣٥١
MEMOIBES ET HISTOIRES DE SAMMIDES PAR M SILVESTRE DE SACY P 351

الثريا سبق له ان تألق عاليا فوق الافق الشرقى حين بدأنا نستعد لمبارحة المكان وقد بدأ القمر يتعالى عندما تركنا بوابة طيسفون في طريق عودتنا الى بغداد واذ اسرعنا بالسير في الصباح البارد بلغنا نهر ديالى عند شروق الشمس تماما ولقد استفدت من فرصة طلوع الشمس في سهل مستو كأنه البحر كيما اقيس مداها بالحك فوجدتها عند الشروق تكون شرقى منتصف الشمال او شمالا بدرجة ٤٨ : ٢٣ شرقا الامر الذى يحدث تغيرا الى ناحية الغرب مقداره ٨ : ٤٤ درجة *

توقفنا عند الضفة الجنوبية لنهر ديالى زهاء الساعة وذلك بسبب عبور دواب محملة بالاشواك والاحطاب متجهة الى بغداد قبل ان نستطيع الحصول على مكان لنا فى القارب .

وانضممنا هنا الى فريق مؤلف من خمسة عشر من الاعراب الذين كانوا يجمعون مزيجا من الصفات الفارسية في ملابسهم ومظاهرهم

واعانتنا الساعة الاولى من طلوع النهار على رؤية منائر بغداد وقصر كسرى في طيسفون فاحتسبنا ابعادها من معبر نهر ديالى **

وبعد ان عبرنا النهر زدنا من سرعة سيرنا فدخلنا ابواب بغداد فى حوالى

* يكون المدي الحقيقى لخط العرض : ٣٣ ١٢ شمالا)	١٤	٢١
ويكـــون ميلان الشمـس : ١٢ ٤ شمالا)		
تتمة مـــدى الشمس المنظـــور :	٥	٣٧
التغيير المغناطيسي نحو الغـــرب :	٨	٤٤

** تبعد بغداد الى الشمال الغربي ٣-٤ الشمال بمقدار تسعة اميال ويبعد طاق كسرى جنوبا بالشمال مقدار سبعة اميال

الساعه السابعة اي اننا لم ننفق اكثر من ساعتين في السير من طيسفون الى هناوقد بدت المسافة بالنظر لاحتساب الوقت ومعدل السير في الرواح والغدو ، بمقدار ستة عشر ميلاوهذا يتفق مع المكان الذي حدده الجغرافي العربي (السيدالادريسي) لموقع المدائن التي يضعها على مسافة خمسة عشر ميلا جنوبي بغداد

ويبدو ان مصب نهر ديالى ، او نقطة التقائه بنهر دجلة هي اقرب الى بغداد منها الى طيسفون ، وذلك بالنظر الى ابعاد المرئيات المنظورة من معبر ذلك النهر ٠

وصلنا المقيمية البريطانيـة في وقت انضممنا فيه الى المسـتر ريج وعائلته لتناول طعام الفطور ، ولقينا ذات الصنف من الاستقبال والاهتمام المتزايد باخبار السفرة التي اوضحناها قبلا .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الرابع عشر

(١) دير وستمنستر من اشهر المباني القوطية في انكلترا بدىء بانشائه في اواخر القرن الثالث عشر محل كنائس قديمة تعود الى القرن السابع الميلادى واقيم في دير وستمنستر برجان في اوائل القرن الثامن عشر توج فيه كل ملوك انكلترا

(٢) ارثوسيا ARTHOSIA احدى القلاع التي انشأها الرومان في سوريا تقع على نهر العاصي وتعرف اليوم باسم (الرستن) وهو تحريف عن الاسم الاصلي

(٣) الواضح وجود خلط كبير بين نهر جنديس ونهر مندلي وسبب ذلك وجود تشابه في اسمي هذين النهرين . فنهر (جنديس) هو نهر ديالى اما نهر مندلي فيعرف باسم (كنكير) او (جنجير) والذي نعتقده ان النهر الذي وزعه كورش ـ كما تذكر الاساطير ذلك ـ هو نهـــر ديالى

وليس نهر مندلى لان ديالى اعمق واشـــد جريا وتيارا من نهر مندلى بشكل واسع ، وتقول الاساطير ان كورش حفر مائة وثمانين قناة على الجهة اليمنى من النهر

(٤) ستياس STIAS كثيرا ماخيل لبعض المؤرخين ان هذه المدينة كانت تقع عند اوفيس (التى قيل ان موقعها كان في محل التقاء نهر ديالى بدجلة) غير ان التحريات التى اجراها بعض الباحثين قد اكدت ان ستياس كانت تقع جنوبى نهر ديالى كثيرا وعلى الضفة الشرقية من دجلة وان موقعها هو بالقرب من مدينـة العزيـزية الحالية ان لم يكن هو ذاته

(٥) تكسيرا TEXIRA هو الرحالةالبرتغالى بدرو تكسيرا الذى جاء الى العراق في اوائل القرن السابع عشر وقد عرف كتابه باسم (رحلات بدرو تكسيرا)

(٦) يقصد بهذا الاسم دوركوريكاليزو وهو الاسم القديم لعقرقوف

(٧-٩) اركد تحريف لكلمة اكد وهي المدينة التي قامت فيها المملكة الاكدية التى تولت الحكم فيجنوبى العراق بعد انقراض الحـــكم السومرى .

وكل ما ذكر هنا عن موقع اكد ونهر ارغاد ومدينة ستياس وسوسه خطأ فاحش وخلط معيب لان (ارغاد) حسبما نعتقد هو نهر ارختو الذى كانت تقع عليه بابل وربما كان اسم اكد هو ذات الاسم الذي اطلق على نهر ارختو اما سوسه فنعتقد انها تحريف لكلمة (جوخى)

وهي مدينة كانت على مقربة من مدينة سلوقية القديمة وكثيراً ما يسميها الرحالة الاجانب باسم كوكسا وسوسه وكوشي وكوخي وتعرف اطلالها الان باسم مامى او امه وهي ليست سوسه عاصمة العيلامين

(١٠) ان هذا الشجر الذي يصفه بكنغهام هنا هو شجر الشوك وان ثمره هو « الخرنوب » الذي يستحيل لونه اخر خفيفاً حين ينضج ويجف في فصل الصيف عادة

(١١) يقصد بها زبيدة زوجة الخليفة العباسي هرون الرشيد والتى ذكر انها قد دفنت في مقابر قريش اى المكان الذى يقوم الان فيه المسجد الكاظمي وكانت مقابر قريش تحوي قبر جعفر بن ابي جعفر المنصور والامين بن الرشيد وغيرهما . اما القبر المشهور الان في بغداد باسم قبر الست زبيدة فهو قبر زمرد زوجة الخليفة المستضيء بالله وام الخليفة الناصر لدين الله وكان الرحالة « نيبور » اول من اطلق عليه اسم زبيدة .

(١٢) قد يكون اسم هذا القصر محرفاً عن «شوشة» اسم العاصمة الاصلية للفرس

(١٣) الفرثيون ويسمون البارثيون ايضا هم سلالة من الفرس حكمت ايران مدة طويلة بهذا الاسم نسبة الى (فرثيا) اي خراسان الحالية وهم الذين شيدوا المدائن «طيفسون» وقد دام حكمهم ٤٧٣ سنة اي من ٢٤٧ ق م الى ٢٢٦ م وقد خلفهم الساسانيون في الحكم .

(١٤) لورستان احد اقاليم ايران الممتدة على حدود العراق يتصل بالاحواز وتقع فيه جبال لورستان وكان معظم سكنه قبلا من العرب اما الآن فاكثرية سكانه من الاكراد الفرس المعروفين باللر او الفيلية

(١٥) ابيانوس APPIANUS مؤرخ يوناني دون سيرة الاسكندر في العراق وقيام المملكة السلوقية فيه في كتابه المعنون (سرياكيس SYRIACIS) وقد فصل في كتابه هذا ما كان يتمتع به اليهود في سلوقية من امتيازات على عهد سلوقس الاول .

(١٦) افاميا APAMIA من المدن التى اسسها سلوقس الاول فى سوريا تقع في وادي نهر العاصي دمرتها الزلازل سنة ١١٥٢ م تعرف الان باسم قلعة المضيق ، وذكرت مدينة في العراق بهذا الاسم ايضا .

(١٧) بطليموس PTOLMY هـو بطليمرس الاول قائد الاسكندر الكبير الذي عين والياً على مصر بعد وفاة لاسكندر سنة ٣٢٣ ق م اسس اسرة البطالسة التى حكمت من ٣٢٣ الى ٣٠ ق م عمل على تفكيك الامبراطورية المقدونية وفتح مصر للاجانب اتخذ لقب ملك وانشأ مدينة باسمه في الوجه القبلي .جعل عبادة الاسكندر ديناً في مصر توفي سنة ٢٨٥ ق . م .

(١٨) كالنح من المدن الاشورية الهامة وهي تقع جنوبي الموصل وتعرف باسم نمرود وقد اخطأ المؤلف اذ ذكر موقعها في طيسفون والمعتقد انه قصد بذلك « كالنه » وهى مدينة كيلان .

(١٩) شالونيت هي مدينة كيلان التي تقع فوق خانقين وهي الان داخل الاراضي الايرانية

(٢٠) ابو الفرج غريغوريوس الذي اشتهر باسم « ابن العبري » ١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م مؤرخ سرياني كان ابوه يهودياً ثم تنصر واصبح رئيس اليعاقبة في فارس الف بالعبرية كتاباً مفصلا في التأريخ ثم وضع بالعربية جزء موجزاً له سماه « مختصر تأريخ الدول » نقل الى السريانية عددا من مؤلفات ابن سينا .

(٢١) السررالي SIR RALI مورخ انكليزي صاحب كتاب «تأريخ العالم»

(٢٢) فوسيوس VESSIUS مؤلف كتاب (تأريخ الاغريق) HISTOIRE DE GRECIS

(٢٣) كوكسي COXY او كوشي COCHY هي نفس مدينة (جوخي) التي مرت الاشارة عنها والتي قيل انها كانت تقع بين سلوقية وطيسفون وان هذه المدن الثلاث كانت تعتبر مدينة واحدة .

(٢٤) ايزودور الخاركسي (الكرخي) IZODOR DE CHARAC نسبة الى مدينة خاركس على فم الخليج العربي مؤرخ يوناني عاش في القرن الاول للميلاد ومع انه لم يكن من كبار الجغرافيين اليونانيين الا انه اشتهر بكتابه عن ايران وعن حكم الفرثيين فيها . ويسميه البعض ايزدور الكرخي على اساس ان خاركس كانت تقع على نهر كرخه

الحالي الذى يتفرع من نهر كـارون في الاحواز وفي موقع (المحمرة) الحالى

(٢٥) هو الدكتور همفري بريدو H · PRIDAUX (١٦٤٨ - ١٧٢٤) مؤلف كتاب محمد (ص) و (العلاقة بـــين التوراة القديمة والجديدة)

(٢٦) فيلوستراتس Philostratus مورخ يوناني معروف

(٢٧) كراسوس Crasus احد القناصل الثلاثة الذين كانوا يحكمون

روما وقد قتل في معركة حران (كاريه) التي وقعت بين الفرس والرومان الذين كان يقودهم «مارك انطونيو» صاحب كليوبطره الشهير وكان كراسوس قائدا في ذلك الجيش

(٢٨) ستيفانوس بيزانطينوس S . Byzanaius

(٢٩) لوكان Lucan ويسمى لوكانوس (٢٩ ٦٥ م) شـاعر روماني نظم ملحمته «فارساليا» في وصف الحرب الاهلية بين قيصر وبومبي

(٣٠) كاريه Carrhae هو الاسم الروماني لمدينة الرها القديمة والتي عرفت باسم حران لدى العرب ولا يزال عدد الكتاب والمورخين يخلط بينها وبين الرقة .

(٣١) نهر اورنتس Orontes هو نهر العاصي المعروف في سوريا ويخلط البعض بينه وبين نهر الاردن خطأ

(٣٢) دون كيشوت (كيخوتـه) Don Quixote بطل قصة الكاتب الاسباني الخالد ميجويل سرفنتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) التي سماها . مغامرات دون كيشوت . وتقع في جزئين كبيرين وقد انتقد فيها تقاليد الفروسية التى شاعت في اوربا في ذلك العصر

ولم تترجم قصة دون كيشوت الى العربيـــة كاملة الا موخرا وقام بهذه الترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي

(٣٣) اوسيرون Osrhoene يقصد بها مملكة اوسيرون وهو الاسم الذي اطلقه اليونان والرومان على مملكة الرها التى اقام فيها ملوك الاباجرة مملكتهم في الفترة ٩٩ ـ ٢١٧ م .

(٣٤) بطناس هو الاقليم الممتد بين نصيبين وارزون بامتداد نهر (بطمان) احد فروع نهر دجلة ويقع الاقليم الان داخل الاراضي التركية

(٣٥) ادياب واديابـين هي منطقة (حدياب) التى تشمل الاراضى الواقعة بين دجلة والزاب الصغير بما في ذلك اشور واقليم نصيبين ويقال ان كلمة (ادياب) محرفة عن الكلمة الكردية (دوزاب) اي الزابان

(٣٦) يخيل الينا ان جزيرة (ميسين) هذه ليست جزيرة بالمعنى المعروف من الكلمة وانما يقصد بها الارض المحصورة بين نهرين وان كانا متباعدين احدهما عن الاخر . وعلى هذا فان تقديرنا لموقع (ميسين) هذا هو الارض التى كانت محصورة بين دجلة ومصب نهر الملك فيه الذي كانت سلوقية تقع قريبا من مصبه اذ اعتبر المؤرخـون القدامى نهر

الفرات لانه كان يتفرع منـه فعـلا وربما كـانت استدارة دجلة في مجراه القديم عندمنطقة طيـفون (قبل ميلاد المسيح) تؤلف جزيرة حملت هذا الاسم

(٣٧) مرخوند MIRKHOND ويسمى مرخاند ايضـــا (١٤٣٣ ـ ١٤٩٨) مؤرخ فارسى اشتهر بكتابه التاريخي الذي سماه (روضة الصفاء) وهو تاريخ عام يبدأ فيه الحديث بظهور الخليقة على وجه الارض وينتهي بوفاة حسن سلطان هراة

(٣٨) مزدك مؤسس المذهب المزدكي الذى ينسب اليه ظهر في ايران في عهد قباذبن كسرى ابرويز وكان مذهبه يدعو الى الاباحية المطلقة

(٣٩) ذكرها الرحالة باسم دنة DINNAH خطأ

(٤٠) سدرنوس CYDRNUS من مورخي الرومانالقدامى

(٤١) هرقل HERCLIUS هـــو امبراطور بيزنطية الذي تولى الحكم سنة ٦١٥م وفي عهده هاجم العرب المسلمون الشام وفلسطين وانتزعوها من ايدى البيزنطيين .

(٤٢) هو القائد العربـى الكبير سعد بن ابي وقاص (رض) الذي انفذه الخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لفتح العراق فاستطاع ان يستولى على المدائن(طيسفون)او يحطـم حكـم الفرس المجوس في العراق ويعيده عربيا خالصا كما كان امره قبل ظهور الاسلام

(٤٣) المقصود بهذا « ساباط كسـرى » وهـــو الاسم الذى اطلقه

العرب على ايوان كسرى ايام الفتح (انظر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان المجلد الثالث الصفحة الثالثة طبعة وستنفيلد) - ولكن ساباط موقع اخر قريب من المدائن وكان يقع على مقربة من نهر الملك

(٤٤) بلاش اباد سماها ياقوت الحموي في معجم البلدان باسم بالاس اباد نسبة الى شخص من الفرس يدعى (بالاس) او بلاش وذكـــر بعض المؤرخين ان بلاش هذا هو الذي بنى ساباط كسرى



الفصل الخامس عشر

فترة مكوث اخرى فى بغداد

برهنت لي رحلة الاستطلاع القصيرة التى قمت بها ، والتى كانت طفيفة ايضا ، بان قوتى لم تسترجع بعد تماما . على انني كنت نافذ الصبر لان اتابع بقية طريقى ، وان اشرع بتهيئة كل ما هوضروري من الاستعدادات والاسئلة .

وافق اليوم الثالث والعشرين من اب حلول عيد الفطر التركى وذلك باطلاق المدافع والالعاب النارية من كل انحاء المدينة ولو انه كان من المستحيل اطلاقاً على اي فرد رؤية الهلال الجديد الذى تعد رؤيته فاتحة ضرورية لابتداء هذا العيد ، والذى بدونه لا يمكن ان ينتهي صوم رمضان فى الواقع

على ان شاهدين حضرا مقر العدل امام القاضى ، وشهدا بانهما قد رأيا الهلال الجديد ، وكان هذا كافيا لابداء المؤمنين من صومهم في اليوم التالي حيث يكون مغيب الشمس برهانا وافيا على انهاء الصيام عند المساء . على ان الكثيرين من المسلمين المدققين يطلبون ان يشاهدوا القمر الجديد باعينهم هم انفسهم قبل ان

يتحسسوا بانهم محقون في انهاء صيامهم لكن هؤلاء اشبه بالمتزمتين فى العدل في معظم البلدان وهم اقلية بصفة عامة

وفي صباح اليوم الرابع والعشرين من آب سار الباشا يحيط به كل ضباطه فى استعراض عام قاطعا بعض الطريق تحت الشرفات ، وقد لحقت به حاشية كبيرة من حرقة الخيالة والمشاة والموسيقى وحشد من الاتباع الى المسجد . وكان هذا الموكب مشابها تقريبا جدا لما وصفه بنيامين التطيلي (الذي اقتبس في صفحة سابقة) حين وصف مسيرة الخليفة العلنية الى المسجد في عيد الفطر قبل حوالى سبعمائة سنة تقريبا حيث لم يحدث سوى تغيير طفيف فى اخلاق الناس خلال قرون كثيرة .

كان اليوم الخامس والعشرون من آب هو عيد القديس لويس وفي هذه المناسبة قام كل من المستر ريج والدكتور هاينه بابداء زيارة التبجيل المعتادة للباشا عند عودته من عيدالفطر التركي ، حيث ذهب الى القصر في ساعة مبكرة من الصباح اما انا فقد صحبت السكرتير المسيو بللينو الى الكنيسة الكاثوليكية هنا حيث سيقام قداس على روح لويس السادس عشر ، وينشد نشيد (الشكران) لعودة عائلة بوربون الى العرش الفرنسي (١)

كانت الغرفة صغيرة ومزدحمة وكانت الصلاة صامتة تمت تأديتها كأي شيء لم اشهده بين مسيحيي الشرق وقد اريدبها في الواقع اثارة مختلف الاحاسيس بدلا من مشاعر العبادة .

وفي طريق عودتنا الى المقيمية سمعنا بانباء حدوث تمرد في كركوك قتل فيه ممثل الباشا فى ذلك المكان ، جنساري اغا ، وستون من اتباعه ، واستولى

المتمردون بالقوة على عدد كبير من البغال .

كانت هذه المعلومات قد بلغت الباشا حين كان المستر ريـج جالسا معه في ديوانه ، وقد تلقاها بعدم اكتراث واضح ولم يعقب عليها حتى بسؤال واحد وذلك هو اسلوب الترك في اصطناع البلادة لانهم يظنون ان من المعيب لهم ان تضطرب سكينتهم لاى حادث انساني .

ولم تكن باشالق بغداد (٢) في وقت من الاوقات غير جادة في جمع الاموال وغير محصنة ضد الفتن الداخلية او الهجمات الخارجية مثلما كان عليه اشراف حكومة الباشا الحالي . ذلك ان من النادر ان يرسل شيء ما من خزينه المدينة الى اسطنبول ولذلك كانت هذه المدينة التي تقع عند الحدود ذات قيمة ضئيلة في نظر الاتراك ، وان الباشا نفسه قد بلغ من الفقر درجة انه راح يقترض حتى المبالغ الصغيرة . ولذلك يعتقد بان الشاه (زادى) الابن الاكبر لملك ايران ، والذى يقيم في كرمنشاه ، يسيطر على اقليم واسع وان مطامحه كشاب قد تدفعه في يوم من الايام الى ان يضم بغداد الى ممتلكاته ، او ربما يجعلها عاصمة له كما يعتقد معظم الافراد الذين يقيمون هنا بانها ستسقط فريسة هينة في يديه .

شاهدنا اليوم فصا فريدا وغريبا على عقيق معتم جيء به الينا لفحصه حيث قيل بانه قد عثر عليه في سامراء * على نهر دجلة حيث وصل (جوفيان) الى هناك بعد وفاة (يوليان) (٣)والتي تقع على مسافة قليلة فوق النهر وكانت تدعي خطأ باسم بغداد القديمة .

كان على احد جوانب الفص نصب عسكرى ممثلا حسب الطراز الروماني

---

* انظر ملاحظة عن سامراء في المجلد الاول ص ٤٣١ .

في هيئة درع وترسين ، وقبعة وما سواها . وكان على الجانب المعاكس رسم جسد بشري ورأس صقر او نسر وقد امسك بيده اليمنى مجلدة او سوطاً وعلى ذراعه الايسر ترس وقد غطى جسمه بالدرع وكان تحت قدميه ، كما لو كانا يؤلفان استمرارا لهما ، افعيان متموجتان يستدير رأساهما الى الخارج نحو اليمين ونحو اليسار ثم تأتي تحت ذلك كله سلحفاة منتصبه وكان حول كل جانب حروف يونانيه حفرت بشكل غير صالح فلم تعد مفهومة لنا وكان الفص رغم غرابته الفريدة من النوع الذى لم يحسن صنعه

كان احد السفراء الايرانيين الذي وصل الى هنا مؤخرا من قبل الملك في تبريز لمعالجة بعض الشؤون مع باشا بغداد ، قد ذهب لزيارة قبر على الشهير الذي يقع جنوبي غربي الحلة ، وحيث كانت عودته متوقعة قريبا ليبدأ العودة الى حكومته فقد ظن انها فرصة ملائمة لي في ان اسافر تحت حماية ذلك السفير عبر ايران الى طهران ، ومن هناك انحدر الى بوشير . ان امثال هذه الزيارات التي يقوم بها الفرس تعرضهم الى مخاطر كبيرة ، وانها من النادر ان لا تثير عداوة العرب الذين يسكنون على الطريق التي يمر بها الفرس ولا سيما حين تكون تلك القوافل غير محمية بما فيه الكفاية للدفاع عن النفس

ويجرى التعرض للقوافل الصغيرة وسلبها باستمرار على ايدى البدو غربى الفرات ومنذ امد ليس بالبعيد دخل الوهابيون مدينة كربلاء حيث ذبح جميع الذكور الذين امكن القبض عليهم ، ولم يسلم سوى النساء والاطفال وقد جرد مسجد الامام الحسين ، الذى يقدسه الشيعة ، من كل كنوزه .

وحين كان الفرس يذهبون من هناك الى بلاد نجد بقصد الحج الى مكة

كان لا بد لهم قبل البدء بالسفر من ان يضمنوا حماية الوهابيين او الاذن لهم بذلك . ولما كان مثل هذا الامر دائما من القضايا الشخصية فان الافــراد الحاذقين ذوي النفوذ هم الذين يستخدمون عادة لمثل هذا الغرض.

فقد حدث في السنة الماضية ان قدم طلب الى احد الرؤساء من حجــاج كانوا ينتظرون هنا ان يسمح لهم بحرية المرور فعاد اليهم الجواب على يد رسول وهابي ينبئهم بانهم قد يمانون كثيراً ان هم سافروا في ذلك القطر في امان حسب الشروط المعتادة على شرط ان يمروا خلال « الدرعية » [4] التي يقيم رئيس الوهابيين فيها .

فاما ان مثل هذا الطلب قد اعتبر تنفيذه مهيناً جداً ، او لوجود باعث آخر كان الرسول الوهابي الذي جاء بذلك الطلب قد ضرب واعيد مـن قبل الفرس الى خيمته .

وسرعان ما صمموا بعد ذلك على ان يأخذوا طريقهم قدماً في البلاد من دون ان يتلفتوا ذات اليمين وذات الشمال .

لكنهم قوبلوا بجماعة كبيرة من الوهابيين الذين كانوا قد اســاؤوا معاملة رسولهم، فقتل عدد من اولئك الفرس ، وجرح عدد اكثر ، وارغم الباقون على ان يتجهوا نحو الدرعية ، حيث تخلى البعض منهم عن الحج نتيجة يأسهم × وعادوا ثانية الى بغداد ، بينا مكث الاخرون في الدرعية ، وان تعرضوا الى الاضطهاد كل يوم ، لكي يرافقو اول قافلة تغادر من هناك الى مكة في موسم الحج القادم .

وقـد قيل ان الدرعية هذه مدينة كبيرة تقع على جبل وهي تشبه ماردين في الشكل والحجم والسكان واسلوب البناء وتقع جنوبي الطريق المباشر الذي يمتد

من هناك الى مكة . والارض المحيطة بالمدينة صحراوية بصفة عامة على الرغم من وجود بعض البقع الخصبة والكثير من اشجار النخيل ، وعدم الحاجة الى الخانات او الماء في هذا الطريق .

ويقول الدكتور فنسنت [٥] في بحثه عن تجارة شبه الجزيرة العربية » بعد ان فتح المسلمون فارس تم فتح طريق عبر شبه الجزيرة العربية كلها من مكة الى الكوفة المدينة القديمة التي ينتهي الطريق فيها ، والتي لاتزال اثارها ، مع بعض الابنية العربية القديمة جدا ، قائمة الى الآن بين مسجد علي و نهر الفرات [٦] وقد ذكر ان طول هذا الطريق يبلغ سبعمائة ميل ، وانه قد وضعت فيه علائم على مسافات وزود بعدد من الخانات ووسائل الراحة الاخرى للمسافرين .

وفي هـذا الطريق ذاته يقع الطريق الممتد من البصرة او مـن القطيف او جرعاء *

وقد تحدث ابو الفداء عن طريق يمتد من مكة الى بغداد، يبلغ طوله سبعمائة ميل وهو الطريق الذي انشأه الخليفة المهدي في السنة الهجرية ١٦٩

* * *

كان الامل في ان تكون فرصة السفر عبر فارس برفقة هذا السفير الفارسي ، ملائمة تماما . لكن فترة عودته مـن زيارة الامام علي لم تكن مؤكدة . فمن طريق البصرة لم يكن هناك اي امل في حصول مصادفة للسفر حتى نهاية شهر تشرين الاول حيث يتوقع وصول احدى الطرادات من بومباي . لكن كان من المؤكد الالتقاء بالسفن الهندية الاهلية ان لم تكن السفن التجارية البريطانية في بوشـير . ولذلك ازجيت النصيحة الي بالنظر الى السرعة والامن والى الحفاظ على الصحة ايضا ، بان

---

* الدكتور فنسنت عن كتاب الطوفان حول البحر الارتيري [مجلد٢ ص٣٢٧]

لا انحدر فى نهر الفرات الى البصرة وانما اتوجه الى احد الموانيء الفارسية برا لان ضفاف النهر كانت ملىء بقطاع الطرق فى كل فرسخ، ولان الجو غير ملائم من الوجهة الصحية بسبب حرارة موسم الخريف وشدة الحر فيه .

وقد بدالي ان الطريق من بغداد الى بوشير عبر ششتر كان اقرب بالنسبة الى المسافة ولذلك ينبغي لي ان افضله على غيره لانه مطروق او لا يمر في اقليم سوسايانا الهام، ويضم عاصمة ملوك الفرس القديمة التي يمكن العثور فيهاعلى انقاض مهمة، وعلى اماكن يدور الخلاف حولها. غير ان الطريق لم يكن مأمونا، وهو بدون حراسة قوية او من غير قافلة كبيرة حيث لايتوفر اي من هذه الاشياء في النقطة التي يبدأ السير بها .

ففي خلال بعثة السرجون مالكولم [٧] الى ملك فارس سار فى هذاالطريق سيدان انكليزيان هما المستر غرانت والمستر فوذرنغهام من بغداد الى اصفهان فى طريق عودتهما الى الهند، وكانت ترافقهما قوة عسكرية من مدراس (٨)

وقد قتل كلاهما في هذا الطريق على يد رئيس احدى عصابات قطاع الطرق التي يوجد عدد منها تحتل هذا الطريق الذي يمر عبر الجبال والسهول ومنذ ذلك الوقت اصبحت اعمال قطع الطرق هذه اكثر قسوة وايذاء ووحشية ولذلك فان الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحا هو طريق القوافل المعتاد الى كرمنشاه، وهمدان واصفهان واذ وجدت، بعد الاستفسار، ان قافلة ستبدا رحلتها في ذلك الطريق في الايام الاولى من الشهر القادم فقد صممت علي ان اصحبها .

زارنا في اليوم السادس والعشرين من آب درويش من اقصى الانحاء الشمالية لبكتريا القديمة . وقد وصف مدينة (بلخ) الحالية التى يعتقد بانها تقع

في ذات الموقع الذى كانت تقوم فيه مدينة بكتريا ، بانها صغيرة لكنها تضم جملة كليات ، وعددا من الرجال المتعلمين ، بالاضافة الى وجود مكتبة واسعة تحتوى على معظم الكتب الشرقية النادرة القيمة . على ان تاريخ بناء هذه المكتبة غير معروف لديه . لكنه قال ان مجموعة الكتب فيها كانت كبيرة وتامة ومنتظمة . وقد وصف سكان المدينة بانهم في معظمهم من المسلمين ، ومن الطائفة السنية . ووصف بخارى بانها واسعة مثل بغداد حسنة البناء يسكنها المسلمون وهم متحدرون من قبائل مغولية ، وتضم هي الاخرى كليات ورجالا متعلمين لكن لا توجد فيها مكتبة واسعة كتلك التي تحويها بلخ . اما سمرقند التي عرفها باسمها الاصلي فقال انها الان مدينة صغيرة لا يبلغ حجمها نصف حجم بخارى وعدد المسلمين بين سكانها اقل من عددهم بين سكان بخاري أو بلخ واللغة التركية شائعة في كل من هذه المدن لكن اللغة العربية وهي لغة الاتصال ، لا في اللسان التركى او التركماني هي التي يتحدث بها في كل هذه المدن وماجاورها من الانحاء المحيطية بها .

جيء الينا في الديوان في صباح السابع والعشرين من آب بصولجان قديم قديم يبلغ طوله زهاء قدمين وله مقبض خشبي رهيف مدبب ومدهون بالدهان الاخضر اما رأسه فكان يتألف من قطعة مرمر غير صقيل في مثل حجم بيضة الدجاج الرومي وشكله ، يدور حول محور من الحديد وينتهي برأس مسماري عند القمة .

وتأريخ هذا الصولجان غريب اكثر من السلاح ذاته لانه مشابه تقريبا حتى للصولجانات التي ما تزال تستعمل الان وقد عثر على هذا الصولجان مع عدد اخر منه في مزهرية وجدت على ضفاف نهر مندلى على مقربة من مكان يدعى

« بلد دروز »(٩) على مسيرة حوالي ستة ايام شرقي بغداد .

والمظنون ان نهر مندلي الحديث هو نهر جنديس القديم الذي قيل ان كورش قد قسمه الى ثلثمائة وستين قناة كيما يجعله عديم الاهمية ، طبقاً لما ذكره هيرودوتس* انتقاماً من تياره الذي اغرق احد جياده المقدسة وحمله بعيداً . لكن الشيء المؤكد انه اراد ان يجعله نهراً يمكن عبوره مخاضة . وذلك عن طريق تحويل مياهه الى اكبر عدد ممكن من القنوات .

* * *

كان وقتي خلال بقية مكوثي في بغداد موزعاً بين التطلع الى فرص السفر وبين رؤية اقصى ما استطيع رؤيته من احوال المجتمع في هذه المدينة ، وملاحظة ملابسي الاسيوية ، ولحيتي ، ولغتي ، مما يسهل علي اصطحاب مختلف الطبقات .

ولقد دهشت منذ اللحظة التي دخلت فيها بغداد لاول مرة ان اجد اللغة التركية يتحدث بها اكثر من اللغة العربية بصفة عامة ، مع العلم ان هذه المدينة محاطة بالاعراب من كل جوانبها اكثر من دمشق ، وحلب ، او الموصل والتي يكون اللسان العربي هو اللسان السائد فيها ومع ذلك فقد قيل ان اللغة التي يتحدث بها هنا اكثر تشويهاً في قواعدها وفي تلفظها الى درجة ان الشخص الساكن في اسطنبول يضطرب دواماً لتلفظها ، ويجدها غير مفهومة لدى وصوله الى هنا لأول مرة .

لدي برهان واف على ان اللغة العربية هنا سيئة جداً اذا ما اخذنا

* كليو ١٨٩ CLIO 189

اللغة الدارجة في القاهرة ، ومكة ، واليمن كقياس لصحة تلفظها . ذلك لانـــه يندر سماع شيء اعلى من الصوت الاجش ، والفظاظة في التركيب ، واستعمال الكلمات الغريبة ، يمكن تصوره اكثر من سماع لغة بغداد .

فالتعابير التركية ، والفارسية ، والكردية ، وحتى الهندية تشوه جملها وهكذا يندر تمييز الكلمات العربية التي تستعمل على هذه الشاكلة عند سماعها ، عن الطريقة الفاسدة التي تلفظ بها .

ان الحركة الادبية هنا في مستوى منحط ذلك لأنه لا توجـــد مجموعة معروفة من الكتب او المخطوطات في المدينة كلها ، ولا يوجد « ملاّ » يتميز عن معاصريه بتمرسه في معرفة بلاده ولقد كنت اتمنى ان احصل في بغداد على نسخه من كتاب « الف ليلة وليلة » ، ولا سيما ان عاصمة العباسيين هذه كانت مسرح قصتها تلك ، وان قبر زبيدة ما يزال معروفاً لدى العامة ، ويدل عليها سكانها لكنني علمت بأسف انه لا توجد نسخة كاملة من ذلك الكتاب في كل انحاء بغداد ، وان التحريات التي اجريت للحصول على نسخة واحـــدة لم تصب نجاحاً رغم المبالغ الكبيرة التي عرضت للكتاب تشويقاً للاتيان بها من اية مجموعة من هذا القبيل .

وفي هذا الحد كما في كل المضامير الاخرى تختلف بغداد ، كمدينة شرقية عن القاهرة على وجه التحديد ، وان شوارعها واسواقها تبدو لاشيء بالنسبة الى الصور الحقة التي يصادفها المرء في مصر مما يذكر المسافر بالمناظر والطرائق التي جاءت على وصفها الحكايات العربية . ونظراً لهذه الحالة ، مضافا اليها اكتشاف عبارات كثيرة في لغة « الف ليلة وليلة » وهي عبارات مصرية خالصة ، فان

افضل حكم في هذا الموضوع هو الرأي القائل بان هذا الكتاب قد الف اصلا في القاهرة وطرح لاول مرة للتداول فيها ولو ان رواجه الجدير به سرعان ما تجاوز شهرته في العالم الشرقي كله (١٠)

لم اشاهد اثناء جولاتي في بغداد امرأة واحدة سافرة في الشوارع ولو انني كنت ارى مصادفة واكثر من مرة واحدة، شابات من الجنس الآخر يتشابهن في مظهرهن ومسلكهن وسحناتهن مع تلك التي رأيتها في خان القرية التي توقفنا عندها في الليلة السابقة لوصولنا الى هذه المدينة. فمثل هذه العلانية لا يسمح بها دائما الى مثل هذه الحدود من الخلاعة، ذلك لانه حدث في عهد حكم علي باشا (١١) قبل سنوات قلائل ان القي برجل على رأسه من اعلى منارة في المدينة لانه ضبط متلبسا بارتكاب مثل هذه الجريمة الشنيعة.

والشرطة في بغداد معيبة الى اقصى حد فالمشاجرات قد تثور، والخصومات قد تنتهي باهراق الدماء بين الاعراب الذين يحتلون ضواحي المدينة داخل اسوارها ولم يكن هذا، من دون علم الحكومية واهتمامها، بالامر المدهش لان حوادث القتل قد تقع عند ابواب احد القصور او احد المساجد الكبيرة من دون ان يتعقب احد اولئك الجناة او يقدمهم للقصاص ومنذ الفترة التي عاد بها المستر ريج من اوربا الى بغداد والتي لم تزد عن ستة اشهر، وقع مالا يقل عن اثنتي عشر حادثة قتل داخل المدينة، وكانت احداها قريبة من منزل الباشا، واخرى عند مدخل مسجد عبد القادر (الكيلاني).

واخر مثل على هذه الفظائع حدث قبل مغادرتي بايام قلائل، ومع ان الجريمة اقترفت في الشارع العام وامام مئات من الذين شهدوها في منتصف النهار فلم يفكر واحد منهم بمعاقبة القاتل في موقع الجريمة او ان يقبض عليه

حفظا للامن العام . لقد كانوا يقولون (انها حادثة دم قد يثأر لها اقارب القتيل وقد يحقق الباشا فيها ولذلك فليس من مصلحتنا التدخل فيها »

وتقترف اعمال السلب في مختلف انحاء المدينة من دون ان ينال مقترفوها اى جزاء وتحدث هذه الاعمال عادة اثناء الليل وعلى يد عصابات خاصة تهرب دون ان يلقى القبض عليها ، لكن ظهر في حادثة واحدة اشتراك حالة طبيعية اكثر من المعتاد في تنفيذ هذه الجرائم الجريئة ، فقد وجد ان احد التجار البارزين في المدينة من بين الذين كانوا يشجعون ارتكابها لانه كان يشتري ما يتم سلبه . على ان هذا الرجل لم يمس باذى بسبب ثرائه ولم يستدع لمحاسبته اما البقية وان كان معظمهم معروفين فانهم استطاعوا النجاة بتأثيره هو وحده .

وقد ذكر ان الباشا صمم على ان يتجول في المدينة ليلا متنكرا ، لكن البعض يعتقد ان هذه مجرد رواية قصد بها اخافة اللصوص بينا سخر الاخرون من هذا البديل الواهن ، وهم يميلون الى القول بان البديل الذي يمكن به وحده محاربة هذا الشر هو ايجاد قوة من الشرطة الفعالة المخلصة

ترتدى نسوة بغداد رداء ازرق اللون مخططاً تستعمله الفئات الدنيا من النسوة في مصر .

وليس يشاهد بين الطبقات العليا هنا ايامن الاوشحة الحريرية السوداء او الوردية اللون المألوفة في القاهرة او اكسية الموسيلين البيضاء المعتادة في صميرنا (١٢) ودمشق . وهذا بالاضافة الى الحجاب الاسود الكثيف المصنوع من شعر الخيل الذى يغطى الوجه ، ويضفى على النساء اللواتى يشاهدن مصادفة في الشوارع مظهر الكآبة والفقر الشديدين . لكنهن حين يكن في بيوتهن يكون لباسهن من الوان غامقة ، ومن انسجة ثمينة كما هو الامر في اى من المدن التركية الكبرى . اما طراز معيشتهن ، وطريقة ادائهن واجباتهن في

عوائلهن فانها واحدة تماما .

ولما كانت الرؤية من شرفتنا العالية في الساعة المبكرة من الصباح تمتد الى حوالى ثماني او عشر غرف للنوم في مختلف الاحياء المحيطة بنـا حيث تنام كل العوائل في الهواء الطلق فان المناظر الداخلية تكون معرضة للرؤية من دون ان يشعر بنا ، او ان يشك باننا كنا نتفرج عليها .

والمعتاد بين العوائل الغنية ان ينام الرجل على سرير مرتفع ، ذي وسائد ومفارش من الحرير يغطيها شرشف من القطن الكثيف في حين لا يحمل السرير اية ستائر او ناموسيات .

وتنام الزوجة على فراش مماثل لكنه يكون على الارض دائما اى من دون سرير وعلى مسافة محترمة من زوجها في حين يشترك الاطفال الذين يبلغ عددهم ثلاثة او اربعة احيانا مطرحا واحدا بينما يفترش كل واحد من العبيد او الخدم حصيرة له على الارض . لكن الجميع يرقدون مرة واحدة ويستيقظون على مرأى من بعضهم البعض وينهض كل واحد منهم في ساعة مبكرة بحيث لا يبقى احد منهم في فراشه بعد ان تشرق الشمس ثم ينقل كل واحد فراشـــه وغطاءه الى المنزل فيما تحت ماخـــلا الاطفال الذين يتولى احـــد العبيد او امهم امر هذه المهمة .

ولا يرى واحد من بين هؤلاء الاشخاص ينام عاريا في فراشه كما هو المألوف عادة لدى الاوربيين . ذلك لان الرجال يظلون محتفظين بقمصانهم وسراويلـهم وبقفاطينهم غالبا وهى نوع من العباءات الداخلية وينام الاطفال والخدم بذات الكمية من الملابس تقريبا ما داموا قد ارتدوها اثناء النهـــار ، اما الامهات وبناتهن اليافعات فيرتدين سراويل واسعة حريرية مما يرتديه الاتراك وجلبابا مفتوحا ، ويعتمن بعمائم ان كن غنيـات ، وان فقيرات فبغطـاء احمر اللون

فضفاض يغطين به رؤوسهن وفي كل الامثلة التي شاهدتاها وجـــدنا النسوة يساعدن رجالهن على ارتداء ملابسهم او نزعها بكل احترام وخضوع ، ويؤدين كل الاعمال التى تؤديها الوصيفات .

وبعد ان يرتدى الرجل ملابسه يبـدأ عادة بتأدية عبادته فى حين يهيء العبد له الغليون والقهوة ، وحين يجلس على بساطه بعد ان يكمل عبادته تبدأ زوجته تخدمه بنفسها فتقف على مسافة بينة منه في انتظار القدح ، وتكـــون واقفة امامه دواما ، ويداها متشابكتان في بعض الاحيان فعـلا ، بل انها لتقبل يده حين تتسلم القدح منه مثلما يفعل ذلك من هم اوطــأ منزلة من الحاضرين في المنزل.

وحين يتكأ الزوج في فراشه ، او يجلس على بسـاطه ، في حالة استراحة واسترخاء ليتمتع بغليونه في الصباح تكون نسوة العائلة جميعا قد نهضن لاداء الصلاة .

وفي عدد كبير من هذه الحالات يؤدين الصلاة على انفراد وبعد ان يؤديها الرجال على وجه الدقة ، لكن قد يحدث في حالة او حالتين ان تصلى الجاريـــة وبعض النسوة الاخريات، وربما الاخت او القريبة ، سوية ، تتعقب احداهن حركات الاخرى جنبا الى جنب مثلما يؤدى ذلك جماعة من الرجال يتزعمهم في صلاتهم تلك احد الائمة .

ولا يتخلف اى من النسوة ، سواء الزوجـة ام الخادمـة ام الوصيفة عن اداء واجب الصباح هذا ، لكنني لم اشاهد بين الاطفال الذيـن كانت اعمـارهم تقل عن الثانية عشرة او الرابعة عشرة اى مثال على قيامهم باداء الصلاة .

وعلى الرغم من العزلة الظاهرة التى تعيش النساء فيها هنا ، كما هو واقع الامر في جميع انحاء الامبراطورية التركية فعلا ، فهناك العديد من منـــازل

الانس التي توجد امثالها في اى من المدن الكبرى التي تخضع لهذه الامبراطورية ذاتها . على ان هذه المنازل اقل ظهورا هنا منها في القاهرة ولو انهـــا تكون مخفية عن انظار العامة ، حيث لا يستدل غير المجرب من مظاهرها الخارجية على الاغراءات المريبة في داخلها .

فقد ذكر ان نساء من اعلى الطبقات يعقدن مواعيد لهن احيانا في مثل هذه المنازل ، وهذا امر لا يمكن نكرانه في الواقع وذلك لانه يسهل عقـــد اجتماعات خفية في المدن التركية بين ابناء قطر واحد اكثر بكثير مما يحدث ذلك في اى من الحواضر الاوربية

فتنكر امرأة تركية او عربية في لباس الخروج يكون كاملا الى درجة ان زوجها نفسه لا يستطيع ان يميزها تحت ذلك اللباس ، وان امكنة المواعيد هذه ليست معروفة الا للذين يزورونها ،وهي مجردة من اية اشارة تميزها عن غيرها من الاماكن الاخرى مما يسهل على اى شخص دخولها او مغادرتهـــا في اية ساعة من ساعات النهار دون اثارة اية شبهة من المارة

من بين النسوة اللواتي يشاهدن مصادفة في بغـــداد الجورجيات والشركسيات اللواتى يعتبرن من اجمل النسوة في تكوينهن ، ومن اقلبهن هيبا في الفن . واعلى طبقة من السكان المولودين هنا تكون نساؤها اقل جمالا في اشكالهن ومظاهرهن ، واقل جدة ، وانصع بشرة في حين تحتفظ المتوسطات منهن ببشرة رمادية ولا شيء مقبول في خلقتهن سوى العيون السوداء المعبرة وقد تكون هؤلاء في بعض الاحايين شرسات قاسيات ليس فيهـــن سوى المظاهر القبيحة المنبوذة . وتعمد كل صنوف النساء وطبقاتهن الى صبغ شعورهن بالحناء ذات اللون الاحمر كما تخضب اصابع الكفين بها ايضا وكأنها اشبه بيد ملاح حين يغطيها القطران والوحيدات اللواتى ينتمين بالدم او العـــادات الى

العنصر العربي يرتدين ثيابا زرقاء شائعة الاستعمال بين بدو الصحراء ويكون الاسراف في طريقة تزيين الجسم في بعض الحالات ، مشابها لما كان شائعا بين القدامى من البريطانيين ، وذلك لانه ماخلا صبغ الشفاه بذلك الصنف المميت تستعمل الخلاخيل حول السيقان بصفوف ترتفع من الكعب الى اعلى وبمسافات متساوية حتى سمانة الساق ، وتحيط ضفيرة وشم من الزهور الزرقاء بكل من النهدين ، ثم تعلق سلسلة من ذات النوع عموديا بينهما وتستعمل بعض الغواني الشهيرات زنارا او حزاما ينقش من ذات المادة الوحيدة ليحيط بالجزء الاصغر من الخصر ، وليطبع على الجلد بطريقة تجعله ثابتا الى الابد لا يمحي .

وتوجد في بغداد فنانات مهمتهن تزيين السيدات باحدث المصنوعات من الخلاخيل والاحزمة والزنانير حول الخصر او الصدر ، ولما كانت هذه العملية تستغرق وقتا كبيرا وجلسات عديدة مثلما يفعل ذلك صانع الصور الانكليزي فانها تهيء فرصا واسعة عند اتمامها لدراسة جمال المرأة بطريقة ليس اقل كفاية من الطرق المتبعة في الاكاديميات الملكية للنحت والرسم في اوربا .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الخامس عشر

(١) البوربون هي العائلة التي حكمت فرنسا من القرن السادس عشر حتى اواخر القرن الثامن عشر اذ سقطت بقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وباعدام الملك السادس عشر وقد اعيد حكم آل بوربون الى فرنسا بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ وتولى لويس الثامن عشر حكم فرنسا ثم قضى على حكم هذه العائلة نهائيا بعد ثورة ١٨٤٨

(٢) باشلق يقصد بها الباشوية وهي في هذا الموقع نعني الباشا نفسه

(٣) توفى الامبراطور يوليان سنة ٣٦٤م اثناء حملته على ايران والعراق واذ ذاك اختار الجيش الروماني جوفيان الضابط في الحرس الامبراطوري آنذاك امبراطوراً لروما

(٤) الدرعية هي القرية التي اقام فيها محمد بن عبدالوهاب مؤسس المذهب

الوهابي وشرع منها يبث دعوته الرامية الى تطبيق اسس الشريعة كما وردت في القرآن خالية من التشويهات والتحريفات

(٥) الدكتور وليام فنسنت له كتاب تجارة الاقدمين في شبه الجزيرة العربية كما ترجم رحلة نرخوس الى الانكليزية وطبعها سنة ١٧٩٢

(٦) يقصد به طريق الحج البري الذي حفرته السيدة زبيدة زوجة الخليفة الكبير هرون الرشيد ويمتد بين النجف والرياض

(٧) قام السرجون مالكولم ، مبعوث الحكومة البريطانية الى فارس بهذه الرحلة في كانون الثاني سنة ١٨٠٠م ودخل في مفاوضات شاقة مع الايرانيين استمرت حوالي سنة نجح في نهايتها في عقد معاهدة سنة ١٨٠١ مع ايران التي مهدت لتوطيد النفوذ الانكليزي في ايران .

(٨) مدراس من اقاليم الهند الشهيرة والمدينة مدراس كانت من اهم موانيء الهند خلال القرن التاسع عشر ·

(٩) بلدروز احد نواحي قضاء مندلي مدينة قديمة ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان وتقع على جدول بلدروز بين بعقوبة ومندلي تحيط بها الحدائق والبساتين الجميلة وموقعها ممتاز لكن بناء المدينة بسيط واهلها ضعفاء .

(١٠) لم يتأكد لدى الذين درسوا كتاب الف ليلة وليلة ان هذا الكتاب قد وضع في مصر بل على العكس من ذلك في الكتاب عبارات خاصة

بالمراقبين وحدهم مما يؤكد انه قـــد وضع في العراق وليس في اى مكان آخر .

(١١) علي باشا يقصد به حافظ علي باشا من المماليك الذين حكموا العراق في الفترة ما بين ١٨٠٢ ـ ١٨٠٧م

(١٢) سميرنا : هو الاسم الاوربي لمدينة ازمير المرفأ التركي الشهير الذي يقع على بحر ايجه وقد استولى عليها السلجوقيون من البزنطيين سنة ١٨٠٤م فتحها الأفرنج سنة ١٣٣٤ ثم انتزعها منهم تيمورلنك سنة ١٤٠٢ واخيراً استولى عليها العثمانيون سنة ١٤٢٢م

الرحلة من بغداد الى ايران

قرر بكنغهام ان يعود الى الهند عن طريق ايران ولذلك رافق احـدى القوافل المتجهة نحو طهران حيث اكمل من هناك رحلته الى الهند .

وقد نشر انباء رحلته هذه في كتاب مستقل عنوانه

رحلة في اشور ومازى وايران

صدرت الطبعة الأولى منـه في مجلد كبير سنة ١٨٢٧ وصدرت الطبعة الثانية منه في مجلدين سنه ١٨٣٠ بالعنوان التالي

TRAVELS
IN
Assyria, Media And Persia

A Journey From Baghdrd By Mouht Zagros

TO

Hamadan The Ancient Ecbatana , Researchs in Isphahan And The Ruins of Persipolis

By : J . S . BUCKINGHAN

London 1830

وقد نقلنا عن هذا الكتاب مسيرة بكنغهام من بغداد الى ان اجتاز الحدود العراقية الايرانية في نقطة سربول

ـ المترجم ـ

الفصل السادس عشر

من بغداد عبر ديالى الى كسرى اباد(١)

او دستاغور

بعد رحلتي من حلب الى بغداد في طريق دائري فيما بين الرافدين ، وما اصابني من حمى حادة ، واعقبها من تعب شديد ، كانت استعادة الراحة ملائمة لي اكثر من المعتاد . ولذلك كنت محظوظا ان اجد في مدينة الخلفاء كل وسائل الراحة المعتادة في المنزل الانكليزي ، تتوفر في بيت المقيم البريطاني السيد ريج وفي صحبة عائلته المؤنسة .

كانت وجهتي في طريقي الى الهند ، وقد تهيأت الاستطلاعات بشأن التسهيلات النسبية لاكمال بقية طريقي هذا الى «الشرق الاقصى» بركوب نهري دجلة والفرات الى «البصرة» (بصورا) (٢) ، والسفر من هناك على ظهر سفينة في الخليج الفارسي ، او مرافقة بعض القوافل الى ايران برا ، والمرور عبر كرمنشاه ،

وهمدان ، واصبهان ، وشيراز ، الى بوشير حيث تكون السفن المسافرة الى بومباي موجودة دوما هناك . وبعد كثير من الاعتبارات ، اخترت الطريق الاخير لانه كان بصفة عامة أكثر ملاءمة للواقع وللسفر ، ولانه يتمتع بمناخ افضل بالنظر الى وهني نتيجة المرض السابق ، ولشدة حرارة الموسم التى مازالت سائدة ، وذلك امر يعد في الدرجة الاولى من الاهمية . ولذلك كانت ايامى الاخـيرة في بغداد تصرف في الاستعداد لمرحلة اخرى من رحلتي الى الشرق بهذا الطريق

الثالث من ايلول: كنا نرجيء السفر من يوم الى يوم على اساس ان السفير الايرانى

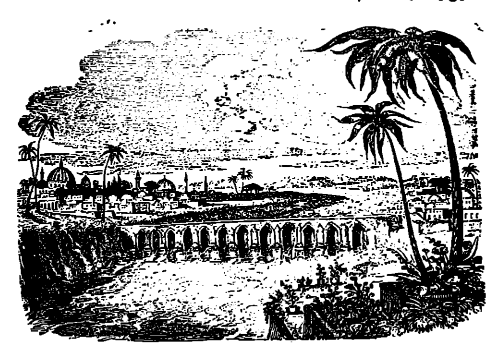
يوشك ان يعود الى طهران ، ونستطيع في ركبه ان ندخل ايران بسلام . فلقد قام بزيارة لضريحي علي والحسين وكذلك ضريح الامام موسى (٣) قرب بغداد. وهو لايريد الآن سوى الحصول على اذن من الباشا ليبدأ سفره الى بلاده . ولقد وعده الباشا بهذا عندما كان يحضر ديوانه كل صباح . ولذلك كنا ننتظر لان نرحل معه .

على ان الامر الذي شاع هو ان بعض الجنود التابعين لمملكته موجودون الآن في كردستان تأييدا للمؤامرات الفاشية بين الباشوات الذين يتبعون بغداد اسميا حسب ، ولذلك فلن يتعرض السفير لاي اذى ان سافر منذ الآن الى ان تصل الانباء بان هذه القوات قد انسحبت .

كانت طائفة كبيرة من الزوار الايرانيين الذين كانوا ينتظرون مثلنا اياما عديدة للافادة من هذه الصدفة في سبيل حمايتهم ، قد قرروا ان يرحلوا دون انتظار للسفير ، وان يعتمدوا على قوتهم في الدفاع عن انفسهم .

وطبقا لذلك بدأنا نعد العدة لسفرتنا اذ قررت انا ان لا اتاخر اكثر مما تأخرت بل اصحبهم في رحلتهم تلك .

كان رفيقي المقبل في السفر درويش افغاني اسمه الحاج اسماعيل وهو شخص كان يعرف الى جانب لغته كلا من الفارسية والتركية، والعربية، وذا مزاج مرح، وعلم تام بالطريق، ولم يكن وقحا، ولاجاهلا كما هو شأن اكثرية الذين ينتمون الى طبقته .



جسر حجري فوق نهر الوند
(الصورة من رسم المؤلف ١٨١٦)

لقد كان معدودا بانه من احذق الذين يمارسون عملية الحفر على الحجر في الشرق كله ، وقد نقش بعض الاختام والحلقات للسيد ريج كانت اجمل ما شاهده ذلك السيد منها في اسطنبول .

وبدرجة جد اعتيادية من الصناعة والعمل كان هذا الرجل يستطيع ان

يصيب قسطا من الثراء لكنه ما ان تدروش حتى راح يتعقب هذا الخط القوي الملتوى لميله الطبيعي، فيترفع عن دنايا هذا العالم ،ويحيا حياة الاسترخاء والمسرة ، وان ينتقل من مكان الى مكان بحثاً عن ذلك الصنف من الحوادث والاشخاص الذين يود الالتقاء بهم ومشاهدتهم .

لقد كان مثل هذا الرفيق في كثير من الحالات مطابقاً لرغائبي . ومما جعله اكثر مطابقة لذلك انه ابدى رغبته في حالة خاصة بان اصحبه بصفة مسلم يحمل اسم « الحاج عبدالله بن سليمان » من مصر . وقد حفر هذا الاسم على حلقة صنعها لي ، وقدمها الي لتساعدني في قراءة القرآن، ولتكون مستنداً لي في كل المناسبات شريطة ان اؤيد شخصية محمد(٤) دائماً وان اعلن بانني عربي من مصر ، ما دامت لهجتي لا تزال عربية ، وما دامت هذه اللغة مألوفة في البلد الذي انا فيه .

اما مضار رفيق كهذا فهي تتلخص في أنه يجب علي في جميع المناسبات ان اهيء ملبسي وطعامي وخدمتي بنفسي ، وان اقوم بهذا لحسابه في بعض الحالات ايضاً على اعتبار اننا من مستوى واحد تماماً . على انني اعددت نفسي لهذا كله وفق تدريب سابق طويل الامد .

كانت الخيل التي امتطيناها تمود الي بكل ما زودت به لانني رغبت ان اكون مستقلا جهد المستطاع عن اية مساعدة .

وكانت اوراقي ونقودي وكل ماله قيمة من المواد قد وضعت في خرجين او كيسين صغيرين مصنوعين من الشعر والقيا على سرج جوادي ، اما بقية المتاع التي كانت تتألف من قطعة كتان استعملها لنفسي ، ودلة قهوة ، وكيس تبغ وبعض السجاد وما شا كله ، فقد حملها الدرويش تحته على حصانه

كنت ارتدي ما يرتديه افراد الطبقة الوسطى من العرب وكان سلاحي عبارة عن رمح جيد طوله خمسة عشر قدما ، وبندقيتين ، وسيف دمشقي .

وكان اسماعيل هو الاخر يرتدي الملابس العربية التى زودته بها وسلحته بسيف فارسي وبندقية انكليزية

ولقد جمعت خلال مكوثى في بغداد لرحلتي هذه تلك الملاحظات مما حوته مكتبة السيد ريج ، وبقدر ما سمحت به صحتى ان اعـده في فترات ، كما زودت من قبل ذلك السيد برسائل الى حكام المدن الكبرى في حالة احتيـاجي اليهم ، ولذلك اعددت كل الاستعدادات لان ابدأ الرحله بامان وملاءمة ·

واذ حانت ساعة صلاة العصر بين الظهر والمساء كنا جميعا على استعداد لان نرحل حيث حانت اللحظة التى كان علي فيها ان اغادر متألما افرادا سعدت بصحبتهم اخيرا · واذ كـان يستحيل علي ان افي بالشكر عما لقيته من الكـــرم والمودة من لدن كل فرد من تلك الجماعة اثناء مكوثى ، فان من العبث ان احاول وصف مشاعرى وانا افارقهم · لقد كانت مشاعرى تلك اليمة الى درجة انني لا اكاد اتذكر امثالها في اية مناسبة اخرى · ذلك لانـه لا توجد سوى قلة من الناس احسست نحوهم بالمودة الممتزجة بالاحترام بعد فترة قصيرة من التعارف مثلما احسست ذلك بالنسبة الى السيد ريج والسيدة زوجته

* **

غادرنا بغداد من باب الامام الاعظم الذي سمى بهذا الاسم لانه يؤدي الى ضريح ذلك المجتهد الذى اتخذ اماما للحنفية والذى يقع مقامه شمالى المدينة مسافة ساعة على ظهور الخيل .

كان هذا الباب هو الذى دخلت منه حين وصلت الى هنا · ولما كان يقع في الحي الشرقى الشمالى من بغداد فهو نقطة الوصول والمغادرة الرئيسية لكل الطرق التى تقع شرقى دجلة

وجدنا قافلة صغيرة مؤلفة من حوالى خمسين شخصا مع بعض الخيـول والبغال والحمير ، ولكن من دون ابل متجمعين خارج الباب يستعدون لتحميل دوابهم ولما كانت مبارحتهم ستتأخر حتى تحين ساعة صـلاة المغرب ، فقد نشرنا افرشتنا بين الحشد وجلسنا صابرين ننتظر تحركهم

كنت انذاك مصحوبا بترجمان السيد ريج ، وهو ارمنى ، وسـكرتير المقيمية ، وهو فارسي ، اللذين عهد اليهما ان يحضرا وقت مغادرتى بسلام .

وقد جرى فيما بعد تقديم رؤساء القافلة الي . واذ كنت من احسنهم ملبسا وافضلهم مركبا ، باستثناء اولئك الذين كانوا في صحبتى ، فان الايرانيين وجدوا ان ما يشرفهم كثيرا هو ان يجلسوا الى « الحاج اغا » كما كانوا يدعوننى وان يتقبلوا باحترام عظيم غليونى وقهوتى حين كنت اقدمها اليهم ، ويسألوننى بشوق عن مصر وعن مدينة الرسول

ولست اتذكر انني في كل الرحلات التى قمت بها قد شاهدت اناسا وسخين مذبذبين ، عاجزين ، سيء الملبس والتجهيزات متجردين من روح العون مثل هؤلاء الخمسين او الستين زائراً الذين كنت اسافر معهم في طريق اشتهر بانه كان من اكثر الطرق تعرضا للخطر . كانوا جميعهم غائبين عن ايران عدة شهور في زيارة اضرحة الائمة على وحسين وموسى القريب من بغداد ، تلك المدينة التي اشتهرت في تاريخ الخلفاء ، والتي لا تزال بقاياها شاخصة على ضفتى نهـر دجلة على مسيرة يومين من هنا

ولم يكن ايا من هؤلاء قـد وصل الى ابعـد من « مكة » . ففى السفرات التى قاموا بها قبلا كان معظمهم قد سلب ونهب مرتين او ثلاثا على يد اعراب الصحراء ، وفقد الكثيرون منهم رفاقهـم بسبب الاعياء والمرض

والمدد الذى يطرق هذا الطريق ملحوظ حقا . ومما افادت به ارملة هندية مع صبي لها جاست خلال ايران الى البصرة، كان عشرون او ثلاثون قد ماتوا في طريقهم الى بغداد بطريق النهر ، كما جاءت الانباء من مكة تفيد بان البقية قد هلكت في الطريق عبر الصحراء وفي ارض الحجاز ذاتها

ولا بد من وجود درجة من الخرافات العالقة بالدين ، حيث يصعب اقناع مثل هذه الحشود التى تمثل كل الطبقات وحملها على ان تقاسى المخاطر سنة بعد اخرى في القيام بمثل هذه الرحلات (٥)

والسبب الذى اظهره معظم اولئك الايرانيين الذين سألناهم في القافلة عن عدم ذهابهم الى مكة ، هو عدم كفاية الوسائل التى تتوفر لديهم بعد ان يتم سلبهم وتجريدهم ، وهذا يبدو معقولا ، غير انه لا يفقد بينهم اولئك الذين يظنون ان (الكعبة) وهى المعبد المقدس في مكة ، انما هي مكان اقل توقيرا من ضريح الرسول في المدينة او اضرحة الخلفاء والائمة الذين سلف تعدادهم وذلك بنفس الطريقة التى بها يحسب العامة من اليونانيين (القديس جورج) مساويا للمسيح ذاته ، وتسمو فيها مريم العذراء الى درجة ابنها غير المولود لدى ذات الطبقة من الكاثوليك

كانت ملابس رفاقنا الفرس من الطراز الاعتيادى في بلادهم وهى تتألف من ثوب طويل يضيق عند الاذرع والصدر ، ويكون الجزء الاخير منه رقيقا بينما يشبه الجزء الادنى من الثوب صداريا صغيرا . اما الصدر فيغطيه قميص هزيل خشن ، في حين يتألف لباس الرأس من قلنسوة مستديرة مصنوعة من جلد الماشية وكانت خيولهم من اردأ الانواع التى يتصورها العقل اذ كانت اذرعها واجلتها ضعيفة هي الاخرى

ولقد اكد لي البعض وانا اثق بذلك ثقة تامة ، ان خمسة من عرب

الصحراء الذين يحسنون ركوب الخيل قد اوقفوا وسلبوا جماعة من الحجاج الفرس بقدر هذه الجماعة ، ولقد اعترف رجال القافلة انفسهم ان عشرة فرسان من عشيرة بنى لام (٦) يستطيعون ان يسوقوا كل افراد هذه الجماعة امامهم

كان بينهم بعض النسوة اللواتي ادهشتنى الحجب التى تغطى وجوههن بصفة خاصة . فقد كن يرتدين ثيابا زرق اللون مما ترتديه نساء بغداد لكن بدلا من الخمار الاسود المصنوع من شعر الخيل الذي يغطى الوجه ، كن يضعن على وجوههن حجباً قطنية بيضاء تربط حول الرأس اشبه بما هو مستعمل في مصر وبدلا من ان تبين العينان خلال ثقبين واسعين ، كما هو الامر في ذلك القطر كانت هناك نافذة صغيرة طولها ثلاث بوصات وعرضها بوصتان توضع بين العينين ووسط الخمار وقد صنعت من خيوط غليظة يقاطع احدها الاخر على ابعاد واسعة بينها .

ولقد بدا الرجال سوية وكأنهم اشبه بقبيلة من اليهود البولنديين ، او رجال الكهنوت القدامى ، وقد ركبوا وتسلحوا للقيام بحملة مؤقتة لغرض السلب والنهب ، في حين ان النسوة لم يشاركن الا في اضعف حالة للظهور ومن دون ان يظهرن اذرعهن وذلك لستر مخاوفهن .

وعند المغرب ادت ثلاث طوائف منفصلة من هؤلاء النسوة فريضة الصلاة جهاراً اذ نشرن بساطا على الارض لكنهن بقين متحجبات حسب الطريقة المعتادة .

ولم اكن متأكدا من توضئهن الى ما فوق الركبة والمرفق كما يفعل الرجال ذلك ام لا ، لانني لم اشاهدهن الابعد ان بدأن بالصلاة . وتلك هى المرة الاولى التى اشاهد فيها امرأة تصلى هكذا علانية في حشد ، وان ينشغلن على هذه الشاكلة باغطية وجوههن وارديتهن الخارجية ، وقد اربكتهن هذه الحالة

الاخيرة في اداء الركوع والسجود

ظللنا جميعا ساكنين حتى غربت الشمس تماما وخلفت امبراطوريتها الى ملكة الليل الرقيقة *



احد الأسواق في مدينة زهاو
(من رسم المؤلف سنة ١٨١٦)

كان الطريق الذى سرنا فيه خلال الساعات الثلاث الاولى يتجه نحـو الشمال الشرقى بالسير شمالا ، وقد قادنا الى سهل اجرد ذى تربة طينية جيدة لا

* لا بد للمرء ان يسافر في صحاري الشرق المتفرقة كيما يشعر بالقـــوة التامة للتناقض بين النهار اللاهب والليل الرقيق ، ولـكى يفهم مدى اعجاب الشرقيين بالقمر والنجوم

يعوزها سوى الماء كيما تستعيد خصوبتها . وكانت ترى على هذه الارض آثار كثيرة للحيوانات مما جعلنا نضل الطريق مرتين في مثل هذه المسافة القصـــيرة عن بغداد .

واذ كادت تمر ثلاث ساعات على حركتنا بلغنا بنـــاء صغيرا بقرب بئر يتدفق منه ، في ايام الشتاء حسب ، ماء آسن وقليل جدا . ويدعى هـذا « بئر اورتا » وهي عبارة تركية وعربية تعطي معنى « بئر منتصف الطـريق ، على اعتبار انها تتوسط الطريق بين بغداد واول نزل للقوافل يقع شرقيها (٧)

وتنتشر هنـا تلال عديدة يبدو انها من تراب حسـن وبما كانت تؤلف جوانب قنوات شقت لملء البئر بمياه المطر ، لكننا ما ان رأينـا بعض اكوام توجد فيها بعض قطع الاجر في ذلك الطريق حتى خيـــل الينا انها قد تكون بقايا بنايات من نوع ما او غيره قد قامت على امتداد تلك القنوات

يتفرد سكان هذه البلاد في الواقع بوهم تقليدي فريد هو انهم يطلقون على السهل الواسع الممتد من دجلة حتى الجبال اسم مدينة « الكوفة » العظيمة التي يعرفون اسمها وشهرتها تماما ، لـكن ذلك حسبما يظهـر ضئيل ليس الا فبقايا هذه المدينة كما هو معروف تقع على الجانب الاخـر من النهر الى الغـرب اسفل بغداد .

اتجه طريقنا من البئر اكثر نحو الشمال . وبعد ان قطعنا ساعتين في ذات الطريق وصلنا الى نزل يدعى ايضا « خان اورتا » (٨) ، على اعتبار انه يقـع في منتصف الطريق بين بغداد وبعقوبة .

وقد بدأ النزل صغيرا مشيداً بالاجر وتشاهد اكواخ قليـلة على مقربة منه ، وظهر من نباح الكلاب ان تلك الأكواخ كانت مأهولة . لكن ما ان اجتزنا خلالها تاركين الابنية على يميننا والنزل على يسارنا من دون ان نترجل

لم نشاهد احداً من سكان ذلك المكان .

كنا قبلا نسير في نسق غير منتظم . وكان الفرس غالباً ما يغنون اغاني شائعة تتبعها في فترات صيحات عالية مجتمعة ، على انه ما ان بدأ القمر ينحدر حتى غدونا نسير في نسق متقارب . وكان الجميع صامتين من الخوف طبعاً .

واصلنا السير من هناك باتجاه الشمال الشرقي زهاء اربع ساعات من دون اي مطمح في ان نغير نسق الطريق ، في الوقت الذي كانت فيه كواكب « الثريا » والدبران ، وحزام الجبار ، وزحل قد التفت سوية قطاراً عظيماً في السماء الممتدة الى الشرق فوقنا ، وراحت ترسل اضواءها غير المعتادة حين بدت اول خيوط ضوء النهار ، وحين شرعنا نتبين بعض بساتين النخيل الكثيفة امامنا حيث بلغنا بعد ذلك ضفة نهر ديالى .

كان النهر يجري هنا في حوض عميق لكنه ضيق من الشمال الى الجنوب ثم يتجه بعد ذلك غرباً من الجنوب كانت الضفة الغربية للنهر اشد انحداراً وهي تمثل كهفاً من تربة منضدة في طبقات وفي خطوط ، افقية يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدماً . وقد بدا ان عرض النهر يكاد لايتجاوز هذا المقياس . وما خلا بعض المياه العميقة قرب الشاطىء الغربي فقد عبرناه بيسر . كان ماء النهر حلواً وعذباً ، ومعدل سرعة جريانه اكثر من ميل في الساعة الواحدة ، ومن هنا واذ غدا النهار اكثر وضوحاً ، وقعت انظارنا لاول مرة على سلسلة من التلال الواطئة تمتد الى الشرق من ناحيتنا مسافة تتراوح بين ثلاثين واربعين ميلا ، وكان اتجاهها - كما يبدو - من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، وكانت مقاطعها ناعمة .

واذ صعدنا الضفة الشرقية التي غطتها اشجار النخيل بكثافة ، سرنا حوالي ربع ساعة نحو الشرق ، ومن ثم استدرنا نحو اليسار فدخلنا بعض الممرات بين

اسوار البساتين المشيدة بالطين التي اقتادتنا الى بعقوبة حيث تفرقت القافلة ، وترجلنا في نزل عام هناك .

الرابع من ايلول : ما ان كانت المهمات الضرورية لوقت النهار ، واكلنا واسترحنا حتى اخذنا نطوف بالمكان سوية . لقد كانت قرية كبيرة مبعثرة تألفت من مساكن مبنية بالطين ، وبساتين النخيل ، وحدائق وما شا كلها مختلطة في بنيانها مع سوق بائس ومسجدين صغيرين .

ولا يتجاوز عدد السكان الفي نسمة كلهم عرب ونصف هذا العدد تقريبا شيعة او من المذهب الفارسي .

ويحكم المكان «يوسف اغا» التابع الى «اسد» باشا بغداد اما منتوجه فزراعي خالص وهذا ضئيل جدا . ومدينة بعقوبة القديمة شهيرة في التاريخ الاسلامي لكن هذه كانت تقع ابعد من هذا المكان الى الشرق ويقول «دي ساسي» في مذكراته عن «عاديات ايران» ANTIQITLES OF PERSIA اذ هناك مدينتين تسميان بعقوبة ، واحدة في اقصى اقليم النهروان ، والاخرى على بعد عشرة فراسخ وعشر مراحل من بغداد » * وهـــو يظن ان الاخيرة هي « اكوبي » AAKOUBE «[9] التي ذكرها «ثيفنو» (١٠) **

ويبدو ان المسافة كانت دقيقة لاننا قطعناها في مدة تسع ساعات ، وكنا نسير بكل ماحملناه اكثر من ثلاثة اميال في الساعة الواحدة .

كانت لغة القرية هي العربية ولوان الكثيرين يعرفون التركية وقلة يعرفون

---

* ص ٣٦٣م ٤ باريس P 3:3 VOL 4 PARIS

** ثيفنو م ٣ ص ٢١٥ THEVNOT VOL III P 215

الفارسية والكردية .

ولم استطع بكل التحريات التي قمت بها مع الناس عن مصدر ديالى فانني لم اتوصل الى شيء محدد في هذا الشأن فالكل يتفقون بانه يجتاز جبال كردستان وان المسافة التي حددت له بصفة عامة تؤلف مسيرة ثلاثة ايام نحو الشمال الشرقي .

ولا يعرف احد اي رافد يصب فيه غربي حوضه الرئيس ولو ان الجميع تحدثوا عن عدة روافد صغيرة تلتقي به من الشرق والتي قيل اننا لا بدوان نعبرها في طريقنا.

بدأنا عند المغيب نتأهب للرحيل واذ زال الضياء تماما كنا جميعاً قد بدأنا المسير . كان طريقنا في الساعة الاولى يمتد نحو الشرق حين انحنى الطريق نحـو الشمال الشرقي ليمتد في سهل قاحل ذي تربة صلبة جافة .

كان هذا السهل في وقت ما تتقاطعه القنوات فوق تلال وعبر اودية كنا نمر بها غالبا ، واجزاء اخرى ذات مستويات واطئة لا تزال تحتفظ بدلائل تشير انها قد رويت مؤخرا بالمياه التي قيل ان امطار الشتاء هي المياه الوحيدة التي تصيبها .

قطعنا من نقطة انحناء الطريق زهاء ثلاث ساعات في اتجاه الشمال الشرقي عندما بلغنا ضفة احدى القنوات ، وكانت مليء بالماء ، تمتد من احد اذرع ديالى وتروي جزءا من ارض تجري منها فيها . واصلنا السير بامتداد الضفة الغربية لهذه القناة باتجاه الشمال ولو ان الارض غير مزروعة وتغطيها شجيرات الشوك ،في حين كانت عدة اكواخ متناثرة على الضفة الشرقية وكان نباح الكلاب يعلن وجود أناس فيها ، مع ان هذه البقع من الارض المزروعة التي كنا نستطيع ان نتبينها بوضوح تحت ضوء القمر ، كانت تعتبر بمثابة عملية انقاذ حاسمة من الاطراد لنسق الطريق الذي كنا نسير فيه .

اعطي انذار من مؤخرة قافلتنا عن هجوم ، واطلقت عدة عيارات نارية ولو انها لم تسمع وسط الضجة والصخب اللذين سادا القافلة وحين ورد الايضاح ظهر ان اربعة او خمسة من الفلاحين الذين يسيرون على الاقدام هم الذين احدثوا كل ذلك الهلع ، وهو حادث اعطانا انطباعا سيئا من برودة جماعتنا الكثيرة العـــدد او شجاعتها .

وفي غضون ساعة اخرى وصلنا جدول ماء كانت القناة تستقي منه فعبرناه فوق جسر عال منحدر يقوم على قنطرة واحدة .

وقد يولي هذا الجدول وكأنه جدول اصطناعي لانه كان يجري بطيئا بين جرفين اشبه بالتلال . ولم يكن عرضه ليزيد على عشرين يردا . كان هذا الجدول يدعى « نهر الشهربلن(١١) » ، وهو ينحدر من الشمال وقيل انه يصب في نهر ديالى جنوبي بعقوبة ، وتتفرع منه قنوات صغيرة على امتداد الطريق .

كنا نشاهد من فوق هذا الجسر على يسارنا وعلى بعد اقل من نصف ميل غربي الطريق بساتين النخيل وهي ترتفع من قرية تدعى (العواشق) (١٢) وكانت هذه القرية في الاصل ملاذ اثني عشر من الفقراء الذين عاشوا هنا في استرخاء اعتمادا على صدقات المحسنين من المسافرين . غير ان طريقة حياتهم البسيطة قد اجتذبت اليهم اخرين من فئات الطبقة ، وبذلك اتسعت الاقامة فيها فاصبحت الان تضم حوالي خمسمائة شخص معظمهم من الفقراء .

وامتد طريقنا من الجسر نحو الشمال الشرقي ثانية ، وفي حدود ساعة من هناك وصلنا مدينة « شهربان » التي دخلناها عبر طرق مغبرة بين اسوار طينية حين كان القمر قد بدأ بالمغيب . ولم نستطع في مثل هذه الساعة التي جاءت غير ملائمة

ان نتلمس سبيلنـا الى احد الخانات الا بشيء من الصعوبة .

الخامس من ايلول : تتألف قرية شهربان ، مثل بعقوبة ، من منازل متناثرة من الآجر ، وبضعة شوارع قليلة ، وحدائـق وبساتـين مسورة باسـوار من الطين . وفيها مسجد واحد ذى منارة حسن البناء ، ونزلان ، ولا شيء بعد هذا يستحق الذكر .

وتجري بعض قنوات تأخذ مياهها من احد فروع نهر ديالى ، الذي سبق لنا ان عبرناه على جسر ذى قنطرة واحدة قبل أن ندخل شهربان بساعة ، عبر المدينة ذاتها ، وتمد السكان بالماء للاستعمال اليومى مثلما تمد به الفلاحين للزراعة .

ويقدر عدد السكان بحوالي الفين وخمسمائة نسمة ثلثاهم سنيون ، والبقية من الشيعة ، وليس بينهم يهود ولا نصارى .

واللغة السائدة هي التركية ، والعربية ما تزال شائعة و « اغا » البـلدة يخضع لبغداد *

وفى اثنـاء النهار توفرت لنا المعلومات بان الطريق الى المدينه التالية ليس امينا لان بعض الاعراب السلابين قد استقروا على مقربة منه ، ولذلك تأجلت مغادرتنا ليلا حتى الصباح التالي لأن من الافضل لنـا ان نرى اعداءنا حين

---

* يظن ان هذه المدينة هى موقع مدينـة ابولونيـا APOLLONIA القديمة التى ينسب اسمها الى احدى المقاطعات الخاصة (١٤)

انظر دنفيل : الجغرافيا القديمة م ٢ ص ٤٦٩ الطبعة الانكليـزية لندن ١٧٩١

D'ANVILLE : ANCIENT GEOGRAPHY VOL 11 P . 469 ENGLISH EDIT 8 VO LONDON 1797

يحاولون اعتراض سبيلنا .

ولم استطع بالتحريات التي اجريتها ان احصل على معلومات جد دقيقة عن مدينتي « مندلي » و « غيلان Chilan »[١٣] لتحديد موقعيهما وذلك لعدم وجود طرق تمتد من هنا الى اي منهما .

وقد وصفت مندلي بانها مدينة كبيرة تضم حوالى ستة آلاف نسمة من السكان هم خليط من الاتراك والعرب والاكراد ، وان اللغة التركية هي السائدة فيها وهي على مسيرة ثلاثة ايام من بغداد باتجاه الجنوب الغربي . اما غيلان فهو اسم لمنطقة واسعة نوعا ما تمتد حتى سفوح جبال « لورستان » والمدينة الرئيسة فيها تدعى بوكسايه BOKSYE (١٥) وتضم حوالي الفي نسمة معظمهم من العرب . وهذه ايضا تقع على مسيرة ثلاثة ايام من بغداد باتجاه الشرق *

---

* قيل ان الاسكندر في مسيرته من سوسه الى اكبتانا اجتاز بمدن تدعى كيلونيا CYLONEA (١٦) والتي اصبحت فيما بعد تطلق على منطقة كما هو الامر في الوقت الحاضر . ويقول احد المؤرخين انها تقع في سهل وان اعقاب « البيوتيين BEOTINAS (١٧) قد توطنوا فيها في عهد حملة خشارخيشا XERXES (١٨) .

وقد ظلوا هناك حتى اليوم ونسوا كل قوانين بلادهم . وهم يستخدمون لغتين : واحدة اخذوها عن السكان الطبيعيين والثانية احتفظوا فيها بالكثير من اللغه الاغريقية ، والتمسك ببعض قوانينهم وعاداتهم . وما ان حل المساء حتى غير الاسكندر اتجاهه وسار الى بجستاميس BAGISTAMIS (١٩) للاطلاع على الاقليم هناك وكان =

ولما كانت هذه المنطقة قـد اشتهرت في القدم بمراعيها وخيولها فقد رحت اسأل من اولئك الذين عاشوا فيها عن الحالة الراهنة فيها الآن ، وهل ان الخيول لاتزال مفضلة على ماسواها *

والظاهر ان السهل كله من بوكسايه الى الجبال ملك لقبيلة من العرب تدعى «بني لام» الـتي يعتقد انها تضم عشرين الف نفر مـن العوائل وكلهم شيعة مثل الايرانيين . والمنطقة الواسعة التي تجوبها هذه القبيلة معظمها الآن صحراء ، ولاشك ان هذا ناجم عن اهمال القنوات التي كانت ترويها قبلا . اما خيولهم فانها لاتزال

= هذا الاقليم يضم كل انواع اشجار الفاكهة وما هو مربح ومبهـج للجنس البشري ولذلك يبدو انه اتخذ مكاناً لابتهـاج الالهة والبشر ومن ثم وصل اي الاسكندر الى بلد ترعى وتربى فيه اعداد لا حصر لها من الخيول حيث قيل ان عددها بلغ هناك مائة وستين الف رأس من الخيل ، وانها كانت تمرح في مراعي القطر صعـداً او نزولا لكن عددها كان عند وصول الاسكندر الى ذلك البـلد ستين الف راس حسب وقد اقام الاسكندر معسكره هناك لمدة ثلاثين يوما ـ ديودورس الصقلي الكتاب السابع عشر الفصل الحادي عشر

DIODRUS SICULUS B . 17 . C . 11

* تبلغ المسافة من هذه السهول التي كانت تربى فيها هذه الخيول الى اكباتانا مسيرة سبعة ايام . (فراينشمينوس : ملحـق كونتوس كورتيوس مجلد ٢ ص ٥٤٧

FREINSHEMINUS SUPPLEMENT TO QUINTUS CURTIUS V . 11 P . 547

مع ذلك تعد من الانواع الفاخرة وتختلف عن خيول اعراب «نجد» وعن خيول التركمان *

وتدعى المنطقة الممتدة الآن من بغداد الى كرمنشاه باسم ارض الكوسة (٢٤) CUSA اما لانها كانت في وقت من الاوقات تخضع لتلك المدينة ، او لعدد من الاماكن التي كانت تابعة لها .

---

* قال الميجر رنل في وصفه لهذه المنطقة (تقع بين (غيلان) وكرمنشاه المراعي الشهيرة التى تربى فيها الخيول « النيسانية »
فهذه البلاد من « ماذى » كانت مهد الدولة الفارسية لان ميديا سيطرت على آسيا قبل الفرس . وقد اخرجت عنصراً قويا من الرجال والخيول .وكانت نيسيوس (٢٠) NISEUS احدى مناطق ماذى هى التي اشتهرت بهذه الخيول مثلما لا يزال اسم غيلان يطلق على المنطقة كلها . وكانت عربة خشارخيشا تجرها هذه الخيول كما كانت الخيول المقدسة التي تستخدم في المواكب من خيول نيسيوس ايضا (بوليمنيا ٤٠ POLYMNIA 40)
وقد وهب الاسكندر كالانوس CALANUS (٢١) جوادا من نسيوس ليقله الى حفل جنائزي . وقدم ملك الفرثيين احد هذه الخيول قربانا للشمس حين زار ابولونيا صاحب تيانا APPOLONIA OF TYANA مجلسه . وامتطى ماستيوس MASISTIUS (٢٢) جوادا من نسيوس في معركة بلاتون الحاسمة (٢٣)
وقد ورد الحديث عن مراعي نسيوس في كتاب ديودورس (الكتاب =

وخرجنا عند المغيب الى باحة النزل كيا نؤدي الصلاة ، ونتعشى ونمـــــد افرشتنا في جو هواءه ابرد وانقى مما نستطيع ان نتنفسه في الداخل . كان المنظر من هنا حيث تشاهد المنطقة من خلال اشجار النخيل ، عبارة عن سهل صحراوي مستو تغرب فيه الشمس حسب المقاس غربا الى شمالي ثلاثة ارباع الشمال ، وحيث طلع القمر مباشرة بدون اية فترة ينقطع فيها الضياء *

= الســـابع الفصل الثاني وفي مؤلف اريان ARIAN الكتاب السابع . انظر كتاب الميجر رنل « مصورات جغـرافية هيرودوتس م ٤ ص ٢٦٨

RENEL : ILLUSTRATIONS OF E GEOGRAPHY OF HERODOTES 40 TOM . P 68

* يضع اميانوس مارسيلنوس خيـول نسيوس في سهول بلاد اشور الخصبة ، وعلى الجانب الغربي من جبل عال يدعى كورونCORONE (٢٤) وواضح ان هذا الجبل جزء من سلسلة الجبال التي تقع في ذات المكان وتدعى زاغروس ، اورونتيس ORONTES وياسون JASON' (٢٥) وربما كتب كورون باسم كلون CLONE وهو اسم المنطقة التي كانت تربى فيها تلك الخيـــول (اميانوس مارسيلنوس الكتاب الثالث والعشرون الفصل السادس المجلد الثاني صفحة ٢٦٩ ـ ٢٧٠)

وتقع اكباتانا عند سفح جبل ياسون وهذا نفس الحال بالنسبة الى جبل اورنتيس (الكتاب ٢٣ الفصل ١٦ صفحة ٢٧٣)

وقد قيل ان الاسكندر عندما سار من (اوفيس OPIS) على

السادس من ايلول : كنا نتحرك قبل ان يغيب القمـر حتى اذا انبلـج الصباح غادرنا المدينة حين هيئت الشمس رحيلنا بان طلعت من وراء سلسـلة من التلال الزرقاء تنتصب امامنا

كانت مسيرتنا متجهة الى شرقي الشمال الشرقي فوق سهل اقل قفـرا من السهول التي اجتزناها خلال اليومين السابقين ، وينمو التبغ والذرة في اجزاء عديدة منه . وكانت الابل ترعى ايضا في الاماكن المجاورة والتي شاهدناها لاول مرة منذ ان غادرنا بغداد . وهذه الشواهد على الحياة والنشاط انما تعود كلية الى وجود الماء الذي عبرنا عدة قنوات صغيرة منه ، وكانت احدى هذه القنوات كبيرة بحيث نبتت الادغال على جوانبها . والحقيقة ان كل الاراضي الواطئة على ضفاف دجلة والفرات لاتحتاج الا الى الري الذي يمكن النهوض به بيسر عن طريق فتح القنوات

دجلة جاس خلال كيلان ، وهو المـكان الذى اسكن فيه خشارخيش مستعمرة من البيوتيين (الذين لا يزالون يحتفظون بلغتهم القومية) وفي طريقه الى اكباتانا ، قد شاهد الحقول التي كانت ترعى فيها خيول الملك والتى يسميها هيرودوتس نيسـيوم NISEUM ويسمى الخيول نيسانية والتي بلغت في وقت سابق مائـة وخمسـين الف رأس وكـانت في حاجة الى ان تطعـم ، ولو ان الاسكندر لم يجد اكثر من خمسين الف رأس هناك ، وان معظم الخيول الباقية قد سرقت (اريان : تأريخ حملة الاسكندر الكتاب السابع الفصل ١٣ المجلد الثاني ص ١٥٠ ARIAN : HISTORY OF ALEXANDER. SEXPEDITION B . V 11 C . 13 VOL 11 P 150

من هذين النهرين ، وتحويل تلك الاراضي الى خصب كما هو الأمر في مصر او ' احواض الانهار في الصين . ولكن بالنظر الى فقدان الماء ، واشتداد الحرارة ، وقلة سقوط الامطار حتى في موسم الشتاء ، فان هذه الاراضي قد غدت جرداء بفعل اهمالها .

بعد ان غادرنا شهربان بساعة واحدة وصلنا الى النهر الرئيس الذي كانت تتفرع منه الجداول الصغيرة في السهل ، وقد عبرناه على جسر مـــن الآجر ذي قنطرة واحدة .

يدعى هذا النهر باسم نهر خانقين وهو يأتي من بلدة قريبة تحمل ذات الاسم تقع في طريقنا ، ومن هناك يذهب ليصب في نهر ديالى ، ثم يمتد جنوبي الفرع الذي عبرناه امس . وهو مثل ديالى لايزيد عرضه عن عشرين يردا ، وجريانه بطيء ، وحوضه عميق يقع بين ضفتين عاليتين تغطيها الشجيرات .

واصلنا سيرنا من هناك في ذات الطريق تقريبا حيث وصلنا بعد ساعة سفح سلسلة تلال رملية تدعى جبل «شهربان» ويبدو انها تمثل الممر العملي الذي يمر طريقنا خلاله . وحتى هذا المرور لم يكن يسيرا .

كان المرتقى رقيقا جدا فوق طريق انتثرت فيه الحصباء . ونظرا لرقـــة الصخور ، فقد انفتحت عدة ممرات ضيقة لاتسمح بمرور حصان واحد خلالها ، وتحول دون مرور بغل موسق بالحمولة

وقد سقطت كتل صخرية كانت طبقاتها بصفة عامة منفرجة فاعاقت السير في بعض نقاط الطريق ولذلك فقد حدث ارتباك كبير لان عددنا كان قليلا . وقد تعاظم هذا الارتباك نتيجة الخوف الذي كنا نحس به من ان هذا الطريق يعد

اشد خطرا من غيره لان من السهل على اية جماعة صغيرة ان توقف الحركة فيه .

وطبقا لذلك فان اشجع الجند واخفهم حركة كانوا يتسلقون نقاطا في تلك التلال لغرض الاستطلاع ، ويطلقون نيران بنادقهم اشارة المفاخرة والزهو . ولما كانت تلك البنادق التي يحملها جماعتنا كلها من النوع الذي يشمل بالثقاب ما خلا البندقية التي يحملها رفيقي الدرويش فقد اشعلت تلك البنادق كلها . ومع اننا كنا مستعدين تماما لان نردعلى اي هجوم فان كل واحد منا كان يتقدم وجلا مرتجفا .

بلغنا في مدى نصف ساعة قمة التلال ومن هناك اصبح في مستطاعنا ان نمد ابصارنا الى السهل الممتد نحو الشرق امامنا ، واذ ظهر ان ذلك السهل كان خاليا من المارة فقد انطلقت صيحة فرح مؤذنة بزوال الخوف ، ولو ان الدموع قد حولت لحظة النجاة تلك الى حزن .

تمتد سلسلة هذه التلال بصفة عامة من شمالي الشمال الغربي الى جنوبي الجنوب الشرقي ، ولا يزيد ارتفاع اعلى نقطة فيها عن الف قدم فوق مستوى البحر . ومن قمم تلك التلال التي كانت صخرية وجرداء شاهدنا امامنا تلالا اخرى مرتفعة على مسافة خمسين او ستين ميلا وقد لفها السراب الازرق .

كان اجتياز هذه التلال منذ ان غادرنا السهل الغربي منها حتى هبطنا الى السهل الشرقي قد استغرق اكثر من ساعة واحدة بقليل ومن هنا واصلنا سيرنا شرقي الشمال الشرقي نحو مدينة «كسرى اباد» والتي اخذنا نشاهدها الآن امامنا على مدى ستة او سبعة اميال .

لقد وجدنا هذا الجزء من السهل يروى ايضاً بقنوات صغيرة تتفرع من نهر خانقين ، وعدة قطع من الارض زرعت بالذرة والقطن وقد زهت خضرتها لأن

الوقت يعد بمثابة ربيع لموسم الحصاد الثاني

التقينا هنا بثلاثة من الفرسان العرب ممن بلغت بهم الجرأة الى ان يتجهوا نحونا باقصى سرعة ، وان يلوحوا برماحهم ايذانا بالهجوم .

كنا ثلاثة ، اثنان من الفرس ممن يحملون بنادق تشعل بثقاب الكبريت ، وانا نفسي ، وقد كنت احمل رمحاً من النوع الذي كان اولئك الاعراب يحملونه ، وقد اسرعنا بخيولنا لملاقاتهم ، واذ أطلقنا طلقـة في الهواء حين اقتربنا منهم فقد امرناهم بان يتوقفوا عن السير .

اقترب كل واحد منا من الآخر بحذر ، في الوقت الذي لا تزال فيه القافلة وراءنا على بعد نصف ميل ، وقد ركز كل واحد منا ابصاره على واحد منهم بكل ماتتطلبه المعركة الحقيقية من ريبة وتيقظ ، ورفع كل واحد اسلحته استعداداً للضرب وضبط فرسه الدافئة المريبة من تحته بشدة ، وبدوا وكأنهم يستخفون يتمهلنا بسبب نفاذ صبرهم من التطلع الى الغنيمة .

واخيراً وبعد بضع كلمات خشنة تبادلنا التحية المألوفة « السلام عليكم » فاخفضنا اسلحتنا الى جنوبنا ، ورفع خصومنا اللثام عن وجوههم (حيث اعتادوا دائماً ان يتلثموا عندما يندفعون الى الهجوم ليحولوا بذلك دون ان يميزهم احد في حالات الاخذ بالثأر) ثم اعطونا اشارة الاذعان والامان وعلى هذه الشاكلة انتهى ذلك الامر .

وحين قدموا انفسهم الي باعتباري عربياً لأن كل جزء من ملابسي ومعداتي كان ينطق بذلك ، تساءلوا بلهفة عـن الغرض من رحلتي الى الشرق ، ودهشوا اذ وجدوني اقود جنوداً من العجم ، اي الفرس ممن تحدثوا عنهم صراحة بازدراء

واستخفاف بالغين

كان الجند الفرس الذين ادركوا هذا الامر واستاؤا منه ، قد غدوا الان اكثر ايذاء في تصرفهم لان وصول القافلة برمتها خلال هذه المناقشة قد منحهم باعثا اضافيا من الجرأة .

اما من ناحيتي فقد قلت باننا ما دمنا قد امسكنا بهؤلاء الرجال الثلاثة في حالة تأهب للهجوم علينا ، فلا بد ان نعتبرهم اسرى ، ونأخذهم معنا الى المدينة التالية ونسلمهم لينالوا عقابهم

على ان الجميع قد اتفقوا على ان مثل هذا العمل سيعرض القافلة التالية الى خطر بالغ لان قبيلة الجمع(٢٦)التي ينتمي اليها هؤلاء الرجال الثلاثة لن تتخلى عن الانتقام من اي فارسي يمر بهذه المنطقة ،وجرح اطفالهم وتمزيق خيامهم

ازدادت شراسة الجند الفرس عندما تكاثف الحشد من خلفهم فدفعوا بالعرب خارج الطريق حين راحوا يوخزون خيولهم بافواه بنادقهم الطويلة حيث تناول الطرفان بحرية مطلقة الشتائم والسباب ، بينا اخذ الحشد الذي شهد كل هذا المشهد من مسافة امينة يهتف هتافات الانتصار على اولئك الافراد الثلاثة الفقراء الذين غلبوا على امرهم ، دون ان تكون لذلك الحشد الشجاعة على الامساك بهم ومعاقبتهم .

ولما كانت النتيجة المعتادة تقع في حالات كهذه الحالة ، على مثل هذه الشاكلة فان المرء لا يندهش اذ يرى ان الطرق هنا غير امينة

ان جماعة من الكسالى العرب تجد ان افضل ما ينبغي لها ان تفعله ، حين تكون زوجاتهم واطفالهم قد ساقت قطعان المواشي ، ونهضت بكل اعباء نصب الخيام

هو ان تمتطى ظهور خيولها وان تقطع الطرق الكبرى التى تمـر فى تلك الاجزاء فاذا ما شاهد هؤلاء طائفة قليلة العدد او شديدة الخوف لا تستطيع رد هجومـهم غدت اصابتهم بعض المكاسب امرا مؤكدا اما اذا احبطت محاولتهم تلك على غير انتظار فانهم لا يغامرون بالاقدام على اية محاولة مادام قد صح لهم بان يحثوا السير ويغيروا طريقهم الى اتجاهات اخرى بحثا عن مغامرة اخرى اكثر نجاحا *

* * *

واصلنا طريقنا في مسيرة اسرع من ذى قبل ، وبعد ان اجتزنا عددا من الجداول الصغيرة وبرك المياه وبعض اكواخ من القش يسكنها عرب الجمع اقتربنا من مدينة كسرى اباد ، فدخلناها فى حوالى الساعة الحادية عشرة اى بعد ساعتين ونصف الساعة من اقلاعنا من السفح الشرقى للتلال التي اجتزناها ، وحوالى خمس ساعات ونصف الساعة مذ غادرنا مدينة شهربان ، وعلى هذا كان كسرى اباد تبعد ما بين ثمانية عشر الى عشرين ميلا شرقى الشمال الشرقى من تلك المدينة .

واذ مكثنا هنا طيلة اليوم تهيأت لى فرصة مشاهدة الكثير من معـالم هـذا

* ان طاقة خيول الصحراء في تحمل الاعباء والاتعاب بالغة جدا ، ومما تجب ملاحظته دوما ان هذا قد صح بوجود اراء مبالغ فيها عن هذا الموضوع في التأريخ القديم . فمن بين المؤرخين الاخرين نرى (بليني) يقول (ان السرمتيين Sarmatians (٢٧) حين كانوا يستعدون للقيام برحلة كبرى كانوا يهيئون خيولهم قبل السفر بيومين وذلك بان يمنعوا عنها الغذاء اطلاقا ولا يسمحون لها الا بالقليل من الماء . وبهذه الوسيلة قيل عنهم انهم كانوا يستطيعون ان يقطعوا بها مسافة مائة وخمسين ميلا من دون ان يفكوا لجامها .

بليني : التاريخ الطبيعى الكتاب الثامن صفحة ٤٢

المكان في جولة عند المساء . وهذه البلدة ، كالمحطات الاخرى التي مررنا بها قبلا محاطة باشجار النخيل . وكانت المدينة اكبر من المدن المتقدمة وهي تضم حوالى الف منزل، وثلاثة الآف من السكان القيمين فيها والمنازل كلها صغيرة ، مبنية من الطين وقد استعمل الاجر في بناء مداخلها وهي اكثر تقاربا من المساكن التي شاهدناها في القرى التي سلف ذكرها وتؤلف فيما بينها شوارع منتظمة توجد فيها سوق عامة واحدة ونزلان

وفي الركن الجنوبي من المدينة ارض مرتفعة قامت عليها بيوت عالية وهي ترى من مكان ابعد بالنسبة الى البيوت التي قامت في السهل . والى الشرق من المدينة يقوم تل مماثل الى جنب مقبرة ، في حين تمتد بساتين واسعة الى الشمال .

وتسقى جميع الاراضي المجاورة اصطناعيا بقنوات تتفرع من نهر خانقين حيث تتوفر التمور والبطيخ والرمان واليقطين . ولغة السكان كلهم تركية وهم من طائفة السنة . وينبعث الاذان من مسجدين في المدينة ولو انني شاهدت واحدا منها قد وهن بناؤه وليست له مئذنة .

وتخضع المدينة لنفوذ بغداد ، ومعيشة السكان فيها تعتمد على فلاحة الارض وتجهيز القوافل التي تتوقف عندها في طريقها بين ايران والجزيرة العربية .

السابع من ايلول: كانت الريح الهابة من التلال الشرقية باردة وموخزة اثناء الليل ، واذ رقدت على سطح احد البيوت ومن دون غطاء فقد احسست بالبرد تماما . ثم ايقظت الدرويش من نومه اعتقادا مني بان القافلة ستتحرك في ساعة مبكرة كما كان ذلك شانها امس .

غير انه ما ان اسرجت خيولنا ، وحذا قلائل آخرون حذونا مدفوعين بنفس ما اعتقدناه ، حتى دهشنا اذ وجدنا القسم الاكبر من جماعتنا لا يزالون يغطون

في نومهم ، بينا استيقظ آخرون منهم دون ان يتهيأوا للرحيل . وازدادت دهشتنا عندما علمنا بعد الاستفسار بانهم لايعتزمون الحركة في هذا اليوم لانهم سمعوا انباء عن وقوع اضطرابات في الطريق .

فقد قيل ان «داود افندي» ، دفتردار باشا بغداد ، قد خرج على رأس قوة يبلغ تعدادها خمسة الاف نفر هيأها وكيله مسبقاً ، فاعلن الثورة واعتزم انتزاع المدينة من سيده السابق من دون ان يعرض اي عذر لاقدامه على مثل هذه الخيانة كما هو شأن هذه البلدان التي يعتبر الحكم فيها صحيحا مهما كان المذهب المخالف الذي يروج له اولئك الذين يشعرون بضعفهم .

ليس من السهل ان ندرك مدى ما يتركه مثل هذا العمل من تأثير على سلامة الطرق الممتدة الى ناحية الشرق منا ، ولكن مثل هذا يتحدث عنه الزوار المرهقون وهذا وحده يكفي لنشر الهلع بين جميع الذين يطرقون ذلك الطريق .

ومع اننا حين نهضنا من النوم قد وجدنا عددا متهيئين للسفر وقد عرضنا عليهم ان تنضم اليهم ان هم سافروا ، الا اننا لم نر في النهاية شخصا واحدا يرغب في السفر معنا ولذلك اضطررنا ان نخلد الى السكون .

استبد بي السأم والملل لانه لم يكن معي كتاب ولارفيق ، ولان صاحبي الدرويش قد اشغل نفسه بما تعرضه المدينة من متع ، ولذلك كان الوقت جد ثقيل علي .

واذ حجزته قراية نصف ساعة عند الظهيرة طلبت اليه ان يكتب لي بعض الكلمات الفارسية ويضع قبالتها ما يقاربها من الكلمات العربية وذلك في كتاب ابيض كان معي . وهكذا شرعت اتعلم لغة لم اكن حتى الآن لاعرف اي شيء عنها عن طريق لغة وان كنت اتحدث بها بطلاقة ، فانها كانت هي الاخرى جديدة علي

كلفة للكتابة .

ومنذ ان بدأت اتجول بين صنوف متباينة من الشعوب التي تتحدث بالعربية غدا تفوقي في هذه اللغة اكثر بكثير في هذه الحظة ومع ذلك فلم اكن اتذوق النثر بشكل واف في اي وقت او مكان كما الزم نفسي بدراسته من ناحية القواعد . ونظرا لاختلاف اللهجات التي تنقسم اليها هذه اللغة ، واختلاف الكلمات ذاتها ، وطريقة النطق بهـا في مصر ، وجزيرة العرب ، وفلسطين ، وسوريا ، وفيما بين النهرين ، فقد وجدت ان من الصعب علي ان اتعقب مثل هذه التغييرات لاعـبر عما اريده بطريقة لا اخدع نفسي باني غريب عنها

فالقرآن الذي اهدانيه الدرويش في بغداد ، والذي وعـدني بان يعلمني قراءته في الفترات التي تحدث اثناء مسيرتنا ، قد سرقه مني بعض المسافرين معنا في قافلة الزوار هذه . لقد كـان هذا القرآن في اصغر حجم يمكن ان يكون فيه ، ومع ذلك كـانت قراءته ممكنة لانه كتب بخط جيد

كـان قد كلفني ستين قرشا . وكـان ملائمـا للغرض الذي اريده بشكل يدعو الى الاعجاب . فقد كان محفوظا في كيس امين كنت احمـله الى جنبي طيلة النهار ثم اضعه اثناء الليل تحت رأسي مع بقية الاشياء التي اريدان تكون تحت متناول يدي رأسا .

وحينما رآني عدد من جماعتنا اتفرس فيه في اوقات مختلفة ، لم يكن هناك ادنى شك في ان ذلك قد اجتذب طمع واحد منهم ربما كـان اكثر ورعا من البقية حيث برر لنفسه الاقدام على سرقته بحجة تقديره الوافي لقدسية هذه الهدية ، وان قدسيته تلك تنهض عذرا كـافيا لسرقته

ان مثل هذا التبرير قد يبدو خاليا من الاحساس والمنطق في نظر اولئك الذين ينظرون الى الامور نظرة لاتحيز فيها . ومع ذلك فان مثل هذا نجده يقع غالبا بين رجال الدين من المسلمين ، حيث تدعم قضية الله ورسوله بالارهاب والاضطهاد وحيث تسير العبادة والخيانة فى الشرق ، كما هـو الامر في الغرب ايضا ، جنبا الى جنب (٢٨) .

واذ اكتشفت سرقة القرآن فقد بدأت التحريات الدقيقة عنه ولكن من دون جدوى قد تؤدي الى استرجاعه . ذلك لاننا لم نكن من القوة بدرجة نستطيع معها ان نصر على تفتيش امتعة المشتبه بهم كما اننا لم نكن اغنياء بحيث نستطيع ان نرشي الضابط المسؤول عـــن هذا الواجب ولذلك ضاع كل امل لدينا في العثور على السفر المسروق

سمعنا اثناء النهار ان بعض العرب قد هاجموا مكانًا قريبا من المكان الذي كنا فيه . كما سمعنا انباء عن الوضع الراهن في بغداد ولقد اعطيت تفصيلات دقيقة وكثيرة عن هذه الاحداث ما لم يدع لنا اى مجال للشك في صدقها

غير انه ما لبثت بعد ساعات ان وصلت الى هنا قافلة قادمة من الشـــرق فنفت تلك الانباء ذلك لان القافلة مرت بذلك المكان الذى ذكر اسمه من دون ان تسمع شيئا عن حادث كهذا

اما اولئك الذين اموا الان باخبار الطريق من بغداد ، والذي اثار الخبر الذي سألناهم عنه استغرابهم ، فقد صمموا على ان يتوقفوا هنا برهة من الوقت ولو ان الانباء التى تلقوها منا ، وكما نعلم نحن ايضا ، كانت نتيجة اشـاعة لا حقيقة لها وكانوا انفسهم واثقين من عدم صحتها

واذ تأكد لدينا الان بصفه ايجابية ان طريقنا مأمون فقد توقعت ان لا نتعرض الى تأخير اكثر . لكن اكثرية جماعتنا الذين وجدوا ان متابعة السفر لا تؤمن لهم فوائد كبيرة ، كانوا قد صمموا على اطالة مكوثهم هنا

وفي جولة عند المساء قبل غروب الشمس بساعة تقريبا ، وبارشاد من احد المواطنين في ذلك المكان ، وبمصاحبة درويش ايضا ، صعدنا ركاما عاليا من خرائب يقع على بعد ميل الى الشمال الشرقي من المدينة

لقد كان ذلك الركام في شكله وحجمه يشبه « جبل مقلوب » القصر المحصن المزعوم في بابل ما عدا اختلاف واحد هو ان هذا الركام اقل ارتفاعا من القصر البابلي ، وان الابنية التي كانت تحتل ، في يوم ما هذا الموقع قد انهارت فاصبحت مساوية للارض تقريبا . على انها كانت في ارتفاع يكفي لتشكيل اثر واضح فوق التل شاخص للعيان يمكن مشاهدته من مسافات بعيدة ، وان الجزء المرتفع منه يعلو حوالى اربعين الى خمسين قدما فوق المستوى المعتاد

كان هذا التل يسمى من قبل سكان ذلك المكان باسم (غاوور تبه‌سى) اي (تل الكفار)

ولقد اكد دليلنا كما ايده اخرون من ذات المكان ممن سألناهم عنه فيما بعد ، بانه قد اجريت بعض التنقيبات في اعلى ذلك التل ، وعثر على جدران الخرائب وفيها تماثيل صغيرة من النحاس بعضها يمثل رجالا جالسين فى وضع خاص من دون اية مقاعد تسندهم حيث بدالى مما تحدثوا به من اوصاف تلك التماثيل واحجامها ومادتها ومواقفها ، بانها قد تكون من ذات النوع الذى تضمه مجموعة المستر ريج من التماثيل البابلية

واذ فحصنا سطح التل وجدنا أن اجزاء كثيرة منه قد حفرت ، وان اقساما من البناء الفخم قد شيدت بالاجر الواسع الاحمر اللون ، وبطبقات سميكة من ملاط الجبر وغيرها مما يبدو انها كانت اما نوعا من معجون المرمر ، او شكلا خاصا من الرخام الابيض .

لم تكن هناك اية مظاهر للسور الخارجي الذي كان يحيط بالبناية كلها وان كان من المحتمل وجوده تحت الانقاض . ويبدو ان الجزء الداخلي من البناء كان يتألف من عدة بنايات صغيرة مثل قصر بابل ذاته

والواقع ان ابنية مماثلة لهذا البناء لا تزال تشاهد في انحاء الشرق حيث تضم المرافق الداخلية ضمن المنطقة كلها ويكون هناك منزل رئيس لها

واذ كنت احمل الحك معي وزعمت انني اريد ان استعمله بقصد التأكد من الجهة الصحيحة لاتجاه الكعبة بغية اداء صلاة المغرب ، فقد استطعت ان اظفر من ذلك الموقع على تقدير لمدى الاثار المحيطة به حسبما ترى من هناك *

---

* تقع مدينة كسرى اباد من هنا على بعد ميل واحد من الجنوب الغربي الى الجنوب . وتقع مدينة «طواق TEWAK (٢٩)ذات النخيل غربي الجنوب الغربي بخمسة اميال . وتقع مدينة [بردان BARDAN (٣٠) بتلها العالي الى الغرب بخمسة اميال

اما التل الذى يدعى (نمرود تبه سي) فيقع الى الجنوب الغربي بنصف ميل . في حين ان التل الذي يدعى (شاه تبه سي) يقع الى الجنوب في شرقي نصف الشرق لمسافة ربع ميل فقط

والى الشمال وعلى بعد ثمانية او عشرة اميال يوجد سفحان لتلال واطئة تمتد باتجاه الشرق والغرب ، كما تقتطع الافق الشرقي سلسلة من الجبال الممتدة من كردستان الى لورستان ، وتقسمان العراق العربي في الغرب عن العراق العجمي في الشرق

وجدول الماء الذي عبرناه بحوالي ساعة قبل ان ندخل « كسرى اباد » ، والذي كان يسمى هناك «نهر الخانقين» ، على اعتقاد انه نفس الجدول الذي يجري في ذلك المكان ، هذا الجدول يدعى هنا باسم «غاوور صو » ، اي نهر الكفار ، وانه يتعلق بصفة واضحة ، بما يعرف باسم « غاوور تبه سي » وهو التل الذي كنا نقف عليه . . .وكان الجدول يشاهد من هناك وهو يجرى من الشمال الشرقي عبر سهل جميل .

كان الجدول ذاته يرى ممتدا من ناحية الشمال الى الغرب ، وقد بانت ضفافه بوضوح في مسراها لانها كانت مغطاة بالخضرة بالاضافة الى وجود قطع من الاراضي المزروعة الخضراء على جانبي الضفاف .

كان هذا الجدول يبعد عن الخرائب المذكورة باقل من ميل ، وقيل انه ربما كان يغطي الطريق الممتد اليها من الشمال الغربي . وهذا الاعتقاد الذي عززه، بشكل ملموس ، مظهر تلك الخرائب ذاتها ، واسمها ــ هو نفس اسم الجدول الذي يمر بها ــ بالاضافة الى التماثيل والنقود التي وجدت فيها ، كل هذا قد حملني على الاعتقاد بان تلك الخرائب هي بقايا قصر «داستاغرد» الشهير

يقول المسيو دانفيل في كتابه تذكرة عن الفرات ودجلة « حين يتطرق الى ذكر حملة هرقل HERACLIUS ضد فارس وهرب كسرى CHOSROES الذي انتهت به تلك الحملة ، يقول دانفيل « ففي تلك الحملة عبر هرقل بنجاح الزاب

الكبير والزاب الصغير * ونهرا ثالثا يدعى « تورنا TORNA وهـذا يحمل على الظن ، وكما يتضح ذلك من تشابه الاسماء بان هذا النهر هـو نهر تورناداتوم TORNADATUM الذي ذكره « بليني » *

اما النهر الذي سماه زينوفون باسم فيسكوس PHYSCUS ، وسماه بطليموس باسم غورغوس GORGUS وسماه تافرنيه TAVERNIER باسم « اودوان ODOINE ودعاه دانفيل باسم « اودورنية (٣١) ODORNEH ، المعتقد انه هو نفس هذا النهر . ذلك لانه لم يظهر من كل الاسماء التي ذكرت اسم يشبه اسم

---

* في حملة كورش CYRUS ذكـر اول هـذه الانهـار باسم زاباتوس ZABATUS وقيل عنه ان عرضه يبلغ اربع (بليترات) اغريقية وفي ملاحظة عن هذا الطريق وجد ان زاباتوس او زابوس ZABUS ، والذي سماه الاغريق باسم ليكوس LYCUS ، يحتفظ باسمه الاصلي وهو زاب ZAB

GEOG . ANT . TOM I1 P 243 EXPEDITION DE CYRUS DAN L'ASIE SUPERIEUR ET LA RETRAIT DE DIX MILLES PAR M. LARCHER PARIS 1778 TOM 1 L 2 - 12

الجغرافيا القديمة مجلد ٢ ص ٢٤٣
حملة كورش في اسيا الكبرى وتراجع العشرة الاف
ـ باريس مجلد اول الكتاب ٢ ـ ١٢ ص ١٤٨

* عندما تحدث بليني عن انطاكيه ANTIOCHA التي ظن انها هي مدينة اوفيس OPIS التي ذكرها كل من زينوفون وسترابو ، قال عنها بانها تقع في الوسط ما بين نهري دجلة وتورناواتوم

ديالى بشكل مؤكد . كان موضعه كنهر ثالث مابين نينوى وطيسفون الواقعة على الضفة الشرقية من دجلة ، قد يؤلف دليلا محققا اكثر من الاسماء التي تتغير تبعا لكل مؤرخ ولكل عصر

فالنهر المذكور يدعى بالنهر الثالث بعد عد الزابين الاكبر والاصغر باعتبارهما النهران الاول والثاني . وبين هذا الاخير وديالى لايوجد نهر آخر معروف الآن ويستحق ان يسمى نهرا . ولهذا فان ديالى هو النهر الثالث المقصود سواء سمي ديالى او اطلقت عليه اسماء اخرى متغيرة .

ويمضي دانفيل في الاستقصاء عن موقع داستاغرد * والقصر الذي ظل لمدة عشرين سنة مفضلا لدى ملك فارس على قصر طيسفون فيقول (كل ماتستطيع قوة ملك عظيم ان تحققه في توفير الذوق الاسيوي الرفيع قد تم ايجاده هنا . اماالصفحة الرائعة من التأريخ فقد قذف بها بعيدا فيما وراء حدودها الصحيحة وذلك بسبب تعدد اغراض الدولة ، والمجد الذي تكدس هنا كما يشبع الذوق المتخم للملوك *

---

* ورد في يوميات باسكال PASCAL (٣٢) هذا الاسم بشكل داستاغر خوسر DASTGECHOSAR وذلك طبقا لما اورده ثيوفانوس TEORHANUS (٣٣) وسيدرنوس CYDRRNUS (٣) . واذا كان هذا تحريفا لاسم واستاغرد فان كلمة قصر KASAR انما تعني في لغة اهل البلاد قلعة او قصر داستاغرد

** كان ابرويز PARVIZ (٣٤) يحتفظ في قصره بالف فتاة يافعة جميلات كالاقمار تنبعث منهن روائح العنبر الذكية . وكذلك كان لديه مئتان من الفيلة، وكميات من الذهب التي يمكن طيها من دون استعانة =

ولكي يثأر لنفسه من الكوارث والنكبات التى عانتها امبراطوريته بسبب غارات كسرى عليها فقد امر هرقل بنقض ذلك القصر ، وجعل كل ما كان يحفل

= بالنار ، وخمسون الف رأس من الخيل تأ كل الشعير في اصطبلات خاصة بها والفان من الوعول تستخدم لحمل المتاع الذى يضمه منزله .

وقد اشتهر احد خيوله في التأريخ ، ويدعى شبيز SHEBIZ بان سرعته في الجري كانت تفوق سرعة الريح

وكان لدي ابرويز ايضا احد الموسيقيين ويدعى ربربانو BARBANO والحديث واسع عن الاشياء النفيسة التى كان يملكهـا ذلك الامير وهو رجل شديد الحساسية لم تبدر منه كلمة خطأ في كل ما كان ينطق به

(مذكرات عن اثار فارس للمستر سلفستردى ساسى باريس مجـلد ٤
MEMOIRES SUR LES ANTIQUES DE LA PESSE PAR DE SACY .

ويشيدون كذلك بعظمة بلاطه وفخامته وبضخامة ما يحـــويه من خزائن وكنوز .

فلقد كان ذلك البلاط يضم بين جوانبه دواما خمسة عشر الف موسيقار وستة الاف ضابط من ضباط الحرس ، وخمسة وعشرين الف وخمسمائة رأس من الخيول والبغال الجيلة ، وتسعمائة وستين فيلا لحمل الامتعة

وحين كان ابرويز يمتطى صهوة جواده يصحبه مائتا فارس مزودون بالمجامر او مجارق العطور ، والف شخص اخرون يحملون الماء للاسقاء اثناء الطريق اما المقتنيات الثمينة والعجيبة التي كان يقتنيها فلسنا بقادرين على ان نذكر هنا عن مناديل الايدي التى كانت تلقى في النار بعد ان يمسح يديه بها ، فلقد كان من دون ريب هو الذي اوجد صناعة =

به من حلي ومباهج طعما للنار .

لقد قيل قبلا ان ديالى كان من بين الانهار التي عبرها هرقل من دجلة في مسيرته الى داستاغرد . ولذلك تطرق الحديث الى نهر رابع قيل انه عميق الغور رائق الماء يجري في منطقة قريبة من القصر تمتد نحو الشمال الغربي في ذات المستوى الذى تمتد به الارض بين نينوى والزابين الاكبر والاصغر

ويستمر هذا المؤرخ الجغرافي نفسه فيقول «قرأنا في كتب التأريخ ان هرقل عندما قام بثلاث مسيرات قبلا من داستاغرد وجد نفسه على بعد اثني عشر ميلا من نهر يدعى (اربا ARBA) (٣٥) كان الجيش الفارسي قد تجمع بالقرب منه وعند ضفته الجنوبية بصفة مؤكدة ، وذلك لكي يكون على مقربـــة من منطقة طيسفون *

ولذلك توفرت لدينا هذه المعلومات الاخرى لكي ترشدنا في بحثنا عن موقع داستاغرد . فاولا انها تقع في مكان لائق كما تهيمن بذلك على كل ما يسر بـــه الذوق الشرقي من توفر الشجر والماء والظل وما شاكل ذلك .

= الحرير . وفي خلال حكمه ادخل الفيلة البيض الصغار الى بلاد فارس (انظر لاجل الاستزادة « رحلة شاردان : باريس سنة ١٨١١ جـزء ١٠ ص ١٨١)

* يبدو مؤكدا من الوضع المحلى ان نهر اربا هذا كان يجرى من ناحية الشرق الى ديالى قبل ان يلتقى هـذا الاخير بنهر دجلة · ذلك لانه لا يوجد بين ديالى وطيسفون اى نهر في الوقت الحاضر كما لا يوجد اى مجرى واضح لنهر قديم هناك

وثانيا كان من الضروري عبور الانهار الثلاثة وهي الزاب الاكبر والزاب الاصغر وديالى في مسيرة نحو داستاغرد من طيسفون اوضمن عشرين ميلا على الاقل من المدينة ذاتها

ويتفق موقع الخرائب هنا في غاوور تبهسى او تل الكفار بدرجة واسعة من الدقة والصحة مع كل هذه التفصيلات . ذلك لان الوادي الواسع الذى تقع فيه هذه الخرائب يمكن ان يقال عنه انه واد شهير . ولابد من عبور الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى فى مسيرة تبدأ من نينوى او من الموصل الى حيث تقوم خرائب تلك المدينة القديمة هناك

فالارض المتصلة بها يغطيها مـن الناحية الشمالية الغربية نهر عميق صاف يدعى « غاوور صو » او نهر الكفار . والمسافة التي يمكن قطعها فى مسيرة ثلاثة ايام من هناك الى بعد اثني عشر ميلا من النهر الذي يغمر الاراضي المتصلة بطيسفون ، هي اقرب تقدير لمسافة يستطيع المرء ان يتوقعها ، ما دامت المسافة الصحيحة لذلك النهر الذي قيل انه يقع ضمن ثمانية او عشرة اميال غير معروفة اذا ماظن بان مثل هذا النهر كان فرعا من ديالى *

* يبدو ان دانفيل قد اختلط عليه تعدد الاسماء التي اطلقت على هذا النهر ولهذا نراه يتحدث عنه في بعض الاحيان وكأنه نهـران منفصـلان احدهما عن الاخر

فهو بعد ان يقول (لقد قرأنا في التاريخ ان هرقل قد قـام بثلاث مسيرات نحو داستاغرد ، وانه وجد على بعد اثنى عشر ميلا نهرا يدعى (اربا) كان الجيش الفارسى قد تجمع عنده ليحمى الاراضي المتصلة

ان اسم المدينة الحالي ، وهو كسري اباد ، يؤكد بانها كانت قد اسست اوسكنت من قبل «كسرى» وهو اللفظ العربي لاسم خسرو

= بطيسفون ، يلاحظ قائلا (لقد قيل لنا بصفة مؤكدة انه في اسفل بغداد ، وعلى مسافة قليلة في اعلى المدائن يلتقى نهر دجله بنهر عريض يطلق عليه الاقدمون اسم نهر (ديلاس DELAS (٣٦) وهو يختلف في الكتابة دائما عن (ديالى) . ويضيف الى ذلك قوله (ولما كان احد لم يستطع ان يذكر ان هرقل قد عبر هذا النهر فان الذى يستنتج من هذا انه كان موجودا في وقت وقوع تلك الحالة ، وان كسرى لم يعش جريمة ابنه شيرويه SIROES (٣٧) لان هذا هو الذى وقع المعاهدة التي ادت الى نهاية تسلح الامبراطورية) دانفيل (الاغريق ضد الفرس ص ١٠٤ وملحق الكتاب الرابع .

D'ANVILLE : GREC CONTRE LE PERSAN P 104

غير اننا رأينا قبل ذلك ان هرقل لابد وان يكون قد عبر نهر ديالى لكي يدمر قصر داستاغرد لانه ، حسب كلمات دانفيل ذاته ، هو النهر الذي كان يغطى الاماكن التي بلغها هرقل ، وكان اسمه في القديم « ديلاس » وهو لا يزال يحتفظ حتى الان باسم (ديالى)

هناك دليل يؤكد امتزاج النهر ذاته مع نهر اخر وذلك لانه يظهر في موقعين مختلفين وباسم واحد. فاذا كان نهر ديالى قد تم عبوره للوصول الى داستاغرد ، فلا بد من وجوب عبوره مرة اخرى قبل ان يصل الجيش الى الانحاء السفلى من الارض التى تغطى نواحى طيسفون والتى لم يرد ذكر بانها قد اجتيزت مرة اخرى حسبما اتذكر

كما يظن وذلك لتعزيز الافتراض القائل بان هذه المدينة كانت مقر قصره المفضل لديه والذي كان يقع في سهل جميل محاط من جوانبه الثلاثة بالتلال ، كما تحيط به من

= ومع ذلك فان (ديالى) يعد النهر الثالث بعد عبور الزابين الاكبر والاصغر من نينوى ، وان النهر الذى يجرى في ضواحى داستاغرد قد قيل عنه انه هو النهر الرابع

ومهما يكن الامر فلست اعتقد ان نهر (اربا) هو نفسه نهر (بروتيوس PROTIUS(٣٨) كما اعتبره دانفيل هكذا ، وانما هو نهر اخر يصب في هذا النهر وقد ذكر في الخرائط باسم (افت اب AFIT AB (٣٩) ولو انني لا اعرف اى شيء عن وجود نهر بهذا الاسم من اي مصدر اخر

فالفرع الذى يجرى بازاء مدينة صغيرة تدعى (امام اسكى) (٤٠) في الطريق من بعقوبة الى مندلى - كما ورد ذلك في خريطة فارس للمستر كنيير - قد يكون هو نفس هذا النهر لانه يتفرع من نهر ديالى ، ولو ان استمرار هذا الفرع ليس مؤشرا على الخارطة ذاتها

ولا بد من الاعتراف بوجود ارتباك كبير بين تواريخ القدامى وبين الرسامين المعاصرين حول موضوع مثل هذه الظواهر المحلية الصغيرة لبلدان بعيدة نائية مثل هذه البلاد .

لكننا قد نقول تأييدا لما قاله الميجر رنل RENEL وهو (ومع وجود شيء من عدم الدقة فان من المدهش ان تستطيع تصوير الافكار الجغرافية لاناس هم في مصاف الدرجات العليا من المؤرخين ، والمحاربين والفلاسفة ، عن بلد غدت تقسيماته ، تؤلف فيها بعد ، موضوع تخصص من امثال اواسط افريقيا ومجرى انهارها ، في الوقت الحاضر)

الشرق جبال عالية تشرف على منطقة واسعة تتمتع بجو فاخر ، ولاتفتقر الا الى يد ذواقة مجدة لتحيلها الى افضل مكان يمكن سكناه

اما متانة هذا الموقع فلا يستطيع سوى الفن ان يصورها لانه لم يحرم من اي شيء تحفل به الطبيعة

ومع انه يبدو من المعقول تماما ان يكون مثل هذا الموقع الذي يحوي كل هذه الكنوز الهائلة ، والتي قيل ان داستافرد كانت تضمها في وقت من الاوقات ان مثل هذا الموقع يجب ان يكون محصنا تحصينا قويا ، فان في استطاعة المرء ان يدرك من سرعة قرار الملك الذي تخلى عنها الى الامبراطور الاغريقي ، بان وسائل دفاعها لم تكن قوية جدا *

ومما تجدر ملاحظته هنا هو ان داستافرد قد ذكرت على اعتبار انها ليست

---

* تم ايداع الكنوز الهائلة من الذهب ، والفضة ، والجواهر ، والحرير والعطور في مائة قبو تحت الارض وفيها نافذة صغيرة في الاعلى لدخول الهواء تشير الى الهبة الطارئة التي جاءت بها الرياح حيث قذفت بالغنائم التي جلبها هرقل الى احد الموانيء السورية التي تخضع لحكم احد اعدائه. فالنفاق وربما الكذب لم يخجلا من ان يزعما بانه كان في ذلك القصر ثلاثون الف ستارة ثمينة تغطي جدرانه وكان فيها اربعون الف عمود من الفضة او على وجه الدقة ، من المرمر والخشب المصفح بالفضة تسند السقف . وكان هناك الف مصباح ذهبي يتدلى من القبة ليبرز حركات الكواكب ومجموعة دائرة فلك البروج في تلك القبة

(جيبون : المجلد الثامن فصل ٤٦ ص ٢٢٥

GIBBON : VOL VIII C . 46 P225

سوى احد القصور ، ولم ترد اية اشارة عن وجود مدينة قائمة بالقرب منها* مما يتفق والمظهر الحقيقي للموقع ، حيث لا توجد خرائب اخرى غير هذه البنايات المنعزلة التي ذكرت قبلا ، تقوم بين التلال التي اخذت اسماءها من ذلك الموقع +

---

* لقد تمتع كسرى بثمار انتصاره ، فاخلد بصراحة الى الراحة في قصره وتخلص من مشاق الحرب . لكنه ظل قرابة اربع وعشرين سنة يأبى الاقتراب من ابواب طيسفون ، اما بفعل خرافــة او بسبب الغيظ وكان مقامه المفضل لديه هو (ارتميتـــا ARTEMITA (١) او داستاغرد التي كانت تقع خلف نهر دجلة وعلى بعد ستين ميـــلا الى الشمال من العاصمة .

وكان يقف باطراد امام القصر ستة الاف فارس من رجال الحرس ممتطين صهوات جيادهم . وكان ينهض باعباء الخدمة داخل ابهاء القصر اثنا عشر الف عبد وثلاثة الاف فتاة عذراء من اجمل بلدان اسيا وكانت الحظية السعيدة تواسي سيدها بشأن عمر ولده شيرويه او الاختلاف فيه (جيبون : المجلد الثامن . الفصل ٤٦ صفحة ٢٧٤)

+ لم استطع العثور على اى ذكر لداستاغرد في كتاب دربيـــلو (٤٢) D,HERBELOT المعنون ، الفهـــــارس الشـــرقية BIBLIOTHEQUES ORIENTALE ولو ان مرخونــــد MIRKHOND (٤٣) قد ذكر حيـــاة كسرى مالك داستاغرد بالتفصيل . على ان جيبون الذى تهيأت له فرصة الاستئناس باراء احسن الثقات ، يتحدث عن داستاغرد على اساس انها قصر ، او مكان للراحة وليس كمدينة ، وانه كان يجمع بينها وبين ارتميتا من دون ان يعطي

عدنا عند الغروب من طريق الحي الغربي للمدينة ، فاستدرنا حول البساتين ثم سرنا عائدين بامتداد ضفتي قناة تتفرع من جدول غاوور صو الذي يجري على

= اي سبب لم ينشأ عنه اي خلاف قبلا . فبعد ان يصف هذا المؤرخ الذي دون حملة هرقل الثالثة سنة ٦٢٧ بعد الميلاد ، نتائج الانتصار في معركة نينوى بالنسبة للاغريق يقول (ان نشاط هرقل لم يكن اقل اعجابا في الافادة من النصر الذي احرزه ففي مسيرة طولها ثمانية واربعون ميلا في مـدة اربع وعشرين ساعة ، استطاعت طليعة جيشه ان تحتل الجسور المقامة فوق نهري . ـ الزابين الاكبر والاصغر حيث فتحت مدن اشور وقصورها لاول مرة امام الرومان، وتسلل الرومان بعد ذلك في مراحل تدريجية مهمة الى داستاغرد . ومع ان الكثير من الكنوز التي كانت فيها قـد نقلت وان الشيء الوفير منها قد تبدد ، فان الثروات الباقية في الموقع كانت تتجـاوز امال الرومان ، وكانت تطغي على جشعهم

وواصل هرقـل مسيرته من قصر داستاغرد وضمن اميال قلائل من المدائن MODAIN او طيسفون الى ان توقف عند نهر (اربا) وذلك لصعوبة عبوره وشدة وطأة الجو وربما بسبب الشهرة التي كانت تتمتع بها العاصمة التي لا تقهر)

جيبون : م ٨ ف ٤٦ ص ٢٥٠

: تطلق كلمة غاوور من قبل الاتراك على الكفـار بصفة عامة . وقد استعملت هذه الكلمة بهذا المعـنى في الذات في احدى قصائد (لورد بايرون) (٤٤) الجميلة . ويظن البعض ان الكلمـة تحريف لكلمة

مقربة من الاسوار في حين ترتوي المدينة والبساتين المجاورة لها من تلك القناة

وحين استفسرنا هنا مرة اخرى عن النهر قيل لنا ان بعقوبة تقع على نهر ديالى الرئيس ، وان شهربان تقع على جدول صغير يتحول الى نهر فيها بعد غير ان نهر غاوور صو يختلف عن هذه الانهر كلها لانه يلتقي بدجلة ولو ان احدا هنا لا يعرف على وجه الدقة نقطة التقائه تلك .

= غوبر GUEBR اى (عابد النار) التي تطلق على اتباع زرادشت ZOROASTER (٤٥) وهم من اول الكفار الذين امتشق المسلمون السلاح بوجههم)

(مالكولم : تأريخ فارس : المجلد الاول صفحة ٢٠٠

MALCOLM History of Persia VOL : I P . 200

ويقول تافرنية TAVERNIER لقد تعرفت في اصفهان سنة ١٦٤٧ م الى واحد من الغاوور ، اولئك الفرس القدامى الذى كانوا يعبدون النار) ثم يعود فيقول ثانية (لقد مررت الان باصحاب ديانة الغاوور او الغوبر Gaures ou Guebres

(رحلة تافرنية . للمسيو بريتون : باريس سنة ١٨١٠ في اثنى عشر ايار : المجلد الاول ف ٥ ص ١٠٨ والمجلد الثاني ف ٣ ص ١٣٨

Voyages Des Tavernier . Par Preton Paris . 1810

ويقول لا نغل(٤٦) Langles المستشرق الفرنسي الشهير ان كلمة « غاوور » تحريف لكلمة « كفـور Ka our وهو احد جموع الكلمة العربية « كافر » رحلة شاردان : باريس « ١٨١١م مجلد ٨ ص ٣٦٥ Voyage De Chardin Paris 1811

وقيل ايضا ان ايامن هذه الانهر ليس هو ذات النهر الذي يطلق عليه اسم خانقين . لان هذا النهر الاخير ، كما قيل لنا قيل انا قبلاء يسميه البعض باسم « سرو ند SIRWUND » والبعض الاخر باسم سلوند SILWUND » في حين يسمونه في قصر شيرين ، وفي سربول SIRPOOL [17] التي تقع الى الشرق من هنا باسم اروند ERWUND أو « الوند BLWUND [23] وهو نفس التغيير في الحروف *

---

* لقد ادمج « موربير » (٤٨) في رحلاته ببلاد فارس كل هذه الانهار في نهر واحد واطلق عليه اسم « الوند » الذي ذكر عنه انه يمتد الى بعقوبة ، وذلك في حديثه عن الطرق التي تمر بها تلك الانهار ، وهذا خطأ واضح . كذلك حصل عنده سوء في التهجئة بالنسبة لاسماء بعض الاماكن . على ان صعوبة الحصول على معلومات صحيحة عن اشياء لا يستطيع الباحث ان يراها بنفسه في هذه البلدان والتزامه بتدوينه في ذات الموقع ، يكفي عذرا لوقوع اغلاط اكبر من هذه .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل السادس عشر

(١) كسرى اباد : هي مدينة « قزلرباط » وقزرباط والكلمتان تحريف واضح لكلمة كسرى اباد التي تعني ، مدينة كسرى : او خسرو . وقد سميت مؤخرا باسم ناحية السعدية ، نسبة الى القائد الاسلامي الكبير سعد بن ابي وقاص (رض) وهي الان ناحية تابعة لقضاء خانقين وتبعد زهاء ثلاثة وثلاثين كلومترا عنها

(٢) عرفت البصرة لدى الرحالين والمؤرخين الاوربيين باسم بصورا BASSORAH كما سماها بعضهم باسم بلصرا BALASRA

(٣) يقصد به الامام موسى الكاظم الذي اقيم فوق ضريحه المشهد الكاظمي .

(٤) يقصد به رسول المسلمين الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم .

(٥) جهل المؤلف عامدا ام غير عامد، ان اداء فريضة الحج هي احد الاركان الخمسة التى قام عليها الاسلام ولا مجال للتسامح في اى منهـا عند توفر المقدرة على ادائها وان تحمل المخاطر العديـدة في سـبيل الوصول الى مكة المكرمة لاداء الحج فيها ما كان ليثنى الكثيرين من المسلمين عن اداء تلك الفريضة الاساسية .

(٦) عشيرة بنى لام من العشائر المعروفة في العراق وهي تسكن على ضفاف دجلة في المنطقة الممتدة من العمارة الى شيخ سعد وتنتشر حتى حدود ايران مع بدرة الى الحويزة ويقول عبد الرزاق الحسنى في كتابه (العراق قديما وحديثا : ص ١٩٧) ان شيخ بنى لام كان في وقت من الاوقات شيخا على الكوت

(٧) بئر اورتا هي البئر التى تقع شرقي بغداد على الطريق القديم بينها وبين بعقوبة وقد انشيء مخفر للشرطة عند هذه البئر يعرف الان باسم نقطة شرطة البير ولا يزال قائما حتى الان وفيه قوة من الشرطة تقوم باعمال الحراسة هناك

(٨) خان الاورتا على ما يظهر هو خان بنى سعد الحالى لانه يقـع في منتصف الطريق تقريبا بين بغداد وبعقوبة بالنسبة الى الطريق القديم

(٩) اكوبي AAKOBE تحريف واضح لاسم بعقوبـة وهى من المدن القديمة في العراق ذكرها ياقوت الحموى في كتابه معجـم البلدان باسم بعقوبا وباعقوبا وهى مركز لواء ديالى وتشتهر ببسـاتينهـا وتقع على مسافة حوالى ستين كيلومترا من بغداد

(١٠) الرحالة تيفنو THEVNOT من الرحالين القدامى الذين

جاءوا العراق سنة ١٦٣٨ وقد دون مشاهداته عنه

(١١) نهر شهربان فرع من فروع نهر ديالى يمر بمدينة شهربان وهي ناحية تابعة لقضاء مركز بعقوبة واسمها حسبما يذكره عبدالرزاق الحسني مأخوذ من شهراي مدينة وبان اسم رجل . وهي تسمى الان باسم المقدادية نسبة الى البطل الاسلامي المقداد بن اسود الكندي» الذي يقع مرقده في قرية قريبة من شهربان تعرف باسم المقدادية

(١٢) هي قرية العواشق وقد ذكرها المؤلف باسم « اغواشك » وذلك تحريف ظاهر للاسم احدثه الفرس والترك معا وتقع هذه القرية الان بين بعقوبة والمقدادية وهي تابعة للاخيرة وتسمى بالعواشق والعواشيج ايضا وتطلق على قريتين متجاورتين تعرف الاولى بالعواشق الكبيرة والاخرى بالعواشق الصغيرة

(١٣) مدينة كيلان (بالكاف المعجمة GHILAN وتسمى جيلان ايضا من المدن التي كانت تابعة لمنطقة خانقين وقد ذكرت لدى المؤرخين الاوربيين والرحالين باسماء مختلفة فسموها كيلونه وكالون و« الونيه وكالنيه وما شاكلها واليها ينسب الامام الصوفي الشهير الشيخ عبد القادر الكيلاني

(١٤) مدينة ابولوليا APOLONIA يبدو ان هذا الاسم هو تصحيف لمدينة اخرى عرفت لدى اليونانيين باسم البانيا ALBANIA وان موقعها لم يكن في شهربان وانما في حلوان التي تقوم بمكانها الان مدينة قصر يشرين .

(١٥) بكسايه BOKSYE بلدة قديمة تابعة لقضاء مندلي ذكرها ياقوت

الحموي في معجم البلدان وتبعد حوالى سبعين ميلا عن « شيخ سعد » ومعظم سكانها من العرب

(١٦) كيلونيا CELON تحريف لاسم كيلان (المدينة والمقاطعة المعروفة باسمها

(١٧) البيوتيون BEOTIANS بقايا الاسرى الذين جاء بهم ملك فارس خشارخيشا من اليونان الى فارس فاستوطنوا المنطقة الواقعة شرقي كيلان وامتزجوا بطول الزمن مع الفرس وذابوا فيهم وان ظلوا يحتفظون ببعض مميزاتهم اليونانية كاللغة والسحنة وبعض العادات غير المألوفة لدى الفرس

(١٨) خشارخيشا ويدعى احشورش وسرخس وخشتارختا هو ابن داريوس الاول تولى الحكم في فارس في حدود سنة ٥٢١ ق . م ودام حكمه خمسا وثلاثين سنة .

(١٩) باجستاميس BAGISTAMIS المعتقد انه يقصد بهذا الاسم مدينة بجستان القديمة من اعمال نيسابور في ايران وقد ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت الحموى

(٢٠) نيسان ونسيوس MSAEUS اسم سهل يقـــع في شرقي ايران في تركستان الحالية وكانت قبائل السكيثيين تسكن في هذا السهل واشتهرت بتربية نوع من الخيول عرفت باسم النيسائه والمعتقد ان اولى القبائل التى ستوطنت ايران جاءت من تلك الانحاء

(٢١) كالانوس CALANUS و « ٢٢ » ماسستيوس MASISTIUS من القواد الذين صحبوا الاسكندر الكبير

في حملته على الشرق وافتتاح بابل وايران والسند .

(٢٢) معركة بلاتون يقصد بها معركة بلاتيا وبلاتيا احدى مدن الاغريق ساعدت اثينا في معركة مراثون الشهيرة ولذلك اقدم خشارخيشا الاول ملك فارس على تدميرها عندما غزا الفرس بلاد اليونان مرة اخرى سنة ٤٨٠ ق . م وبعد تعميرها حاصرها الاسبرطيون سنة ٤٢٧ ق . م ودمروها .

(٢٣) ارض الكوسة CUSA اما ان يكون القصد منها ارض الكوسيين الذين حكموا فارس في العصور القديمة او ان كلمة « كوسه » محرفة عن كلمة « كوخة » الكردية التى تعني شيخ العشيرة او القرية والتفسير الاول اصح .

(٢٤) جبل كورون CORON هو طاقى كره من سلسلة جبال زاغروس .

(٢٥) جبل ياسون JASON احدى قمم جبال زاغروس

(٢٦) عشيرة الجمم من العشائر العربية التى تسكن لواء ديالى وتنتشر في مناطق واسعة منه فتمتد الى مندلى وخانقين وتمتهن الزراعة وتربية الاغنام

(٢٧) السرمتيون من الاقوام الارية التي استوطنت اواسط ايران

(٢٨) لا تفرض العبادة بالقوة في الاسلام لان اعتناق الدين الاسلامي يأتى من ايمان به غير ان من حق كل مسلم ان يقوم ما اعوج من اخلاق مسلم اخر اذا ما وجده يخالف فرائض الاسلام علانية ومن هنا فرضت الحدود على المخالفين والمتهربين عن اداء الفرائض الدينية

(٢٩) طواق TEWAK هي قرية « قره تو » في لواء ديالى

(٣٠) بردان من المدن القديمة في منطقة ديالى بالعراق ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان وقال عنها انها مأخوذة من الكلمة الفارسية « برده دان » وتعد بردان من توابع قضاء الخالص وتعرف الان باسم اليشان بدران » وهي على بعد ١٨ كيلو مترا شمالي بغداد « احمد سوسه ومصطفى جواد دليل خارطة بغداد ص ١٠١ »

(٣١) النهر الذي وقع الاختلاف فيه لدى المؤرخين القدامى والرحالين الاجانب هو نهر « العظيم » الذي يصب في دجلة قريبا من سامراء فاسماء « فلسكس » و « اودوان » و « ادورنية » وتورناداتوم وتورنه كلها يقصد بها نهر العظيم وكثيرا ما يخلط بعضهم بين نهر العظيم وديالى ومنهم المؤرخ الروماني « بلينى » الذى اطلق على نهر ديالى اسم تورنا داتوم

(٣٢) باسكال PASCAL رياضي وفيلسوف ومؤرخ فرنسي

(٣٣) ثيوفانوس THEOPHANUS مؤرخ سرياني عاش في القرن الثامن للميلاد في بيزنطية ووضع عدة مؤلفات تاريخية وجغرافية وتوفي سنة ٨١٨ م.

(٣٤) ابرويز هوخسروا برويز حكم فارس مدة سبع وثلاثين سنة واستعان بامبراطور بيزنطية (موريكييوس) على محاربة منافسه بهرام فاسترد الملك منه وقد مات ابرويزقتيلا .

(٣٥) نهراربا ARBA يبدو ان هذا الاسم ، وهو لم يذكره الاقلة من الرحالين قد اطلق على نهر ديالى بل الاصح على فرع من فروعه الكثيرة .

(٣٦) ديلاس DELAS هو اصل اسم نهر ديالى الحالي

(٣٧) شيرويه SEORIS هو قبـاذ الثاني ملك فارس وهو ابن خسرو ابرويز .

(٣٨) بروتيوس PROTIUS يبدو ان هذا الاسم يوناني والذي نعتقده ان المقصود به هو نهر العظيم لا ديالى

(٣٩) افت اب AFIT AB هكذا كتبها المؤلف والصواب هو ان اسم هذا النهر آب نفت وهو مجرى مائي صغير يؤلف احد الروافد التي تصب في ديالى

(٤٠) امام عسكر سماها المؤلف امام اسكى وهي من القرى التابعـــة لقضاء مندلي ولا تزال تحتفظ باسمها هذا حتى الان

(٤١) ارتميتا ARTEMITA هو الاسم اليوناني لمدينة خانقين الحالية وكان موقعها قريبا من موقع خانقين ولا تزال بعض خرائبها ظاهرة .

(٤٢) اللورد بايرون LORD BYRON من اشـــهر شعراء الانكليز اسمه الكامل جورج غوردون بايرون ولد سنة ١٧٨٨م وعندما بلغ الرابعة من عمره مات ابوه فعاش مع امه في شقاء واصيب في طفولته بكسر في احد ساقيه ظل يعرج منه طيلة حياته دخل جامعـة كمبردج فانغمس في الشعر وربطته صداقة قوية بالشاعر شيلي وقد رحل بايرون الى اليونان ليشارك في الحرب ضد الاتراك وقد اصابه المرض في اليونان فقضى نحبه بعيدا عن زوجته وابنته في فجر العشرين من نيسان ١٨٢٤ وقد نقل جثمانه الى انكلترا في السادس عشر من تموز تلك السنة

(٤٣) زرادشت ويسميه الاوربيون (زورســـتر) مؤسس المذهب

المعروف باسمه ظهر في ايران حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م.
ويقوم مذهبه على اساس وجود الهين احدهما للخير (اهر مزدا)والثانى للشر « اهريـمان » وقد اصبحت الزراد شتية في سـنة ٧٠٠ ق . م الدين الاول للفرس وجمعت تعاليم زرادشت بعد وفاتـه بالف سنة في كتاب سمى « فستا » ترجم الى عدة لغات واتباع زرادشت هم عبـدة النار وهم المعروفون باسم المجوس وظلت ديانته قائمة في ايران الى ان افتتحها العرب ونشروا الدين الاسلامي فيها

(٤٤) سربول SIR POOL قرية على جدول (سربول آب) تقع جنوبي شرقي قصر شيرين وتعنى (سربول) بالفارسية رأس الجسر

(٤٥) نهر الوند تطلق على هذا النهر باسماء كثيرة فهو يسمى سلوندوالوند وسلا وسروند وغيرها ونهر الوند ويعرف باسم نهر حلوان ايضا احد نهرين يؤلفان نهر ديالى الحالي وينبع نهر الوند من جبل كرند وهـو يلتقي بنهر آب شروان في قرية المخلط فيتألف من التقائهما نهر ديالى

(٤٦) لانغل LANGLS [١٧٣١ ـ ١٨٢٤] مستشرق فرنسي معروف عكف على ترجمة كثير من الرحلات التي قام بها الرحالون العرب والفرس الى الهند والصين وغيرهما كما ترجم قسما مـن كتاب الف ليلة وليلة الى الفرنسية .

(٤٧) موريير MORIER رحالة انكليزي ودبلوماسي شهير تولى منصب القنصل العام في ايران فى العشرين الاول مـن القرن التاسع عشر له كتاب رحلة في ايران وارمينية وآسية الصغرى الى القسطنطينية وضمه

١٨١٢ وقد قام بتلك الرحلة خلال ١٨٠٨ ـ ١٨٠٩ وله كتاب آخــــر عنوانه رحلة في ايران اصدره في ١٨١٨ وقـــد وضع كتابه الشهير (مغامرات الحاج بابا الاصفهاني في لندن) طبعه سنة ١٨٢٨م

الفصل السابع عشر

من داستاغرد الى ارتميتا او خانقين

ومن هناك الى حلوان او قصر شيرين

الثامن من ايلول : انبلج ضوء الصباح دون ان يكون هناك اى استعداد للرحيل ولهذا اخذت اخشى ان نمكث هنا عدة ايام قادمة على اننا ، بالتطواف بكل غرف النزل وخلاياه واستعمال عبارات التشجيع والترضية استطعنا في النهاية ان نقنع ستة اشخاص اكثر شجاعة من بقية رفاقنا ، بانه من المعيب لنا ان نخاف السفر في وقت لم يتأكد فيه اي خطر في الطريق التي سنسير فيها وكان من المدهش ان نجد كيف ان القلة من اولئك الذين استطعنا ان نضمهم الى جانبنا ، سرعان ما تخلوا عن رفاقهم السابقين ، وراحوا يتهمونهم بالجبن ، وبانهم اناس جبناء لانهم رفضوا ان يحذوا حذوهم ، مما لم يرد عليه اولئك المتخلفون بشيء ما اطلاقاً .

واذ كان القوم ينظرون الى رئيس القافلة « كروان باشى » ولا نخشى

والدوويش اسماعيل ، كنافي الواقع احسن من البقيـة بما لدينا من خيول وتسلح تام ، فقد اخذنا على عاتقنا ان نقوم بدور القيادة فعمدنا الى ملء غلايين رفاقنا ونرجيلاتهم بما كان لدينا من تبغ ، واعددنا في (دلتنا) الخاصة القهوة وقدمناها لرفاقنا المختارين .

ولقد تم ذلك كله بسرعة فائقة . وهكـذا ما ان اشرقت الشمس حتى سارعنا في امتطاء خيولنا وغادرنا النزل مخلفين وراءنا بين جدرانه قافلة متجـهة نحو بغداد ، وعددا من الزوار الفرس الذين جاؤوا معنا من هناك ، لكنهم رفضوا مواصلة سفرهم من دون ان تتهيأ لهم حماية اضافية .

امتد طريقنا الان نحو الشرق تقريبا في سهل قادنا ، في مدى نصف ساعة الى تلين يسميان (نمرودتبه) و (شاه تبه) ولقد اجتزنا من بينهـما دون ان نرى فيهما ما يستحق الملاحظة سوى انهما تلان من تراب ، ولو انهما كانا يشيران الى اثار ابنية قديمة اذا ما تم فحصهما بعناية . وتلك مهمة لا استطيع ان احيـد عن الطريق خطوة واحدة ، لانجازها .

هناك قول تقليدي يتعلق بتل نمـرود ، وهو ان هذا التل قصـر شيده نمرود . اما تل الشاه فيقول البعض عنه انه كان منـزل انس ومرح . بينما يقـول اخرون بانه قبر لاحد ملوك الشرق كان في طريقه الى مكة لاداء فريضة الحج وكان هذا الملك قادما من الهند وقد استهواه جمال الموقع فتوقف فيـه وقرر ان ينشـيء فيه مسكنا له ليقضي ما تبقى من عمره هناك .

عبرنا فيما وراء هذين التلين مباشرة جـرا منبسطا فوق قنـاة اصطناعية كان الماء الذي يجري فيها ضيقا لكنه عميق وصاف ، وهو يأتي من النهر المسمى

(غاوور صو) والذى يروى خـلال جريانه عدة اجـزاء من الارياف المحيطة به .

انتهت الساعة الثانية من مسيرتنا فوق ارض حصباء مقفرة قادتنا الى سفوح سلسلة من الجبال الرملية والصخرية تمتد عبر ذلك السـهل الى الشمال والى الجنوب . وقد انفقنا حوالى ساعة كاملة في صعود تلك الجبال من الجانب الغربى والنزول الى الجانب الشرقى حيث بلغنا عند السفح سهلا اخر مشابها للسهل الاول في تربته ومساحته معا .

واستغرق منا قطع هذا السهل ساعة اخرى حين رحنا نمتع انظارنا بالنظر الى سهل خانقين الواسع الذي بدا امامنا اكثر خضرة وخصبا من اية ارض اخرى شاهدناها منذ ان غادرنا ضواحي بغداد

كانت مسيرتنا فوق هذا السهل باتجاه شرقى الشمال الشرقى وحين سرنا ساعة ونصف ساعة اخرى رأينا الى ناحية اليسار مناقرية صغيرة مؤلفة من اكواخ طينية ، وعلى مقربة منها اكواخ اخرى مؤلفة من الاغصان والقصب تسكنهـا بعض العوائل العربية .

اما العشائر التى تسكن هذا السهل فهى عشائر البو زيد و « المجمـع » و « آل بنى ويس » (١) وهم يعيشون معا فى انسجام عظيم ولكل منهم اراضيه المنفصلة والمحددة له وحده

وهم على خلاف الاعراب يزرعون الارض ، ويربون قطعان الماشية ولذلك فانهم يؤدون الجزية الى باشا بغداد .

وبعد نصف ساعة اخرى دخلنا خانقين فاجتزنا اول قسم منهـا وعبرنا

الجسر الذي يربط هذا القسم بالقسم الثاني حيث ترجلنا في نزل فاخر وافر الامان دون ان نلمس ادنى سبب للخوف طيلة رحلتنا تلك

كان من نتائج سفرنا في جماعة صغيرة مثل جماعتنا هذه، ووجود رئيس لها ظن انه عربي، ان اقبل كثير من سكان المدينة ومن المسافرين المتوقفين فيها يتنسمون منا الاخبار، ويقدمون احترامانهم الي انا «الحاج اغا» حيث امضيت بعد ظهر ذلك اليوم كله في استقبال القوم والاستمتاع بالحديث معهم.

حين حل العصر بدأت اتوضأ لاداء الصلاة. وكان صديقي الدرويش قد سبق له ان دربني على هذه الطقوس، والحركات المطلوب اداؤها فيها والتي كانت في نظري دقيقة ومعقدة.

وقد اغتنمت هذه الفرصة فلمحت للزائرين بان الاستراحة ولو لفترة قصيرة امر مرغوب فيه بعد اداء الصلاة ولذلك شرعوا ينفضون تدريجيا وقد تركوني وحيدا ولفترة قصيرة على الاقل.

استفدت من هذه الفرصة فحملت معي قماشا من الكتان النظيف وذهبت الى ناحية النهر وكان لي من وراء ذلك غرض مزدوج هو ان اغتسل، وان ادون - من غير ان يراني احد - ملاحظاتي عن الطريق الذي قطعناه لانه يستحيل علي - بسبب شدة الازدحام في النزل - ان ابدأ الكتابة هناك دون ان اكشف هويتي كرجل غريب

استمتعت بالسباحة في النهر بكل ما ارغب فيه من وحدة. ولكن ما ان بدأت الشمس تجنح الى الغروب لم استطع ان اقتنص سوى بضع دقائق لانفذ

الجزء الاخر من المهمة التي تسللت الى هنا لانجازها

* * *

تتألف خانقـــين من قسمين يحتلان ضفتي نهر (الوند) ويربطهما معـاجسـر يقوم فـــوق النهر . والنهر يجري هنا من الجنوب الى الشمال داخل المدينة .

وعلى مسافة نصف ميل الى جنوب الجسر تشاهـد انحناءة النهـر حيث يبدأ جريانه من الشرق ، ومن ثم يتجه شمالا الى مسافة ميل تقريبا ومن هناك يتجه النهر غربا ثم يبدأ بالانحناء تدريجا نحو الجنوب وكـأنه يؤلف « غاوورصو » الذي يجري الى الغرب من كسرى اباد .

والنهر هنا يسمونه (سروند او سلوند) ويكون مصدره من الجبال الشرقية ولو انه لا يوجد هنا من يزعم انه يعرف مسافته الحقيقية من هناك .

ويبدو الجسر وكأنه قد شيد حديثا بالاجر . وهو يستند على ثلاث عشرة قنطرة مقوسة وكلها حسنة الدفاع . وهو عال وعريض ومعبد ، وطـــوله مائة وثمانون خطوة حصان ، ولو ان عرض النهر ذاته لا يزيـــد عن نصف تلك المسافة وقد استخدمت احدى الصخور الصـلبة في وسـط النهر بمثابة اسـاس للجسر . ويمر ماء النهر تحت كل قنطرة في قناة ضيقة عميقة حفرت في الاصـل داخل تلك الصخرة وبعد ان تحولت هذه القنوات الى احواض طبيعية وعميقـة بشكل واضح حتى ارتفع كل طرف من طرفي تلك الصخرة عن مستوى المـــاء فظهرا جافين .

و بهذه الوسيلة اصبحت تحت كل قنطرة دكتان عريضتان من الحجر ومجرى عميق من الماء ينساب بينهما ولذلك حين ينخفض الماء . في مثل هذا الفصل من السنة ، يستطيع المرء ان يمشي فوق الصخرة بجانب الجسر ، دون ان يبتل حيث تؤلف الاماكن التي تقع تحت القناطر ملاجيء ظليلة يتجمع الناس عندها للاستبراد والاستمتاع بهذا الماء الذي يجري فوق ارض حصباء ويمتاز بنقائه وحلو مذاقه .

ويمتد القسم الغربي من خانقين ، وهو اكبر قسميها ، الى مقربة من حافة كهف يطل على النهر ، وقد كسيت ضفافه ، في بعض الاماكن ، بجدران من الاجر .

اما القسم الشرقي (٢) وهو الاصغر ، فانه يحتوي مع ذلك على نزل فاخر مشيد على الطراز الفارسي وهو يتسع لحلول قافلة كبيرة فيه .

وتضم المدينة بقسميها حوالي الف وخمسمائة منزل . وعدد سكانها يتراوح ما بين عشرة الاف واثني عشر الف نسمة .

وفي المدينة مسجدان رئيسان ، والسكان كلهم من السنة . ويوجد بينهم قليل من اليهود والمسيحيين . ويخضع حاكم المدينة الى سلطة بغداد . ويدفع الجزية الى الباشا وهو يحصل عليها من الزراعة ومن الارباح التي يجنيها من وراء بيع التجهيزات الى المسافرين الذين يمرون بالمدينة . واللغة التي يتحدث بها اهل المدينة بصفة رئيسة هي اللغة التركية .

توجد في خانقين بساتين كثيرة فاخرة لاتعوزها الاشجار . وترى ضفاف النهر تغطيها الخضرة وهي واطئة في اعالي المدينة وفي اسافلها وان كانت احدى هذه

الضفاف ترتفع بارتفاع ارض المدينة ذاتها .

والمتوارث من الاقوال انه كانت في هذا المكان قبلا حديقة جميلة فيها قصران من صنع المعمار والنحات الشهير «فرهاد» عشيق «شيرين» (٣)

وكانت شيرين هذه تعيش في احد هذين القصرين ويدعى « برزماهان BERZ MAHAN » . اما القصر الثاني فقد كان مقر السيدها «خسرو» او «كسرى» وكان يستخدم هذا القصر لمراقبة جيوشه

والحقيقة انه لا يوجد مكان أكثر ملاءمة لانشاء الحدائق ، او اقامة القصور من هذا المكان بالذات غير انه لاترى هنا اية آثار تدل على اي من الابنية الكبيرة*

---

* كان فرهاد عشيق ، الذى كان يلاحقها ، مغرما بالخلوات وقد انشأ حديقة هائلة لاتزال بقاياها حتى الان داخل بغداد وكرمنشاه وعلى مقربة من خانقين في قصر شيرين كما انشأ عددا من المنازل او الخانات (خان وقين) وقد اقام فضلا عن ذلك قصرين ذوى مدرجات احدهما يدعى « برزماهان » كان مخصصا لاقامة شيرين والثاني وهو اوسع مساحة ، مضلع البناء ، وفيه برج عال ذى مراحل متعددة ، وقد خصص هذا الى كسرى لانه كان يشرف منه على مراقبة جيوشه » .
(دليل رحلة الى فارس بطريق بغداد) للمسيوم (روسو) قنصل فرنسا العام في حلب ١٨٠٧ في مجلة « كنوز الشرق » المجلد الثالث صفحة ٩١ فيينا » (٤)

وورد في « تذكار رحلة هرقل » الذي سبقت الاشارة اليه، اسم مدينة تدعى «ارتميتا» واستطيع من تقدير ذات المسافة النسبية والمظاهر المحلية، ان اؤكد بان خانقين تقع في ذات الموقع الذي قيل ان ارتميتا كانت تقوم فيه

وقد تحدث «سترابو» عن ارتميتا فقال عنها انها مدينة شهيرة وقال «ايزودور» الخاركسي عنها انها تقع على نهر يدعى (سلا) وقال «ايزودور» ايضا انها تبعد عن طيسفون وسلوقية بمقدار خمسة عشر مرحلة وفي كتاب « ستاثميس بارثيسيس (٥) حوالي خمسمائة فرسخ اغريقي، وفي الالواح الثيودوسية بواحد وسبعين ميلا رومانيا.

وطبقا لما قاله ايزودور كانت ارتميتا بلدة اغريقية ويظن بان اسمها قد اخذ من الكلمة اليونانية ارتمياتس ارتمينا التي تعنى الموقع الصحي المفيد، ولو انه كان لها اسم آخر متداول بين سكان تلك البلاد وهو « كالاسر CHALASAR »(٦) كما يقول ذلك نفس المؤلف

والمشاهد ان خانقين تقع على نهر سلوند وقد يكون هذا هو نهر « سلا » القديم نفسه. ذلك لان بعدها يتفق، بدقة تامة، والمسافة التي حددت لارتميتا عن كل من سلوقية وطيسفون * ولا يوجد مكان آخر غير هذا يستحق ان يقال عنه

---

* لا يوجد مقاس يحدد البعد الحقيقي لهذا الموقع في خريطة كنيير وقد حذف اسمها من هـذه الخارطة. فقد اكد المستر ويب حين قدم من صنماء - بطريق كرمنشاه - الى بغداد وذلك في كتابه الجغرافي عن مصورات خريطة كنيير. اكد ان خانقين تقع على بعد ثمانية عشر ميلا من « كزولود باد » او كسرى اباد، وان هذه المسافة كانت ستين ميلا على وجه الدقة، وان بعد داستاغرد عن =

انه صحي ومفيد حقا *

ويقول دانفيل ان ارتمينا كانت مدينة يونانية تقع على نهر كان اسمه يكتب احيانا «سيلاّ» وكان من الاحرى ان يسمى «ديلاس» وهو الاسم الحديث للنهر الذي يدعى «ديالى» **

لقد رأينا قبلا ان هذا النهر قد خلط اسمه مع انهار اخرى قديمة ، مثلما هو شأن نهر الوند في نظر احدث ادلة السفر في عصورنا الحالية ، وكان هذا الخلط في كل قضية يؤدي الى وقوع اخطاء اخرى

وعلى هذا الاساس اعتبر دانفيل كلا من ارتميتا ودستاغرد موقعا واحدا طبقا للاسم الاغريقي وللاسم الشرقي ولو ان ابزودور الخاركس قد اطلق على هذا الموقع اسم كالاسا ASALAHO · وسبب ذلك هو ان نفس النهر الذي يمر بدستاغرد قد قال عنه ابزودور بانه يمر بمدينة ارتميتا ايضا دون ان يأخذ بنظر الاعتبار بان النهر قد يمر بعشرين مدينة في جريانه دون ان تكون هناك اية ضرورة تدعو الى

= طيسفون يجعل المسافة كلها ثمانية وسبعين ميلا

* ان اسمها الحالي مأخوذ من كلمة « خان » اي نـزل القافـلة « كروان صاري » و قين تعني التجمع سوية ، والجمـع ، والازدواج والتركيب ، والرتق والتشكيل والتأطير ، والاختيار »

القاموس العربي لرديكاردسون مجلد اول ص ٧٤٥

RICHARDSON,S ARARIB DICTIONARY VOL I . P 745

** مختصر الجغرافية القديمة « الطبعة الانكليزية » المجلد ٣ ص٤٦٩

COMPENDIUM OF ANCIENT GEGORAPHY · ENCLISHEDITION VOL · 2 P . 469

توحيد كل هذه المدن في مدينة واحدة الا اذا اتفقت ابعادها من نقطة معينـــة معروفة ، مع احداها الاخرى بشكل دقيق وصحيح .

ومع ان نفس النهر يمر بكل من ارتميتا ودستاغرد فلا يفهم من هذا بانهما مكان واحد له اسماء مختلفة * وان هذه الحقيقة لا تـزال تعزز الرأى القائـل بان سيلا ليس سوى سلوند في الوقت الحاضر ، وانه بعد ان يجرى عبر ارتميتـا الى خانقين يتجه الى دستا غرد فى كسرى اباد ، وعلى مسافة كافية الى الشـمال من ذلك الموقع فيجرى في الارض التى تتصل به من تلك الناحية حيث يسمى هنـاك (غاوور صو) او نهر الكفار وذلك امر اكثر مطابقة للاشارة التي تقول بانذلك النهر قد عرقل ، بصفة جزئية مـسيرة اليونانيين لاجتياح القصر القائم هناك

* * *

التاسع من ايلول : غادرنا خانقين عند شروق الشمس مع ذات الجماعة التي دخلناها معها في اليوم السابق ، واتجهنا فيسيرنا نحو شرقى الشمالى الشرقى ، فوق تلال حصباء مقفرة ، مشققة الى ان وصلنا بناء قديما ذا جدران واطئة فيه مزاغل

* مع ان كنيير قد حذف اسم خانقين من خارطته التي وضعها عن فارس وانكر بشدةالافتراض القائل بان ارتميتا ودستاغرد هما اسمان لمكان واحد ، الا انه مع ذلك حدد لهما نفس الموقع فقال عنهما ارتميتا او وستاغرد . ثم وضعهما في مكان اعترف هو في تذكرتـه بان المسافة المعطاة لارتميتا ليست مقبولة اطلاقاً

انظر تذكرة كنيير صفحة ٣٠٦

KINNIER,S MEMOIR P · 306

بسيطة ، وحصنا حديثا للعرب (قلعة السبزي) (٧) وفي مكان منعزل ، وقد تـم تجديده لاغراض القتال والمخادعة .

دخلنا الى هنا ونحن نحمل بنادقنا التى تشعل بالثقاب وهي محشوة حيث شاهدنا قبور بضعة من المسافرين الذين قتلهم الاعراب ثم قام بدفنهـم من جاء بعدهم في هذا الطريق

واذا مضينا ثلاث ساعات اخرى في ذات الطريق فوق ارض جـــرداء تغمرها التلال وصلنا قبل الظهر تماما الى قصر شيرين وقبل ان ندخلها بحوالى ربع ساعة تقريبا بلغنا النهر الذي يجري في تلك الانحـاء من دون ان نعــبره في طريقنا .

ولقد وجدنا في النزل دواب محملة بالملح جيء به من مندلي لنقله الى كرند KERRUND (٨) وهو مـن نوع الملح الصخري الذي قيل عنه انه يستخرج بكميات وافرة من مناجم الملح في المناطق المجاورة .

كانت الاسئلة القليلة التى القيتاها بحذر على اولئك الذين يتاجرون بهذه السلعة ، كافية لاثارة الشكوك عن الدوافع التي دفعتنا الى القائها ولذلك رأيت ان من الخطر ان اردفها باسئلة اخرى .

لقد كنت ، وسط هؤلاء القوم ، اشعر بخوف دائم ولذلك كنت شديد الحذر فى اغتنام الفرص لابداء ملاحظاتى عن الطريق ، او تدوينها ما دمت معهـم ولهذا فقد يئست من قدرتي على تسجيل اكثر من مذكرات موجـــزة لغرض الاستدلال بها واستخدامها فى المستقبل.

وعند المساء ، وبحجة الاغتسال فى النهر ، واداء صـــلاة المغرب هناك

اختلست من وقتي ساعة اتجول خلالها بين الاثار القائمة هناك .

لقد كان التل الذي يدعى قصر شيرين بصفة خاصة مربع الشكل يبلغ طول كل ضلع منه زهاء مائة وخمسين خطوة ، ويبدو بانه بقايا حصن عسكري

ويبلغ ارتفاع الاجزاء الكاملة منه الان حوالي ثلاثين قدما . وله ستة ابراج دائرية في كل جبهة من جبهاته مشيدة على الطراز الاسلامي . اما داخل المربع فقد امتلأ تقريبا بانقاض الابنية التي كانت قائمة ضمنه ، حيث لا تزال جدران كثير منها موجودة .

والظاهر ان هذه القلعة ، مثل بقية القلاع الشرقية القديمة ، قد انشئت فوق تل طبيعي مستو اقيم البناء فيما بعد على سطحه الخارجي وهكذا تألفت القلعة من تل للتحصين ، في حين شيدت الابنية التي في داخله على قمة ذلك التل المستوية العالية ، والتي لا يحجبها سوى جدار يرتفع الى حد الصدر ، ويحيط بالحافة العليا من التل ذاته

اما بناء الحصن الخارجي ، كما يرى في الوقت الحاضر ، فهو مؤلف من احجار ضخمة غير صقيلة ، صفت اعتباطاً وثبتت قويا بملاط الكلس . ويبدو من المظهر الخارجي الخشن للحصن انه كان يحيط به ، في وقت من الاوقات غلاف خارجي عن الاجر ، او الاحجار الصغيرة الصقيلة بعكس الغلاف الداخلي .

وعلى مقربة من هذا الحصن يوجد تل صغير يدعى (القصر الصغير) وذلك تمييزا له عن القصر الكبير الذي أتينا على وصفه قبلا .

تقوم كلتا القلعتان او القصران فوق ارض مرتفعة على الضفة الشمالية من نهر الوند وتبعد عن مجراه مسافة ربع ميل حيث يجري النهر هنا من الشرق

الى الغرب في واد يقع في الناحية الجنوبية من تلك الخرائب . اما في شمالى النهر وعلى مسافة ميل او ميلين فتمتد تلال منحدرة كالحة ، تحيط بها ارض جرداء لا نبت فيها ولا زرع ، وهي عاطلة في الواقع عن كل جمال

وما عدا الاثر الذي يدعى قصر شيرين ، والذي اخذت المدينة اسمها منه ، توجد اثار واسعة لمدينة كبيرة تمتد زهاء ميل الى ناحية الشرق ولا يشاهد بين هذه الاثار اي بناء أطلاقا . غير ان جدران الحصن كاملة في اجزاء كثيرة منه ، وهي ظاهرة في كل مكان مما يمكن معه وضع مخطط لصحن البناء في الموقع ذاته . وقد شيدت هذه الجدران من احجار صقيلة وكبيرة ، وبنيت بطبقات رقيقة من ملاط الجير ، مما جعلها تبدو قوية تمامة .

ولا يزال الفرس المحليون يزعمون ان هذه الابنية هي بقايا مدينة « حلوان HELLOLA (٩) التي يقال عنها انها كانت للكفار قبل عهد النبي وان الذي بناها هو الملك كسرى . ويتفق هذا القول مع شواهد هذا التأريخ وكل منها يؤكد صحة الاخر .

ذكر « دربلو » في مقالة عنوانها « كسرى بن هرمز KOSROO DE HORMOUZ (يقول ابن شحنه (١٠) ان كسرى بنى مدينة اطلق عليها اسم عشيقته شيرين ، وهي تقع بين مدينتي حلوان وخانقين . *

---

* الفهارس الشرقية : المجلد الثاني صفحة ٤٤٥ الكتاب الثاني
BIBLIOTHEQUE ORIENTALE VOL 2 P. . 445 4 70

وهذا يتفق على وجه الدقة مع موقع قصر شيرين الحالي الذي يقع في منتصف الطريق تماما بين حلوان وزهاو (١١) الحاضرة. وخانقين اخر محطة مررنا بها في طريقنا .

ويضع جغرافيو العرب ومؤرخوهم مدينة حلوان ـ التي يقولون عنها ان الذي بناها هو (كسرى ابرويز) واستخدمها واحدة من منازله المفضلة لديه، على بعد ستة او سبعة فراسخ من خانقين . وهذا يطابق موضع الخرائب الحاضرة ايضا .

ويقول بعض المؤرخين من الفرس ان خسرو او كسرى قد بنى فعلا سبعة قصور في سبعة اماكن مختلفة ، وذلك للترفيه عن عشيقته المحبوبة شيرين وان واحدا من هذه القصور السبعة كان يقع في حلوان .

ولهذا غدا واضحا ان كل تلك القصور كانت تعزى الى ذات الموقع ،ولما كان قد ذكر بان مدينة حلوان كانت موجودة في الوقت الذى شيد فيه القصر المشار اليه فلا بد ان يكون اسم شيرين هو الاخر قد اطلق على مدينة حلوان كاشارة اخرى الى التكريم . فاذا كان هذا الافتراض صحيحاً ، فان الموقع والابعاد النسبية لا يمكن ان تعتبر مغلوطة ، وهي تشير بوضوح الى ذات البقعة ، في حين ان الذي اشتهرت به مدينة حلوان هو انها مدينة الكفار ، وذلك امر يعرفه كل امرىء هنا ، ولو ان اسم شيرين لايزال باقيا تماما وذلك بسبب شدة ارتباطه بالحكايات الشعبية الدارجة في تلك الانحاء .

ولقد سمعت الكثير من هذه الحكايات التي تصور شدة الغيرة التي كانت تأكل قلب (فرهاد) ذلك الجيورجي ، على تلك المرأة المحبوبة ، فرهاد ذلك الذي

استخدمه غريمه كسرى في اعمال النحت والبناء لكي يحرف قلبه عن شيرين ومع كل ذلك فقد كان فرهاد هذا يستطيع بالف حيلة خبيثة ان يلتقي بتلك الملكة سرا ويستمتع بعناقها

ان اجزاء كثيرة من هذه القصص، على ما اتذكر، تتفق مع ما قرأته عن الموضوع ذاته، وان كانت هناك حكايات اخرى يغلب عليها طابع المبالغة الشديدة عن الغيرة والاقدام، والمغامرة العجيبة وذلك لتمجيد هذه القصص اكثر مما تحويه السجلات الغامضة المدونة. *

---

* تقول عدة كتب تاريخية ان شيرين اسم لفتاة كانت في اول الامر امة رقيقة لدى احد سادة فارس وكان ابرويز في صغره قد اعتاد التردد على دار ذلك السيد فكان ينبسط في المزاح واللعب مع تلك الجارية الصغيرة. ولقد نهت ربة المنزل شيرين عن معاودة اللعب مع ابرويز لكنها لم تعر ذلك النهي اي التفات. وفي احد الايام نزع ابرويز حلقته في غرفة شيرين، حتى اذا ما علمت رئيسة شيرين بذلك اصابها غضب كبير فامرت احد كتمة السر لديها بان يقبض على تلك الفتاة الصغيرة وان يلقي بها في نهر الفرات (+) وعندما وصلت شيرين الى ضفة النهر اخذت تتوسل بذلك الرجل في ان يبقي لها حياتها فرد عليها بقوله « لا اريد ان اخرب نعمتي لكنني استطيع أن القي بك على وجه الماء لتتمكني من النجاة » ثم القى بها في الماء. وحين غادرها خرجت شيرين من الماء، وآوت الى منزل احد الرهبان يقع على مسافة قصيرة من هناك، وقالت له « انني هبة من الله =

تتألف مدينة قصر شيرين الحالية من حوالى خمسين بيتا ، داخـل سور من الطين والحجارة ، بين خرائب القصر القديم والنهر . اما النزل الذي يقـع خارج هذا البناء ، فهو واسع ومريح ، استعملت في بنائه كميـــات كـبيرة من الاجر الاحمر المربع الشكل مشابه لما يرى مثله في المدائن ، ولا بد ان يكـون قد نقل من الخرائب التي اشرنا اليها انفا .

= وانني جئت الى هنا لاعرض خدمتي لكم » ولقد رضي الراهب بقبولها وامضت مدة طويلة معه .

وقد حدث بعد ذلك ان ركب ابرويز مع شلة من الجند في جيشه فروا بذلك الدير حتى اذا مارأته شيرين ، اشارت الى واحد منهم بان يذكر للملك بانه رأى شيرين الجارية في ذلك الدير ، ثم اعطته الحلقة التي في يدها ليحملها الى ابرويز كدليل على صدق مدعاه وحين تلقى ابرويز من ذلك الجندي رسالة شيرين انعم عليه بجوائز كبيرة ، وبعث بضباط بلاطه وجواريه للبحث عن شيرين لجاؤابها وسط موكب واحتفال عظيم الى المدائن »

ولكي يظهر المؤلف ان كتب التاريخ في زمانه وان كانت تتفق حول الوقائع الاساسية لهذه القصة ، فانها تتباين في ذكر التفاصيل كما هـــو الامر حول هذا الموضوع ذاته في العصور الحاضرة . ولذلك نرى المؤلف يقول « ان هذا لا يتفق مع ماورد عنه في الشاهنامة » (١٢)

ثم يضيف الى هذا قوله « وقد ذكر انها ذات جمال كامل يضم اربعين صفة ، ، وانه لم يكن في عصر ابرويز من يشبه شيرين او تتمثل فيها الصفات المطلوبة » =

وفي هذه البقعة يجري نهر الوند في واد يمتد من الشرق الى الغرب وبعد ان يمر بالمدينة على مسافة نصف ميل ، يأخذ بالانحناء نحو الناحية الجنوبيه الغربية ومجراه ضيق لكن ماءه سريع الجريان ، ونقي وضفافه تكسوها الادغال بصفةعامة

لقد خيل الى السرجون مالكولم ومن بعد الى المستر دونالد كنيير (١٣) ان الخرائب الواقعة هنا هي خرائب داستاغرد ذاتها . وما خلا ذلك فان ماذكر من اوصافها يتفق بصفةدقيقةوصحيحة مع موقع حلوان وقصرشيرين ، لكنهامغايرة لثلاثة مظاهر رئيسة يتميز بها موقع داستاغرد ذلك ان الاراضي التى تمتد نحوها من الشمال او الغرب لايجري فيها نهر عميق ، وهو النهر الذي يقع في ناحية الجنوب ، وان الموقع ذاته ليس من السهل ان يجمع حوله كل ماهو بهيج في الطبيعة . وانه يبعد مسيرة ثلاثة ايام من النقطة التي توقف فيها «هرقل» عند النهر اي على بعد اثني عشر ميلا من طيسفون

ويحاول المستر كنيير ، الذي ثبت في خارطته كلا من ارتميتا ودستاغرد في مكان قصر شيرين ، ان يبرهن في تذكرته بان هاتين المدينتين لم تكونا مدينةواحدة وفي مكان واحد . فهو ينفي ، على وجه اخص ، بان تكون هي الموقع الصحيح للمدينة السابقة فنظراً الى عدم تطابق بعدهـا مع الخمسمائة فرسخ اغريقى الذي

= « مذكرات عن انواع الاثار القديمة في فارس » للمسيو سلفستر دي ساسي ص ٤٠٤ باريس

MEMOIRES SUR DIVERSES ANTIQUITES DE LA PERSE PAR M. SILVESTRE DE SACY P 404 PARIS 410

و « الدليل الشرقي » مادة فرهاد وخسرو وشيرين

BIBLIOTHEQUD ORIENTALE ART FERHAD KHOSROUE AND SHIRIN

دكره كل من ايزودور وسترابو ، ولانها تبعد عن طيسفون اكثر من ستين ميلا، يرى كنيير ان قصر شيرين يبعد تسعين ميلا على اقل تقدير *

فاذا كانت المدينة جد بعيدة فتكون المسافة عندئذ، من العاصمة الى ارتميتا ـ التي قيل عنها انها تبعد خمسمائة فرسخ او واحدوسبعين ميلارومانياـ اكثر بكثير من المسافة بينها وبين داستاغرد التي قيل عنها انها لاتبعد اكثر من ستين ميلا **

اما موقع هذه الاخيرة فيبدو بانه يقع في سهل ايضا ، وانها محاطة بريف فاتن الجمال والخصب كما تؤكد ذلك المظاهر الوصفية الجديرة بها ***

---

* كنيير · تذكرة جغرافية عن فارس ص ٣٠٦

KINNIER : GEOGRAPHICAL MEMOIR ON PERSIA . P 306

** كانت دستاغرد تقع خلف نهر دجلة بحوالى ستين ميلا عن العاصمة

جيبون:انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية المجلد الثالث ص ٢٤٤

GIBBON : DECLINE AND FALL OF ROMAN EMPIRE VOL 3P 244

ودانفيل تذكرة الى اكاديمية المخطوطات مجلد ١٧ ص ٥٦٨

D ' ANVILLE IN MEMOIRES DES L ' ACADE , MIE DES INSCRIPTIONS VOL XXX 11 P 598

*** لقد كانت المراعي المتصلة مسرحا لقطعان الماشية وكانت الجنينة او الفردوس حافلة بانواع الطيور كالديك البرى ، والطواويس والنعام ، وكانت فيها الايائل ، او اليحمور ، والخنازير البرية ايضا . اما المهرجانات الفخمة لصيد الاسود والنمور فانها تبلغ من السعة في بعض الحالات الى درجة انها تغدو منطلقا مبهجا لكل انواع الصيد .

(جيبون : المجلد الثالث الفصل ٤٦ الصفحة ٢٥٥)

ولذلك فان كل هذه الاعتبارات مجتمعة قد اكدت لي ما سبق ان ذهبت اليه وهو . ان ارتميتا هي المعروفة باسم خانقين ، وان دستاغرد هي كسرى اباد .

لقد تأخرت كثيرا قبل ان اعود الى النزل . وثار الكثير من الدهشة والقلق بشأن غيابي الطويل . غير ان توزيع القهوة على المتسائلين في وقتها المعتاد ، واداء صلاة العشاء بصوت عال قد هدأ كل تلك الشكوك بصفة مبهمة .

* * *

العاشر من ايلول : بدأنا حركتنا عند مطلع الفجر فغادرنا قصر شيرين قبل ان ينبلج ضوء النهار . كان طريقنا يمتد شرقي الشمال الشرقي ، ويؤدي مباشرة الى خرائب حلوان التي كانت تقع في اجزاء متفرقة الى مسافة ساعة تقريبا على ظهور الخيل ، وكانت من أكثر المظاهر الخادعة فيها هي الاسوار التي تحدثت عنها قبلا ، والتي شيدت من الحجارة الصقيلة . اما المدينة كلها فتقع فوق مستوى مرتفع ، وتبدو في صورة غير منتظمة ، بينا يتدفق نهر الوند في واد على بعد نصف ميل جنوبي المدينة .

واذ مررنا بتلك الخرائب استهوتني قصة المدينة ثانية، ووجدت استعدادا لدى البعض من هؤلاء الذين يحيطون بي الان للرد على اسئلتي ، وكانت هذه الاسئلة توجه اليهم عن المرئيات التي تمر امامهم مباشرة وبصفة طبيعية من دون اثارة اية شكوك عن الدوافع التي ادت الى طرحها ، ولو ان البعض كانوا في الوقت ذاته يندهشون حين كنت اوجه ولو سؤالا واحدا عن (زهاو) او اي مكان آخر لا يقع مباشرة على الطريق التي كنا نسلكها .

من المآثر التي يعددونها لفرهاد عشيق شيرين ، والتي لم يكن ليعينه شيء سوى الغيرة على النهوض بها ، ان فرهاد هذا قد اعتاد ان يأتي من كرمنشاه ومن بستون [١٤] BISTOON عبر جبال طـاووق [١٥] TAUK فيجتاز النهر ، والجبال ، والوادي في ليلة واحدة كيما يستمتع بابتسامات حبيبته ثم يعود ثانية الى عمله في الفترة بين غروب الشمس وشروقها . وتروي هذه الاساطير ان الجواد الذي كان فرهاد يمتطيه واحدا من جياد سهول باجلان [١٦] BAGELAN التي تقع تحتنا الان ، وهي جياد لا مثيل لها في العالم .

فهذا الجواد الذي كان يأتي بعد شيرين في المحبة لدى فرهاد ، لانه كان الواسطة الوحيدة التي يستطيع عن طريقه ان يتمتع بمباهجه المختلفة ، كان يتغذى دائما بالطازج من اللبن والذرة المغموسة بالعسل من يد فرهاد نفسه .

ولكي يختتم هؤلاء نهاية تلك القصة الجميلة الفريدة يقولون ان شيرين ماتت من الحزن ، او انها قتلت نفسها كيلا تكتشف ادانتها بانها كانت تلتقي خلسة بحبيبها الفريد فرهاد ، وقيل ان كسرى قد قتلها ، بعد اكتشاف امرها ، في حبس رهيب

غير ان هذا لا يتفق مع ما اورده (مرخوند) الذي يختتم قصة شيرين الابداعية ، بانها قد ماتت بعد ان نذرت نفسها بان تدفن في قبر سيدها كسرى ، وفوق جثته ، مثلما فعلت ذلك الشقية جوليت التي قتلت نفسها فوق جثة حبيبها روميو * [١٧] .

---

* لقد ذكروا انه بعد وفاة ابرويز وقع ولده شيرويه SCHIROUIEH في حب شيرين ، وحين حثها بشدة على ان تتنازل عن عنادها =

لم يكن من واجبي ان اقرر صحة واحدة او اخرى غيرهـــا من هذه الاقاصيص ، لكنني بعـد ان استمعت الى ذلك المقطع من الحكاية الذي الفته بسبب قراءتي المتكررة لها ، سأل صبي في الخامسة عشرة من عمره ، وكان بين جماعتنا ، سؤالا ينطوي على ذكاء خارق . لقد سأل ذلك الصبي قائلا اذا كانت شيرين تجارى فرهاد في غيرته عليها فهل كان من الصواب ان تقتل نفسها على قبر كسرى ؟

وقد رد الجميع مؤكدين ان مثل هذا الامر لا يمكن ان يحدث ومع ان تلك القصة عن موت شيرين قد تنال التصديق المألوف على اساس ان ذلك نوع من التكريم لحسنها ، الا ان كل جماعتنا قد فسروا موتها بالطريقة التي رووه بها ذلك ان الذين يكثرون من السفر ليسوا في حاجة لان يتحدث اليهم عن الاهمية التي تظهر بها معظم التقاليد الزهيدة ، حين تنسب او تدور حول موقع ما يشيرون اليه ، اما اولئك الذين لم يعرفوا السفر فان مثل هـذا التوضيح قد يبدو ضروريا بالنسبة اليهم ، وقد يضاف الى هذا ان بعد الموقع ، وسذاجة الذين تفرحهم مثل هذه الحكايات المحلية ، يجعلان من العسير ـ بالنسبة الى المسافر الذي يطرق ذلك الموقع ذاته ـ ان ينقل ما يشاهده الى شخص يطالع قصة احدى الرحلات وهو جالس في مكتبته او مخدعه

= طلبت الى شيرويه بان يفتح باب المخبأ الذي يضم رفات ابرويز حتى اذا نالت ما رغبت فيه دخلت المخبأ وتناولت سماقويا ثم سقطت ميتة في الحال عن « مرخوند » ترجمة سلفستردي ساسي صفحة ٤٠٤ وما بعدها طبعة باريس مجلد ٤ .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل السابع عشر

(١) آل بنى ويس والبو زيد من العشائر المعروفة وهى تسكن في منطقة خانقين وتمد من عشائر لواء ديالى الشهيرة

(٢) يعرف القسم الشرقي من خانقين باسم « حاجي قره » وهذا القسم حديث في وجوده اذ تم انشاء المساكن فيه سنة ١٧٢٩ بينما انشىء القسم الغربي في عهد الساسانيين (انظر الحسنى: العراق قديما وحديثا ص ٢٩١

(٣) قصة فرهاد وشيرين من القصص الفارسى القديم التى تمثل الحب العذرى وهى شبيهة بقصة المجنون وليلى في الادب العربى القديم وتروى هذه القصة لدى الفرس حتى اليوم باشكال مختلفة منها ان فرهاد حين وقع في غرام شيرين ارسل الى اهلها يطلبها منهم فاشترطوا عليه ان يحفر في احد الجبال نفقا لادخال الماء منه ومتى نفذ هذا نال يد شيرين وغدت زوجته وقد امضى فرهاد سنين عديدة في حفر

ذلك النفق لكن المنية عاجلته في صبيحة اليوم الذى تم فيه حفـــره وتدفق الماء منه

وقد ادرج (الفردوسي) قصة فرهاد وشيرين في الشاهنامة وا كثر من هذا ان الاكراد ينافسون الفرس في ادعائهم بان قصـــة فرهاد وشيرين كردية وليست فارسية على اساس ان فرهـاد كان من الاكراد الساكنين في فارس

(٤) هوجان باتست روسو كان وكيل الشركة الفرنسية في البصرة وفي سنة ١٧٩٦ جاء الى بغداد على رأس بعثـة فرنسية دبلوماسية ثم اصبح قنصلا عاما لفرنسا في بغداد سنة ١٧٩٧ وقد وضع عنها كتابا سماه (وصف باشويه بغـــداد) طبـــع بباريس سنة ١٨٠٩
DISCRIP TION DU PACHALIK DEBAGDAD PARIS 1809
وله كتاب اخر عنوانه (رحلة من بغداد الى حلب) طبع سنة ١٨٩٩ اي بعد كتابته بتسعين سنة .

(٥) ستاثميس بارتسيس STATHMIS PARTHICIS مؤرخ يوناني

(٦) كلاسر تحريف ظاهر لكلمة القصر ـ

(٧) المستر ويب WEBB سائح انكليزي طاف بالجزيرة العربية ووصل الى ايران

(٨) قلعـــة السبزي ذكرهـــا المؤلف باسم « خـــلة السبزى KHALLET EL CUBZY » هكذا ويقصد بها القلعة الخضراء لان كلمة سبزي في الفارسية تعني الاخضر اما كلمـة قلعـة فقد حرفت الى « خلة » بشكل ظاهر

(٨) كرند مدينة ايرانية قديمة تقع الى الجنوب الشرقي من قصرشيرين على الطريق الى كرمنشاه وكانت قبلا داخلة ضمن الاراضي العراقية وتعد مقراً لواحد من الالوية الثمانية عشرة التي كانت تتألف منها ولاية بغداد في العهد العثماني ·

(٩) مدينة حلوان ذكرها المؤلف باسم حلولا HELLOLLA كانت من المدن العامرة واشتهرت بفاكهتها وجودة التين والرمان فتحها المسلمون سنة ١٩ للهجرة بعد افتتاح جلولاء على يد جرير بن عبدالله البجلي . يقول ياقوت الحموي ان حواليها عيون كبريتية ينتفع بها الناس من عدة ادواء وقد تخربت حلوان واقيمت بلدة قصر شيرين الحالية مكانها

(١٠) المؤرخ ابن شحنه وقد ذكره المؤلف باسم بي شحنه BE SHOHNA BE من مؤرخي العراق في القرن السادس الهجري

(١١) زهاو هي مدينة زهاب ذاتها التي سماها المؤلف زهوب ZAHOUB ويطلق اسمها على منطقة واسعة كانت تابعة للواء السليمانية (شهرزور) وكانت تلحق احيانا باقليم قره جولان واسمها القديم (ورتك) ومنها عائلة الزهاوي المعروفة في بغداد .

(١٢) الشاهنامة ملحمة شهيرة تتألف من قصيدة واحدة تضم ستين الفاً من الابيات تروي اخبار ملوك فارس واساطيرهم منذ بداية التاريخ حتى الفتح الاسلامي الفها الفردوسي المتوفى سنة (١٠٢٠م) للسلطان محمود الغزنوي وقد انفق في نظمها خمسا وثلاثين سنة ترجمت الشاهنامة الى كل اللغات الاوربية كما ترجمها الى العربية لاول مرة المرحوم الدكتور

(١٣) مكدونالد كنير من الدبلوماسيين الانكليز والرحالين الذين عملوا في ايران والخليج العربي في اوائل القرن التاسع عشر

(١٤) بستون قريــة عند سفح جبل بستون وعلى مقربة مـن نهر كرخا تقع على بعد يومين شرقي همدان وفيها يقوم النصب التذكاري الذي اقامه داريوس الاول ملك فارس بعد انتصاره ومن الكتابة التي دونت على هذا النصب بالبابلية والفهلوية امكـن معرفة الحروف المسمارية واصواتها

(١٥) جبال طاووق من سلسلة جبال زاغروس

(١٦) سهل باجلان يقع في المنطقة المحيطة بخانقين والممتدة حتى شمال قصر شيرين وتسكنه قبائل الباجلان الكردية والذي سمي نسبة اليها

(١٧) قصة روميو وجوليت من الاساطير التي خلدها الكاتب الانكليزي الشهير وليم شكسبير في مسرحيته المعروفة بهذا الاسم وهي تمثل حادثة حب وقع بين فتى وفتاة من عشيرتين متخاصمتين فكانا يجتمعان سرا وتزوجا خفية في احد الاديرة وقد ساعدهما راهب ذلك الدير وخدر جوليت ووضعها في نعش لينقذها من اهلها ولكن ما ان رآها روميو على حالتها حتى ظنها ميتة فانتحر في الحال اما هي فحين افاقت من الخدر ووجدت حبيبها ميتا تناولت السم فماتت الى جانبه

(*) ص (٢٢٢) ذكر هنا اسم الفرات وهو خطأ فاضح وقع فيه ناقل قصة فرهاد لان النهر التي تقول الاسطورة ان شيرين قد القيت فيه هو نهر الوند الذي تقع عليه حلوان

الفصل الثامن عشر

من حلوان ، عبر سهل باجلان

الى زهاو وسربول

بعد ان غادرنا النزل في قصر شيرين بحوالي ثلاث ساعات اتجهنا في سيرنا شرق الشمال الشرقي فوق ارض تغطيها الصخور والتلال ، وشاهدنا على يسارنا سهلا واسعا تملأه الخضرة ، وتحيط به الجبال من كل جوانبه .

كان هذا السهل يدعى سهل باجلان ، ويعتبر النهاية الشمالية لمنطقة « كيلان التي تقع الى الجنوب ، وتؤلف النقطة الجنوبية او بداية امتداد كردستان الى الشمال وقد قيل ان فرهاد جلب من هذا السهل جواده الشهير الذي لم يكن له مثيل والشيء المؤكد فعلا هو ان مراعي « نيسان » التي اشتهرت في القدم بتربية الخيول تكثر هنا ، وان تلك المراعي كانت تقع في هذه البقعة بالذات

كان الطريق يتجه من هناك مباشرة نحو سربول SERPOOL وهي مرحلتنا التالية التي تقع في ناحية الشرق ، وتبعد مسيرة ثلاث ساعات تماما

اما مدينة « زهاو » وهي مقر باشا باجلان الكردي ، فكانت ترى الى ناحية الشمال منا ، وهي تتميز بقبتها البيضاء وسط غابة من الاشجار ، وتقع في الطرف الآخر من السهل ، وعلى بعد تسعة اميال على اقل تقدير .

كان اثنان من جماعتنا يقصدان الذهاب الى سربول ولذلك صمما على ان يفترقا هاهنا .

وحيث كان النهار ما يزال مبكرا ، واذ تأكد لدينا ان في مقدورنا ان نصل سربول بوقت كاف لنواصل سفرنا من هناك مع احدى القوافل في الصباح التالي ، فقد عزمنا على ان نستغل هذه المناسبة الملائمة فنذهب الى زهاو .

على اننا كنا جد حذرين فيما اعتزمنا تنفيذه ، فلم نحدد اي دافع حقيقي لذلك وعندئذ ادعينا بان لنا معاملة مع شخص يدعى « محمد اغا » ممن لم نكن نشك معه بوجود عشرين شخصا يحملون مثل هذا الاسم في ذلك المكان (كما هو شائع اسم جون سمث ، ووليم جونز في انكلترا) واننا لهذا السبب نود ان نجد في سيرنا نحو زهاو كيما نبلغها قبل ان يحل الظلام .

وطبقا لذلك حدنا عن الطريق المباشر ، واتخذنا طريقنا عبر السهل باتجاه شمالي الشمال الشرقي حيث مررنا بجملة من القرى الكردية مؤلفة من اكواخ من القش ، وقد امتدت على جانبينا حقول الرز ، والقطن ، والتبغ ، والبطيخ ، وما شاكل ذلك ، وكلها تزهو بخضرتها ، وتروى من جدول ينساب عبر السهل نحو الشمال ، ويتفرع من نهر الوند الذي خلفناه في الناحية الجنوبية من الطريق الذي كنا نسير فيه .

يسكن الاكراد في هذا السهل مساكن يمكن ان توصف بالاكواخ او الخيام لانها تبنى من مواد تستعمل في الكوخ والخيمة معا ، ولكنها ليست كلها متشابهة .

وسقوف هذه الخيام ، كما هو مستعمل لدى التركمان ، تتألف غالبا من نسيج من الشعر الاسود اما الجوانب والاقسام الاخرى فهي مصنوعة من الحصر تتقاطعها خطوط منحرفة من خيوط سوداء .

اما حرف السكان ، وهم بين رعاة وزراع ، وكذلك اقتصادياتهم المحلية فانها تشبه حرف واقتصاديات اولئك الاعراب شبه الرحل الذين يعيشون على الحدود الشرقية لسوريا .

غير انهم يختلفون في الملابس فهم يرتدون الصداريات القصيرة او الجاكتات المصنوعة من نسيج سميك ابيض اللون ، ولها اردان طويلة اشبه بما يستعمله الجنود الالبانيون (١) والسراويل الضيقة ، والاحذية الضخمة المصنوعة من النسيج الصوفي المحيك ، ويضعون في رؤوسهم قلنسوات من قماش سميك ابيض اللون يشبه قماش الصداريات وقد قسم الجزء المقعر من القلنسوة الى عدة اقسام بحيث يمكن تحريكه الى اعلى والى اسفل حسبما يريد المرتدي ذلك ، وتلك هي اهم الخصائص التي تتميز بها ملابسهم .

ومعظم هؤلاء يطلقون شعور رؤوسهم طويلة وهي في الغالب رمادية اللون تنهدل في تجعيدات على اكتافهم . اما ابدانهم فهي ممتلئة ، حسنة التكوين ولو انها اقصر واثخن من المستوى الاعتيادي .

وتختلف وجوههم بشكل مؤكد عن وجوه العرب والاتراك والفرس لانها اكثر استدارة واستواء من وجوه اؤلئك ، وهي اقرب الى وجوه التتر منها الى وجوه العرب ، او الترك ، او الفرس . اما لغتهم فانها قريبة

الى الفارسية من اية لغة اخرى وربما كان ذلك ناجما عن مجاورة المكان ذلك لانهم باشخاصهم يتألفون من عنصر يتباين تباينا واضحا .

وحين اقتربنا من مدينة زهـــاو خيل الينا باننـا سنشاهد مآذن المساجد في اماكن واتجاهات مختلفة . لكننـا ما ان اقتربنا اكثر حتى ثبت لدينا ان تلك المآذن لم تكن في الواقع سوى شواهد طويلة بيضاء وضعت في الاماكن التي يدفن القوم فيها موتاهم .

لقد كانت هذه الشواهد ترى على بعد عدة اميال وربما كان ارتفاع الواحد منها عشرين او ثلاثين قدما وكانت كما رأينا فعلا، مشيدة من الحجارة الخشنة ومطلية بطلاء ابيض اللون ، وهى كلها من الانواع المستعملة في مصر

وهى هنا قد ثبتت فوق قبر الميت ويكون حجمها وارتفاعها تبعا لثراء الميت واوضاعه .

ان هذا النوع من النصب مما لم اشاهد له مثيلا قبلا قط ومع انه قد ثبت لدينا بان هذا النوع شائع بين الاكراد الا انه كان خاصا بهم .

وصلنا مدينة زهاو عند الظهر تقريبا فدخلنا اليها من الباب الجنوبي واجتزنا القسم الاكبر من الاجزاء الداخلية فيها حيث القينا عصا الترحال في منزل صغير مزدحم قريب من السوق وعند طرفه الشمالي .

ولما كانت هذه المدينة تقع خارج الطريق الاعتيادي للسفر بين تركيـــا وفارس ، وهى بالطبع ليست ملكا لاي من الدولتين المذكورتين ، بل على العكس كانت مستقلة عنهما غالبا ، فان وصولنا اليها قد اثار التساؤلات الكثيرة عن الاسباب التي دعتنا الى ان نسلك مثل هذا الطريق .

وردت رسالة من باشا المنطقة يدعونا فيها ان نكون في حضرته وقد قيل لنا انه منذ ان طرقت مسامعه انباء الخطط التي كان يعدها « داود افندي »(٢)

بشأن بغداد ، كان السؤال والاستفسار يطرحان هنا على كل قادم من بغداد . وسبب ذلك ان عدة حروب كانت قد وقعت في هذه الانحاء ولكن الاكراد لم يشتركوا فيها مع واحد او غيره من المتحاربين *

* اورد ديودورس وغيره من المؤرخين القدامى شواهد عن نزعة الحرب لدى الكرداشيين حيث ذكر بان العشرة آلاف اغريقي الذين عادو الى بلادهم بعد هزيمة كورش الشاب في كوناكسا كان ينبغي لهم ان يمروا في طريق العودة عبر جبال الكرداشيين ما داموا قد صمموا على ان يتجنبوا الصحراء القاحلة التى استطاعوا منها ان يبلغوا « اسوس » وذلك باجتيازهم ثبساكوس (٣) الواقعة على نهر الفرات ، ويسيرون الى بابل .

وقد وصف اولئك الـكردوسيون او الكردوشيون بانهم شعب حر يحب الحرب ، وهم خصوم للملك ، وجنود ممتازون ، وماهرون ، بصفة خاصة ، في قذف الاحجار من المجانيق ، وكـذلك رمى السهام ، ولهم قوة خارقة غير معتادة .

ولقد ازال هؤلاء القوم الاغريق عن الاراضى المرتفعة وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم بجراح بالغة ذلك لان السهام التى كانوا يستعملونها يبلغ طول الواحد منها ذراعين ، وهى تخرق الدروع وتنفذ الى الصدور ولذلك لا يستطيع اي متدرع ان يصد قوتهم . وقيل ان هذا النوع من الاسلحة كان هائلا بصفة غير اعتيادية الى درجـــة ان الاغريق اعتادوا ان يتحاشوا اولئك الاشوريين بدلا من التصدي لسهامهم (انظر ديودورس الصقلي الكتـاب الرابع عشر الفصل الخامس
DIODORUS SICULUS B. 14 C 5

اعدنا التحدث عن المشغلة التي نود ان نجريها مع شخص يدعى محمد اغا في زهاو ، منذ ان وجدنا انه لم يعد في مستطاعنا ان نتراجـع عن ذلك بعد ان روج رفاقنا ذات الحكاية .

ومع انه قد وفد علينا ما لا يقل عن اربعة اشخاص ممن كانوا يحملون ذات الاسم وذات اللقب في مدة ساعة واحدة ، الا اننا اوضحنا بان ايا من هؤلاء لم يكن هو الشخص الذي نعنيه .

وتمتم صديقي الدرويش الذي حذق فن التصنـع قائلا « الله اعلم : لقد بدأت اشك في ان هذا كله ليس مصيبا . وقد لا يكون الامر كهذا وانني اسأل الله ان يكون ذلك صحيحا . لكنني واثق تماما بان محمد اغا هذا هو الشخص الذي اقرضته مائة قرش في بغداد ، وانه لابد ان يكون من المحتالين حين انتحل هذا الاسم ليخفي اغراضه السيئة ، ولكي يستدر عطفك وكرمك فقد خدعك بان لقب اسمه بالزهاوي ، دون ان يكون في الواقـع قد عاش حتى على مقربة من زهاو طيلة حياته »

واحتـج القوم بانهم لا يعرفون بينهم شخصا آخر يدعى محمد اغا سوى الاشخاص الاربعة الذين حضروا الى هنا . وحين ابرأت اولئك الاشخاص من كل لوم،وجدنا انفسنا مضطرين ان نمكث فترةما وقد قوبلت قصتنا بالتصديق العام ولو انها اثارت من اللوم لنا لأننا لم نعرف اين نضع ثقتنا ، اكثر من العطف على ما لحق بنا من ضرر مزعوم .

* * *

والمعتقد ان مدينة زهاو تضم نحوا من الف مسكن ، وذلك تقدير لا يعدو الحقيقة كثيرا . وجميع المساكن فيها صغيرة غير انه كان لكل واحد منها حديقة وفناء مرفقان به ولذلك فهو بهذه الصفة يحتل فراغا واسعـا من الارض

ولم نشاهد في المدينة بناء يحتوي على اكثر من طابق واحد والخانات فيها ، وهى بين اثنين او ثلاثة ، وكذلك الاسواق ، كلها صغيرة وتافهة نسبيا

ويحيط بالمدينة سور تدعمه الحصون او الابراج المستديرة على ان السور وحده ، ومن دون هذه الحصون ، يكفي لصد الفرسان او المشاة من الجند وهى القوات الوحيدة المعروفة هنا ذلك لان المدفعية من النادر ان تعرف او ان تستعمل في هذه الانحاء .

وحاكم المدينة « فتاح باشا » نفسه من الاكراد ، وهو يحكم كل منطقة باجلان التي تؤلف القسم الاعظم من جنوبي كردستان ويخضع كل الاكراد في المناطق المجاورة لسلطانه في حين انه هو يتبع ، في هذه اللحظة ، حكومة بغداد ولو ان هذه المنطقة سبق لها ان خضعت لحكم فارس طويلا ، وغالبا ما كانت تتحدى اسيادها .

ويعتبر اهل المدينة من الشرسين ذوى السلوك السيء مثلهم في ذلك مثل جميع الذين يخوضون غمار الثورات ويكافحون في سبيل حريتهم ، وهم واثقون انهم بمسلكهم هذا يرتفعون في نظر اولئك الذين يظنون ان الطاعة العمياء هي اسمى الفضائل .

اما بالنسبة لنا فقد كانوا يتصرفون معنا تصرفا مؤدبا وكريما ، ولو انه كان من غير المأمون لنا ان نثق باخلاقهم هذه ثقة تامة .

كان افراد الطبقات الواطئة يرتدون نفس ما يرتديه الفلاحون الذين اتينا على وصفهم قبلا . اما افراد الطبقات العليا فانهم يعتمرون بعمائم ذات لون احمر غامق لها حواش مهلهلة مخططة بخطوط زرقاء . في حين تشاهد النساء من دون حجاب بصفة عامة وهن ذوات وجوه وهيئات اجمل من نساء العرب عادة ولقد وجدنا ان اهل المدينة يستخدمون الثيران للنقل اكثر من ايـــة

حيوانات اخرى ، كما لاحظنا ان الاسواق كانت تزخر بالمواد الغذائية .

وسكان المدينة كلهم مسلمون ومن اهل السنة . وفيها مسجد واحد له قبة كبيرة بيضاء ولكن من دون مأذنة .

من الاشياء التي اعتمدت عليها في توجيه اسئلتي بشأن موقـــع قصر داستاغرد ، مذكرة زودني بها الدكتور هاين DR HINE في المقيمية البريطانية ببغداد . فقد قال في هذه المذكرة « وعلى بعد ثلاثة فراسخ الى الشرق من زهاو يوجد مكان يسميه الاكراد باسم « قلعة اليزدى غرد (٤) وهـو يقع فوق الجبال ويمثل مظهر خرائب هامة ذات كهوف واسعة ويبلغ محيطها ما بين فرسخين وثلاثة فراسخ .

اما في السهل وفي اسفل « يزدى غرد » فتوجد قطع من الآجر منتشرة بشكل كثيف فوق ذلك المكان ، وهي تعطي فكرة عن بقايا مدينة واسعة وتدعى هذه زردا ZERDA او غردا GERDA ، وربما كانت هـــذه هي خرائب داستاغرد ذاتها غير انه لم يتم الحصول على اية معلومات بشأنها من الكتب » .

لقد كنت جد متشوق لاجـــراء تحريات عن هذه القلعة التي تسمى « يزدغرد » في الاماكن المجاورة ، بل وان اذهب الى هناك اذا ما كانت تقع في طريقنا . ولذلك طلبت الى الدرويش ان يبدأ تحرياته علانية في احد الاتجاهات بينا رحت انا اطرح اسئلة ، بصفة غير مباشرة في اتجاه آخر .

ولقد تحقق لدينا من جهدنا الموحد في هذا الشأن ، انه يوجد في الجبال وعلى مسيرة ساعتين ونصف الساعة فوق ظهور الخيل شمـالي زهاو ، حصن او قلعة مهجـــورة تدعى « دوز غورا DOZGURRA » او « دوز كـورا DOZKURRA » (٥) واحيانا تدعى دوز كورا الملك DOZKURRAEL MILK غير انه لا يوجد موقع في تلك المناطق المجاورة يعرف باسم يزد غرد وقد قيل

ان هذه القلعة اصغر بكثير من قصر شيرين في حلوان وانها مشيدة بالحجـارة على ذروة جبل مرتفع ، وان من الصعب الارتقاء اليها .

وذكر ايضا ان القلعة وان كانت مهجورة الا انهـا ليست متهدمة.ويظهر انها كـانت في الاصل مجرد بناء للدفاع وهو يستمد قوتـه من موقعه وليس من بنائه .

وقيل انه توجد ايضا عند سفـح ذلك الجبل الذي استقرت القلعة فوقه مجموعة من المساكن الحديثة القليلة العدد ، لكنني لم اسمع عن وجود خرائب كبيرة لمدينة قديمة كما ذكر ذلك ، ولو انه من المحتمل كـــثيرا وجود مثل تلك الخرائب ولكن احدا ممن سألناهم عنها لم يكن قد شاهدها فعلا .

ومهما يكن الامر فان الجميع يتفقون على ان القلعة صغيرة ، وفي حالة جيدة وذلك لان باشا زهاو كان يتخذهـــا مأوى له ايام الاضطرابات ، وانها ظلت تستخدم لهذا الغرض حتى الى وقت متأخر حين حاول « عبد الكريم » ان يجرب حظه في التمرد ضد الباشا الاخير في بغداد *

---

* كان السكان الاقدمون في هذه الانحاء على شبه قريب بالسكان الذين يعيشون فيها الان .

فالكوشيون COSSCEANS (٦) الذين جرد الاسكندر ضدهم حملة من اكباتانا بعد وفاة هفستيون HEPHESTION (٧) كانوا امة تحب الحرب وهي تجاور الاوكسيين (٢) UXIANS ويقول عنهم « اريان » ان بلادهم جبلية ، ومدنهم منيعة . وانهم لما كانوا يدركون ان بلادهم تكون معرضة للغزو على يد جيش قوي ، فقد التجأوا الى قمم الجبال (اما بصفة مجتمعة او في شكل جماعات متفرقة كما كان يحدث ذلك) وهكذا لم يكن في مستطاع الاعداء ان يصلوا اليهم . =

ولقد تركز الاصرار بصفة خاصة على عدم وجود نهر او فرع من نهر على مقربة منها ، وان تلك الانحاء كانت اراضي صخرية جرداء بصفة عامة ، وان الرعاة القلائل الذين كانوا يرعـون مواشيهم على التلال كانوا يأخذون ما يحتاجون اليه من ماء من الينابيع .

وكان من اليسير في هذا المكان تمييز الموقع الـذي ذكره « دانفيل » باسم « دسكرة الملك DISCRA EL MILK »

واصر صديقي الدرويش بان هذه العبارة بقصد بهـا في اللغة الفارسية

= وحين كان الغزاة يتراجعون ، يعود هؤلاء الى مساكنهم ، ويستأنفون اعمالهم السابقة في نهب جـيرانهم وسلبهم وتلك هي الوسائل التي يعززون بها قوتهم ومكانتهم

[اريان : الكتاب السابع ف ١٥ مجلد ٢ صفحة ١٥٦

ARIAN . B . 7 C . 15 V . 2 P . 156

ويصف سترابوا (الكتاب الثاني) هؤلاء الـكوسيين بانهم اقوام تعيش بجوار « ميديا » وهم من عنصر شرس الى درجة ان ملوك الفرس كانوا يضطرون الى شراء مسالمتهم ليحولوا بينهم وبين اغارتهم على الاقاليم الفارسية وارتكاب اعمالهم المعتادة في النهب والسلب .

ويقول سترابو ان الملوك كلما حاولوا اخضاعهم التجأوا الى الجبال التي يسكنونها ، واحبطوا كل المخططات ضدهم بسهولة . ولذلك كان ملوك فارس يضطرون الى دفع جزية الى هؤلاء الكوسيين حين كانوا يقصدون قصورهم الصيفية في اكباتانا ولكي يؤمنوا بهذا طريق عودتهم الى بابل مرة اخرى

[انظر ملاحظة روك عن العبارة المشار اليها في كتاب « روك »]

ROOK ,s NOTE TO THE PASSAGE CITED

القديمة « قلعة الامير الصغيرة » وهي مأخـــوذة من « دز » وتعني قلعة ، و « غورا » وتعني « صغيرة » و « الملك » ويقصد بها « الامير » .

غير انني لست اعلم ما اذا كان مثل هذا التفسير والاشتقاق صحيحا ام لا .

على ان اسبابا كثيرة تدعو الى عدم الاعتراف بان هذا المكان يقصد به داستاغرد القديمة .

واول هذه الاسباب هو عدم وجود نهر عميق يجري في المنطقة القريبة من هذا المكان .

والثاني انه مكان مقفر موحش لا اثر للجمال في اية بقعة منه .

واخيرا فانه يبعد مسيرة اكثر من خمسة ايام عن النهر الذي يمر من امام طيسفون . وما عدا ذلك فان القلعة صغيرة جـدا بالنسبة الى الابنية الواسعة التي ذكر ان داستاغرد كانت تضمها ، وهي مطابقة تماماللبناية التي قيل انهرقل كان قد دمرها بالنار تدميرا كاملا .وفضلا عن ذلكفان الذي يسكن مثل هذا المكان لا يستطيع ان يهرب منه اذا ما هاجمهفيهجيش معاد ، لان الهرب لايمكن ان يتحقق الا في سهل ، وفي اراض مكشوفة مثل خانقين التي كانت تقع فيها داستاغرد بصفة مؤكدة

لقد ذكر ان مدينة « زهاو » الحالية تحتل نفس موقع مدينة حلوان « القديمة » والتي كانت هي الاخرى من المنازل المحببة لدى كسرى . ولما كانت تقع خلف هذه المدينة سلسلة من الجبال العالية ، وينبسط امامها سهل دائري الشكل ممتاز ، يبلغ قطره زهـاء تسعة اميال وتحيط به الجبال العالية من كل جانب ، فان هذه المدينة بوضعها هذا ربما كانت مستقرا مناسبا لاحد الامراء المترفين جدا .

لم نشاهد ما يشبه الخرائب هنا . غير ان تحرياتنا كانت سريعة خاطفة

ومهما يكن الامر فاذا كان هذا موقع حلوان ، كما يبدو ذلك بالنسبة الى المسافة التي تفصلها عن خانقين وقصر شيرين ، فان « دانفيل » يكون قد اخطأ حين وضعها على فرع من فروع نهر ديالى ، ذلك لانه لا يوجد هنا نهر ، ولا اي فرع لنهر يجري عبر المدينة . او على مقربة منها .

فالنهر القريب الملائم هو نهر الوند ذاته ، والذي يقع في الطرف الاخر للسهل ، وعلى بعد عشرة اميال تقريبا . ومن هذا النهر تتفرع كل الجداول التي تروي حقول الرز الممتدة شمالا نحو « زهاو » حيث ينخفض مستوى الارض في ذلك الاتجاه .

لقد وضع « كنيير » مدينة حلوان في مكان يدعى « البانيا ALBANIA على مقربة من خط الطول الخامس والثلاثين لكن زهاو تطابق ، بصفة اكثر دقة وصحة ، المكان الذي حدد بمثابة خط طول لها ، وهـذا اقرب الى خط الطول الرابع والثلاثين منه الى الخط الخامس والثلاثين . كما انه يطابق ايضا المسافة بينها وبين بغداد والتي تبلغ مائة وعشرين ميلا تماما ، او مسيرة خمسة ايام كاملة .

اما « البانيا » ـ وهي مكان لم اسمع به قط ـ فلابد انها ، حسب موقعها على الخريطة ، تبعد ثلاثين ميلا اخر على الاقل .

* * *

امتطينا خيولنا عند العصر (حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر) من النزل الذي حللنا به في زهاو فخرجنا من الباب الغربي لها ، ثم استدرنا حول السور الخارجي ، ومن هناك اخذنا الطريق المرتفع الى سربول .

كان طريقنا يتجه نحو جنوبي الجنوب الشرقي ، وعلى مقربة من سفوح الجبال الغربية .

وبعد مسيرة أكثر من ساعتين بلغنا الطريق الاعتيـادي الذي يؤدي الى سربول ، وذلك في الناحية الغربية من النقطة التي كـنا قد انفصلنا عندها عن هذا الطريق . واستغرق سيرنا حوالي ساعة اخرى فوق سلسلة من التلال العالية

وعند غروب الشمس وصلنا سفح جبل عال ، وما ان ارتقيناه وبلغنا قمته حتى انحدرنا ثانية منه الى سفح صخرى ، كان يبدو من المستحيل اجتيـازه حتى على ظهور الخيل لو وجد في مكان آخر غير هذا المكان .

ترجلنا هنا ، وطرحنا الاثقال عن دوابنا وكنا قد بلغنا منتصف الطريق

كان دليلنا يصر على ان هذا هو الطريق الاعتيادي المعروف ، ولو اننا ادركنا مؤخرا انه قد ضل طريقه وجاء بنا الى ذلك الطريق الذى لا يطرقه احد

كان الظلام تاما حين وصلنا نزلا في سربول وقد اخذ منا التعب مأخذه في ذلك الطريق الوعر المضني .

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل الثامن عشر

(١) الالبانيون هم سكان البانيا الحالية ويعرفون باسم الارناؤوط ومنهم محمد علي الكبير مؤسس الاسرة الخديوية القديمة في مصر والبانيا احدى الدول الاشتراكية في اوربا الان

(٢) داود افندى يقصد به داود باشا اخر المماليك الذين حكموا العراق والذين انتهى حكمهم بموته سنة ١٨٣٢

(٣) ثبساكوس THAPSCUS مدينة قديمة تقع على نهرالفرات وهي على مقربة من مدينة مسكنة الحالية فى سوريا وتعرف الان باسم (الدبسى) وهو تحريف للمقطع الاول من اسمها القديم كان فيها جسر عبر عليه الاسكندر في طريقه الى العراق ـ

(٤) قلعة اليزدى غرد كتبها المؤلف باســـم خلة اليزدى غـــرد

وتعني كلمة « خلة » القلعة اما اليزدي غرد فانـها نفسهـا هي الاخرى تحريف ظـاهر لداستاغرد وتعني قلعة داستاغرد اي اطـلال تلك المدينة الشهيرة

(٥) دزغورا DOZ GURA او دزكورا DOZ KURR المعتقد ان الكلمتين تعنيان « داستاغرد » بعد تحريفها او قد تعني «الحصن الكبير» باللغة الكردية .

(٦) الكوشيون COSSAENS هم الكاشيون الذين حكموا ايران واستولوا على العراق في الفترة ١٧٦١ ـ ١١٦٦ ق م . وهم من قبيلة كيشو وظهر منهم ستة وثلاثون ملكا اولهم (غندش) الذي حكم في الفترة ١٧٦١ ـ ١٧٤٥ ق . م .

(٧) الاوكسيون UXIANS نسبة الى نهر اوكسوس في تركستان والذي يعرف باسم اموداريا ايضا ويقصد بهم الاقوام التي كانت تسكن في حوض ذلك النهر .

(٨) هفستيون HEPEESTION (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق م .) نبيل مقدوني وصديق للاسكندر الكبير منذ الطفولة واصبح من اقرب اصدقائه صحب الاسكندر في فتح العراق وفارس والهند وكان من اكابر قواده وقد توفي بالحمى قبل وفاة الاسكندر بعام واحد .

الاقامة في البصرة

دخل بكنغهام حدود ايران في الحادى عشر من ايلول ١٨١٦ م مبتدئا بمدينة « سربول » فاجتاز جبال زاغروس ليصل كرمنشاه في اليوم الخامس عشر ثم يغادرها بعد ثلاثة ايام الى همدان التي وصلها في الحادي والعشرين من ذلك الشهر ، ليتنقل منها الى اصفهان التى اقام فيها حتى الرابع عشر من شهر تشرين الاول

ومن اصفهان توجه الى برسيبوليس العاصمة القديمة لايران ثم تركها متوجها الى شيراز في الرابع والعشرين من تشرين الاول ومن هناك انتقل الى كازرون فميناء بوشهر الذي بلغه في التاسع من تشرين الثاني حيث ركب البحر الى بومباي وبذلك انتهت رحلته فيما سماه بلاد اشور وماذى وايران .

ومن بومباى قدم بكنغهام الى البصرة ليمكث فيها عدة شهور وها هـــــو يروي ملاحظاته ومشاهداته عنها في الصفحات التالية .

المترجم

الفصل التاسع عشر

البصرة الميناء الرئيس في الخليج العربي

سكانها، وتجارتها، ومواردها

بعد ان وصلت الى بومباى بمدة قصيرة عينت آمرا لاحدى السفن الهندية الكبرى هي السفينة « همايون شاه » التي عدت بها الى الخليج العربي (٢) واقمت طويلا في كل من اسواقه التجارية الكبرى القائمة ضمن حدوده .والفرص التي هيأها لي هذا العمل للالمام بمعلومات جديدة ، ولتصحيح ما سبق الحصول عليه ، لم تهمل قط .

واظنني مصيبا في قولي اذ اعلن بانه لم تتهيأ لي معلومات عن هذا الخليج بصفة عامة ، وعن موانئه الرئيسة بصفة خاصة أكثر دقة وسعة من المعلومات التي ساعدني حسن الحظ على جمعها ، وتقديمها للقارىء في هذه الصفحات .

اما الملاحظات المتعلقة بقاس الاعماق فيه (الهيدوغرافية) التي تم الاطلاع عليها ، فهي وان كانت مهمة بالنسبة الى دقة الملاحة في الخليج ، لكنها قد ادرجت في مؤلف آخر * لانها اقل اثارة لقارىء غير المتخصص ، ولان مثل هـذه الابحاث يحتفظ بها لتنال اهتماما ادبيا واسعا ، وذلك ما يستنتج من اولى الرحلات التى قام بها « نيرخوس » في عهد الاسكندر الكبير حين زار هذا البحر لاول مرة ملاحون قدامى .

وبهذا المعنى اقدمت على الكتابة عن البصرة بعبارة تمهيدية لتوضيح الظروف التي تمت هذه الكتابة فيها .

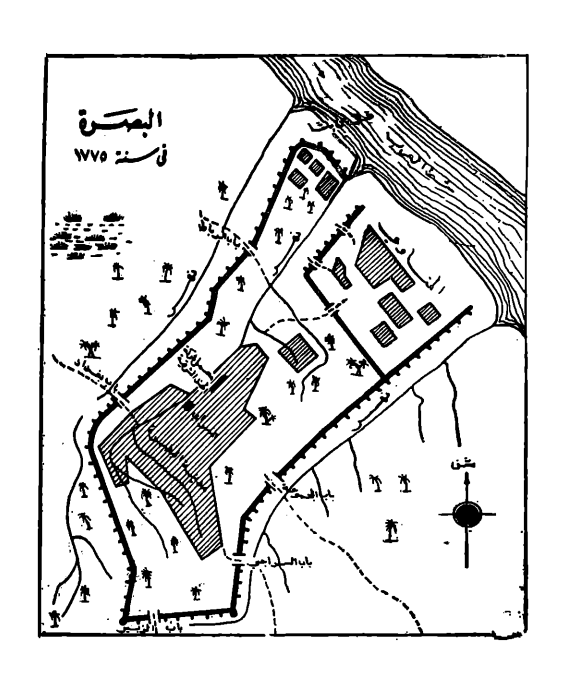
* * *

بعد ان أقمت فى البصرة اكثر من ثلاثة شهور في ذلك الوقت الذي كنت فيه اقوم بجولاتي داخل المدينة ، واتصل فيه بحرية تامة مع طبقات جميع السكان المحليين ، استطعت ان اجمع المعلومات والاوصاف التالية ، وتأكد لدي انطباع

* انظر مقال « رحلة من مسقط الى بوشهر ، ومن بوشهر الى البصرة في الخليج العربي نشر في صحيفة « صوت الشرق » (٢) ـ اورينتل هيرالد ـ في شهري تشرين الاول ، وتشرين الثاني سنة ١٨٢٨

VOYAGE FROM MASCAT TO BUSHIRE , AND FROM BUSHIRE TO BUSSORAH IN THE PERSIAN GULF PUBLISHED IN THE ORIENTAL HERAL FOR OCTOBER AND NOVEMBE 1828

* اللفظة الصحيحة هى بصرة (٣) ** تقع القرنة عند التقاء دجلة بالفرات وهى واحدة من ثلاث مدن شيدها سيلوقس باسم افاميا APAMEA تكريما لزوجته الاولى التي كانت تحمل هذا الاسم (٤)


البصرة
في سنة ١٧٧٥
شط العرب
باب بغداد
باب السراجي
باب الزبير
شرق

اما الملاحظات المتعلقة بمقاس الاعماق فيه (الهيدوغرافية) التى تم الاطلاع عليها ، فهي وان كانت مهمة بالنسبة الى دقة الملاحة في الخليج ، لكنها قد ادرجت في مؤلف آخر * لانها اقل اثارة للقارىء غير المتخصص ، ولان مثل هـــذه الابحاث يحتفظ بها لتنال اهتماما ادبيا واسعا ، وذلك ما يستنتج من اولى الرحلات التى قام بها « نيرخوس » في عهد الاسكندر الكبير حين زار هذا البحر لاول مرة ملاحون قدامى .

وبهذا المعنى اقدمت على الكتابة عن البصرة بعبارة تمهيدية لتوضيح الظروف التي تمت هذه الكتابة فيها .

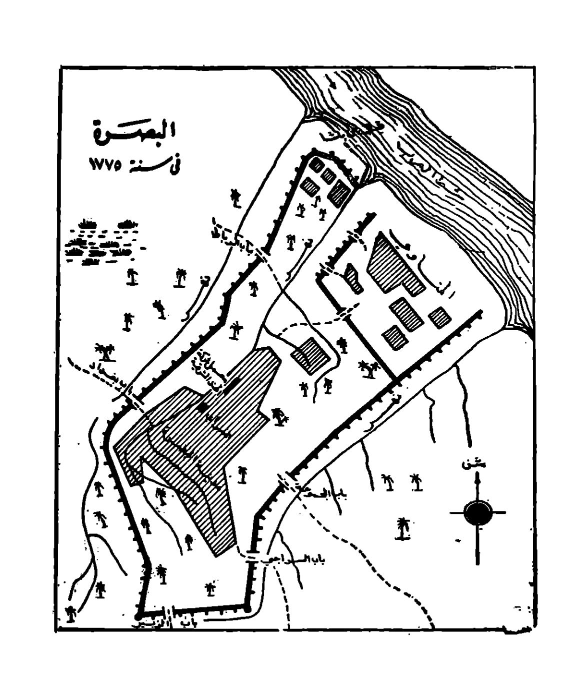
* * *

بعد ان أقمت في البصرة اكثر من ثلاثة شهور في ذلك الوقت الذي كنت فيه اقوم بجولاتي داخل المدينة ، واتصل فيه بحرية تامة مع طبقات جميع السكان المحليين ، استطعت ان اجمع المعلومات والاوصاف التالية ، وتأكد لدي انطباع

---

* انظر مقال « رحلة من مسقط الى بوشهر ، ومن بوشهر الى البصرة في الخليج العربي نشر في صحيفة « صوت الشرق » (٢) - اورينتل هيرالد - في شهري تشرين الاول ، وتشرين الثاني سنة ١٨٢٨
VOYAGE FROM MASCAT TO BUSHIRE , AND FROM BUSHIRE TO BUSSORAH IN THE PERSIAN GULF' PUBLISHED IN THE ORIENTAL HERAL FOR OCTOBER AND NOVEMBE 1828

* اللفظة الصحيحة هى بصرة (٣) ** تقع القرنة عند التقاء دجلة بالفرات وهى واحدة من ثلاث مدن شيدها سيلوقس باسم افاميا APAMEA تكريما لزوجته الاولى التي كانت تحمل هذا الاسم (٤)


البصرة
في سنة ١٧٧٥
شط العرب
باب السراجي
باب الزبير

هام هو ان ابدأ الكتابة عن هذه المدينة بصدق .

تقع مدينة « باصورا » * على مقربة من الضفة الغربية لالتقاء نهري دجلة والفرات ، وعلى بعد حوالى خمسين ميلا جنوبى الموقع الذى يلتقيان فيه عند القرنة ** وعلى بعد سبعين ميلا من نقطة انصبابهما فى البحر .

وهذان النهران يحافظان على اسميهما المحترمين دجلة والفرات من منبعيهما حتى نقطة التقائهما . اما النهر الذي يؤلفانه فيدعى شط العرب ، اي نهر العرب ، وهو يبدأ من هذه النقطة حتى البحر .

ولقد تم تحديد موقع المعمل البريطانى (٥) الذي يقع وسط المدينة تقريبا بالآلات الفلكية فظهر انه على خط العرض ٣٠، ٢٩، ٣٠ شمالا وعلى خط الطول ٤٧ ، ٣٤، ١٥ شرقا . وتبدو المدينة التي تحيط بها اسوار في شكل مربع مستطيل غير منتظم ، واعظم طول لها يقع باتجاه شرق الشمال الشرقى وغربي الجنوب الغربي . في حين ان اعظم عرض لها يمتد من غربي الشمال الغربي الى شرقي الجنوب الشرقي على شكل زوايا صحيحة مع نهر شط العرب الذي يجري من شمالي الشمال الغربي الى جنوبي الجنوب الشرقي .

ويمر الجزء الذى يقابل الاتجاه الشمالي الشرقي من السور بامتداد الضفة الغربية من النهر وعلى بعد بضع مئات من الياردات عن الحافة ، وقد يمتد زهاء الميل طولا من جنوبي الجنوب الشرقي الى شمالى الشمال الغربي .

ويسير جزء السور الذي يقابل جنوبى الجنوب الشرقي فى خط مستقيم من النهر الى الصحراء او من شرقى الشمال الشرقي الى غربى الجنوب الغربى مسافة ثلاثة اميال تقريبا .

ويندمج السوران اللذان يواجهان شمالي الشمال الغربي وغربي الجنوب الغربي في سور واحد وذلك بسبب عدم انتظام السور الاول واتجاه السور الاخر معه في استدارة لدى الناحية الغربية تجعل زاوية اندماجهما غير محددة تماما . على ان محيط السورين يقدر بحوالي ثمانية او تسعة اميال والاسوار مشيـــدة من اللبن ، واسسها سميكة وفي قمة السور الذي يبلغ ارتفاع الصدر مزاغل للبنادق تستدير باستدارة السور ، وترى فيها مصادفة محلات المدافع لكن هذه المحلات ليست مرتفعة كثيرا .

وبعض اجزاء السور محصنة بابراج مستديرة معظمها متوجة بالشرفات .

على ان هذه الاسوار وان كانت وسيلة دفاع فعالة ضد اعراب الصحراء الا انها في نظر الأوربيين ، ينقصها التناسق ، والقوة المطلوبة للمواقع الحصينة والحالة المزرية التي عليها الاسوار في الوقت الحاضر ، بسبب عدم اجراء التصليحات التي تحتاج اليها في حينه ، تجعلها تبدو اشبه بالاسوار المخربة لمدينة مهجورة منها باسوار تحيط بمدينة لا تزال مأهولة .

ولاسوار البصرة خمسة ابواب . ثلاثة منها تواجه جنوبي الجنوب الشرق وتبدأ من هنـاك حتى النهر وتدعى باب « المجموعة » وباب « السراجي » (٧) وباب « الزبير » اما البابان الباقيان اللذان يواجهان شمالي الشمال الغربي فيدعيان « باب الرباط » (٨) وباب بغداد ، وهذا البـاب الاخير يؤدي الى وسط المدينة والى اعظم قسم مأهول فيها .

ومعظم هذه الابواب اخذت اسماءها من الاماكن التي تبدأ منها او تؤدي اليها ، وكلها ذات مظاهر تافهة في هيكلها الاصلي وهي في حالة خراب لعدم الاهتمام

بتصليحها *

وهناك ثلاث قنوات كبيرة تمتد من النهر الى داخل المدينة لتزودها بالماء ولري الاراضي المحيطة بها ، ولتسهيل مهمة نقل السلع . وتدخل القناتان الشمالية والجنوبية المدينة من الزاوية التي يلتقي عندها السوران ثم تسيران خارجهما وبامتدادهما على بعد بضع بردات عنها حيث تقطعان الطريق الى الزوايا المقابلة للمدينة ، ومن هناك تنحدران خارج السور الغربي فتؤلفان خندقا يكون مكملا للتحصينات .

وتتفرع من هذه القنوات قنوات اصغر تنقل المياه الى انحاء مختلفة من الاراضي التي تمر خلالها . وتدخل القناة الثالثة وهي الكبيرة في حوالى منتصف الطريق بين القناتين لكنها تكون اقرب الى القناة الشمالية فتسير نحو الغرب بامتداد المدينة كلها ، وتمد السكان بالماء للاغراض المدنية ولرى الحقول او الحدائق القائمة داخل الاسوار وذلك بقنوات تتفرع منها في اتجاهات متباينة ، وتسهيل عملية نقل السلع في قوارب كبيرة تمر من النهر الى وسط المدينة وهي محملة بكل انواع البضائع التى تشمل ما يستهلكه السكان والتجارة الاجنبية التى يتعاطاها التجار هنا

وتفيض كل هذه القنوات في اوقات المد ، ثم لا تلبث ان تجف فى وقت الجزر وذلك مرتين فى كل اربع وعشرين ساعة .

ويحدث الاستثناء الوحيد حين تهب الرياح الشمالية الغربية على البحر في

---

* هنالك باب جديدة يجرى بناؤها الان في مواجهة الناحية الجنوبية الغربية بين باب بغداد وباب الزبير تدعى باب « بكنـا » (٩) وهو اسم المتسلم الحالي .

وقت الجزر اذ تمنع تدفق الماء وتحدث في النهر جزرا يستمر طيلة يومين متعاقبين .

وحتى في الاحوال الاعتيادية يندر حدوث اكثر من مد واحد في ساعة ملائمة من النهار اذ يستمر الجزر غالبا حوالى ثماني ساعات، بينما لا يستمر المد اكثر من اربع ساعات ولذلك كثيرا ما تحدث جلبة وضوضاء بين الزوارق التي تمر في القناة صعودا و نزولا الى درجة انها توحي للغريب بانطباع عن وجود حركة تجارية نشطة اكثر مما هو موجود منها فعلا .

والقناة بحد ذاتها ضيقة جدا لا تتلاءم ومرور الزوارق التي تمر فيها، ولما كانت الزوارق الصغيرة هي التي تستطيع ان تتحرك في القناة، عدا قة المياه العالية فان هذه الزوارق تتحرك في الغالب دفعة واحدة .

وتظل الزوارق راسية وهي في طريقها عبر القناة الى ان يحدث المد التالي فيحرر كما بينما تظل السفن الموسقة التي لم تتهيأ لها الرياح راكدة احيانا وسط القناة وبذلك تسد الطريق امام السفن الصغيرة التي تكون المياه كافية لتحريكها لكن لا مجال لمرورها .

وتستخدم لنقل الركاب في هذه القناة قوارب صغيرة يسمونها « بلم » توضع فى اقعارها حصر نظيفة للجلوس عليها وتقوم فى اعلاها مظلة تظللها وهي تندفع بسرعة يحركها ملاحان يقفان عند الرأس والصدر . ويزود كل قارب بمجدافين يجعلانه يجرى بسرعة وعلى درجة واحدة مع القارب الذي يستخدم اربعة مجاديف

وهذه السفن من اصغر ما يمكن مشاهدته منها ونظرا لانها لا تغطس في الماء الا بضع بوصات فان من اليسير استخدامها في اي وقت الا اذا كانت المياه واطئة ميتة .

وهناك انواع مختلفة الاحجام من هذه القوارب تصل الى السفن التي تبلغ حمولة الواحدة منها خمسين طنا والتي تعد اكبر سفينة شاهدتها تسير في قناة على ما اتذكر .

وغالبا ما تكون القوارب طويلة وضيقة وذات اشكال خفيفة وانيقة كما تدل على الصفة الخاصة التي تصنع بها قياديها .

والطريقه المعتادة في تسيير هذه القوارب في النهر هي استخدام اعمدة طويلة من القصب (١٠) لكن يحدث احيانا ان يتم تسييرها باستعمال مجاديف يحولها الملاحون من جانب الى آخر تشبه في مظهرها ما سبق ان ذكره المؤرخ «اريان» عن رحلة نيرخوس .

فقد قيل ان صيادي السمك الذين شاهدوهم في كوفوس (١١) وكانوا في زوارق تشبه ما جئنا على وصفه ، لم تكن مجاديفهم مثبتة فى مرابط ، كما هو الامر بالنسبة للسفن الاغريقية ، بل كانوا يمسكون تلك المجاديف بايديهم وكأنهم يحفرون بها الماء بدلا من التجديف ويرفعونها عاليا مثلما يفعل ذلك العامل الذي يرفع التراب برفشه *

وهناك قوارب مدورة مصنوعة من العيدان التي تصنع منها السلال ومطلاة بالقار يتراوح قطر الواحد منها ما بين ستة وثمانية اقدام وهي تطفو في المياه الضحلة وتستطيع حمل ستة او ثمانية اشخاص . وتستعمل هذه القوارب في القناة وفي النهر

* رحلة نيرخوس ترجمة الدكتور فنسنت المجلد الاول ص ٤١ ـ ٤٢

VOYAGE OF NEARCHUVS ' DR · VINCENT,S TRANSLATION VOL : 1 PP . 41 - 42

معا ولما كانت حركتها مستديرة اصلا فانها تسير بيسر .

وتسمى هذه القوارب هنا باسم « قفة » ويبدو انهـا من نفس القوارب المدورة التي تصنع من القصب وعلى شكل مظلة مما لاحظ هيرودوتس استعماله في نهر بابل قبل الفي سنة خلت .

وهناك انواع اخرى من الزوارق تستخدم بصفة رئيسة لنقل الاثقـــال وتدعى « دونك » ونظرا لغرابة شكلها فلا يمكن وصفها . فالواحد منها يرتفع عند كل من نهايتيه بشكل عمودي خالص حتى ليغدو مماثلا لشكل الهلال ، لكنه يغطس في الماء حين يكون اكثر عمقا حتى ليبدو وسطه وكأن الواحه قد برمت وزحزحت عن مكانها الاصلي . ويكون القعر مفرطحا تماما ويرتفع القيدوم الى ارتفاع ملموس عن الماء ثم يهبط الى الداخل فيما يشبه رأسي الهلال . ويطلى هذا الزورق بنوع سميك من القار .

وبقية السفن التي تستخدم في القناة هي من الشكل الاعتيادي المستعمل في الخلجان العربية والفارسية ، ومع ذلك فان اشكالها الخشنة تبدو فوق سطـح الماء ذات قعور جميلة وهي قوية الصنع .

وكل هذه القنوات وما يتفرع عنها تكون محفورة في الارض من دون حافات او ابنية اصطناعية ظاهرة في اي جزء منها على طول امتدادها ، وقـــد تناثرت فوقها جسور قليلة مشيدة بالآجر في اجزاء شاقة من المدينة وهذه الجسور واهنة جدا .

وحين يأتي المرء من النهر ويصعد الى البصرة بالقناة الرئيسة يمر المدخل عبر مصب ضيق يقـع على يساره حصن دائري (X) في حين يقع على يمينه مسجد ذي

منارة صغيرة .

وتقوم على ضفتي القنـاة بضعة بيوت تستخدم التي تقع منهـا على اليسار بمثابة ساحات لطرح الاخشاب ، ومخازن لبيع المواد التي يطلب شراؤها لاستعمالها في الزوارق وللشحن . اما تلك التي تقع عـــلى الضفة اليمنى ، وتدعى باسم « المقام » (١٢) فانها تضم دائرة الـكـمـرك عند الساحل ، ومقهى ، ومسجدا ، ومساكن لاولئك الذين اجتذبتهم الاعمال للسكنى في هذا الموقع .

ويدعى جزء الابنية الذي تقع على يمين القناة في المدخل باسم المقام * ،وهو مقر اقامة الحاكم ، وكان قبلا مقرا لضابط تابع لوالي البصرة له قصره الآخر في ظاهر المدينة .

اما التي تقع على الجانب الايسر من القناة (١٣) والذي يقابل المقام عند المدخل فيدعى « المناوي » (١٤)

وفي عهد حسين باشا بن علي باشا (١٥) وكلاهما قد ذكرا في رحلات بيترو ديللا فاله ، وتافرنيه ، كانت مدينة البصرة تمتد زهاء ميلين من ضفة النهر ، وكانت (المنـاوي) في ذلك الوقت تؤلف قريـة ظاهرة تستخدم ميناء او محـلا لرسو السفن فيه .

---

* تعني كلمة « مقام » محل الاقامة او المسكن . وقائمقام مأخوذة من عبارة « مقيم في محل الاقامة » وتعني كلمة « مقام » نائب ، او وكيل او مفوض او ملازم ويقصد بها نائب حاكم اسطنبول او اي موظف محلي (ريكاردسون : القاموس العربي صفحة ١٨٠٩

RICKARDSON : ARABIC DICTIONARY P. 1809

وكان حسين باشا هذا هو الذى مد اسوار المدينة السابقة الى النهر واحاط بها قرية المناوي فدخلت ضمن الاسوار كل الحدائق والحقول التى كانت خارجة عنها قبلا والتى لم تنشأ فيها اية ابنية .

وما لبثت القرية الجديدة التي شملتها الاسوار ان تم تحصينها بسور قوى يلتف من حولها ويبلغ طوله ثمن مجموع المساحة الداخلة ضمن اسوار المدينة حتى بعد ان امتدت الاسوار على هذه الشاكلة الى النهر .

ولقد حاول الدكتور وليم فنسنت ان يبرهن على اشتقاق كلمة (تالمينا TALMENA) (١٦) وهي احدى المحطات التي نزلها (نيرخوس) وذكرها (اريان) فى كتابه بان ادعى ان هذه الكلمة قد اخذت من معنى (حصن خرب) على اساس ان كلمة (تل) تعني فى العبرية كومة او خربة ، وكلمة (ميناء) تعنى حصنا فى العربية ، وراح يدعم رأيه ذلك بقوله ان (مينـــا) و (ميناو) فى انامیس (١٧) والمناوي فى البصرة كلها تعنى الحصن ** .

غير ان هذا التفسير ليس صحيحا لان كلمة (ميناء) تعني فى العربية مكانا لرسو السفن * كما تعني مكان وقوف الزوارق ، وهذا مرادف للكلمة الايطالية (سكالا) (١٨) الشائعة الاستعمال في البحر الابيض المتوسط والتي تطلق على اماكن مماثلة .

فعلى الساحل السورى تقع مدينة طرابلس على بعد ميل او ميلين عن البحر ولذلك يدعى موقع رسو السفن القائم امامها باسم ميناء . وهذا ينطبق على

* ميناء ، ومرسى السفن ، وثغر (ريكاردسون : القاموس العربي صفحة ١٢٢٢ ** فنسنت : تجارة الاقدمين م ١ ص ٢٦٣

مدينة اللاذقية ذاتها ايضا ، وهي التي تقع فوق طرابلس تماما .

وحتى في مصر فان المدن التي تقع على مقربة من النهر كالقاهرة ومنفلوط ، واسيوط ، تدعى الاماكن التي تقف الزوارق عندها باسم الميناء او ثغر المدينة وهو يستخدم لهذا الغرض .

ولست اذكر مرة واحدة ان هذا الاسم او الكلمة التي تشابهه تطلق عمليا على الحصن في اي من العبارات العربية التي كان ينطق بها امامي .

* * *

بعد ان يجتاز الطريق « المقام » على اليمين و « المناوي » على اليسار ، يصعد بالقناة الى المدينة ليتاخمه طريق عام في الجانب الجنوبي ، وبساتين النخيل والحدائق في الجانب الشمالي مسافة نصف ميل او اكثر .

ومع ان القناة ضيقة وواطئة الا ان الحرارة فيها تكون شديدة اثناء النهار اذ تتركز عليها اشعة الشمس بكل قوتها ، وتصد ضفافها العالية الريح عنها ، ومع ذلك ففي اوقات الصباح او الامسيات الباردة وحين يفيض النهر يكون الصعود بالقناة والهبوط فيها مقبولا .

ويواجه المرء بيوت البصرة لاول مرة على مسافة ميل تقريبا من مدخل القناة . ويحتشد معظم هذه البيوت في الجانب الجنوبي وعلى بعد اقل من ميل من هناك يقع المعمل البريطاني الذى يشبه سورا دائريا متجها نحو النهر وله نوافذ مقوسة او فتحات ، وبوابة كبيرة تتجه نحو احد الجداول يقوم عليها حراس وحملة الاعلام وغير ذلك مما يضفي عليه مظهر حصن من الحصون ، وهو في الواقع احسن بناء يرى في المدينة كلها .

والى اعلى من المحل بحوالى ربع ميل يقوم «سراي» او قصر «المتسلم»(١٩) ودائرة الـكمرك ، وكلاهما واهن البناء وفي حالة مزرية .

ويقع الى اعلى من دائرة الكمرك جسر يعبر القناة باتساق الطريق الآتي من باب بغداد وبذلك يجعل القناة غير صالحة للملاحة من هناك فما فوق ولو ان القناة ذاتها تستمر حتى تبلغ الطرف الاقصى من المدينة . ويبلغ ارتفاع الماء في هذه القناة حوالى ثمانية اقدام عموديا عند حلول المد خلال فيضان الربيع وستة اقدام عند حلول الجزر . اما حين يهبط الماء فان القناة تصبح شبه جافة تقريبا .

ويبدأ ارتفاع الماء وتغيره فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، او بحوالى ساعة قبل ان يرتفع في وسط النهر

والارض التي تشغلها المساكن لا تزيد عن الربـع من مساحة الاراضى الداخلة ضمن الاسوار اما بقية الارض فتمتد فيهـا حقول الحنطة والرز وبساتين النخيل والحدائق مما يمكن مقارنته من هذه الناحية ببابل القديمة التي يبدو ان قسما كبيرا منها ، وطبقا لمـا ذكره كل المؤرخين الذين جاؤا على وصفهـا ، كان يمتد بالطريقة ذاتها .

والابنية نفسها سيئة التخطيط والبناء ، ومعظمها لا يفي باغراض الساكنين فيها كما انها فى نظر الزائر الغريب تبدو معطلة عن كل جمال

ونظرا لانعدام الحجر الذى يندر الحصول عليه او رؤيته على مسافات بعيدة تمتد اميالا عديدة فقد شيدت اسوار المدينة ، وكذلك القسم الاكبر من ابنيتهـا باللبن ، اما المنازل القليلة التى بنيت بالآجر فهـي مستثناة وتكاد تنحصر فى بناية المعمل البريطاني ، ودائرة المتسلم ، وواحدا او اثنين من المساجد الكبيرة ، وحوالى

ستة منازل لبعض الاغنياء في مختلف انحاء المدينة .

ولما كانت الاخشاب نادرة واسعارها عالية تبعاً لذلك ، فان جذوع النخيل هي النوع الوحيد من الاخشاب المستعملة في البناء ، وهي بسبب طبيعة اليافها لا يمكن نحتها باشكال منتظمة طبقاً للتفنن في اعمال النجارة ولهذا تبدو الابنية ، بسبب انعدام الحجر والاخشاب فيها ، واهنة كئيبة المنظر . ولغرض تحديـــد كلمة « البصرة » ولفظها يقول الدكتور « فنسنت » ان « بصرة » و « بوزرا » و « بوسارا » هي الكلمات التي تطلق على اية مدينة تقوم في الصحراء ، كما تطلق على الارض الحجرية الصلدة . ولهذا نرى بطليموس يذكر مدينة باسم « بصرة » على مقربة من مسقط (٢٠) كما نجد في الكتب المقدسة مدينة تدعى بصرة تقع بجوار مدينة جوديا (٢١) كان قد استولى عليها المكابيون (٢٢) *

والكلمة العبرية التي تطلق على « بوزارا » الواردة في التوراة شاملة ومناسبة لان المدينة تقع فعلا في ارض حجرية وصلدة مثل مدينة « بصرة » التي قال بطليموس انها تقع قرب مسقط مستندا في ذلك على طبيعة الارض هناك .

والكلمة العربية « بصرة » وان كانت تتفق مع الكلمة العبرية « بوزرا » او « بوتزرا » الا انها تتميز عنها ببعض المظاهر المختلفة . لان كلمة بصرة تعني الاحجار البيضاء البراقة ، كما تعني نوعا من الارض يقتلع الحجر منها وفضلا عن ذلك فان مدينة البصرة او « باصورا » تقع في ارض كهذه

---

* GOLIUS AD ALFRAC : P · 120

TERRA CRASSA ET LAPIDOSA.

وليم فنسنت في « تجارة الاقدمين » مجلد اول ص ٤٣٦

والحجر الابيض البراق لا يمكن ان يكون معنى لاسم مدينة « بوزرا » في سوريا، او بصرة على الفرات (٢٣) لان الاولى تقع على ارض صخرية في حين لا يوجد في ارض الثانية اي نوع من الحجر اطلاقا ومع ان الكلمة تطلق على الارض التي يقتلع الحجر منها الا انني لم اسمع طيلة مكوثي هنا بان ارض البصرة تنتج مثل هذا الحجر، وان الفرق الوحيد في ذلك بين تربة المدينة الحالية وتربة المدينة القديمة ـ التي يفترض انها كانت قريبة من الزبير ـ هو ان احداهما رملية اكثر من الاخرى لكنهما خاليتان معا من الحجارة .

وهناك معنى آخر لكلمة بصرة هو الحد او الحافة او الطرف وهذا المعنى ينطبق على الكلمة العبرية « بوزرا » (٢٤) وهذا الاسم كان يطلق على مدينة ذكر انها كانت تقع في « حوران » وكانت تتاخم بلاد النبطيين (٢٥) لكن هذا الاسم لا يزال ملائما لتطبيقه على « البصرة » التي تقع عند طرف شبه الجزيرة العربية وعلى مقربة من ضفاف نهر الفرات الذي كان يمثل في كل العصور الحدود الشرقية لارض الجزيرة العربية .

* * *

تقلب عدد سكان البصرة في فترات متباينة من تأريخها بين نصف مليون وحوالي خمسين الف نسمة والعدد السابق يفترض فيه انه كان اعلى عدد بلغته المدينة في اوقات ازدهارها، بينا يمثل العدد الاخير اقل نسبة بقيت لها من سكانها بعد ان اجتاحتها وافنت الطاعون المميت سنة ١٧٧٣ (٣٦) والذي قيل عنه انه اختطف ثلثمائة الف من الضحايا فيها .

صحيح ان الرحالة (نيبور) الذي مر بهذه المدينة في سنة ١٧٦٤ قد افترض

ان عدد سكانها يندر ان يتجاوز الاربعين الف ، وانه باحتساب مائة منزل في كل محلة من محلاتها السبعين ، واعتبار معدل الساكنين في كل منزل سبعة افراد ـ وقد خيل اليه ان ذاك كان اعلى رقم ـ يكون مجموع السكان تسعة واربعين الف شخص

غير انه في فترة السنوات التسع التي مرت عليها الى ان وقع طاعون سنة ١٧٧٣ لابد وان تكون بعض التبدلات قد أثرت في وضع الريف المحيط بها فاجتذبت المدينة الفائض من سكانه وذلك لاسباب تهيء مطامح اكثر اشراقا للقاطنين فيها . فمثل هذه التبدلات المفاجئة مألوفة لدى المدن الكبرى في العالم الشرقي ولا سيما ان مدينة كالبصرة معرضة بشكل واضح دائما لان تخضع لاسياد متباينين ، وان تكون اشبه بنقطة حدود بين دولتين متحاربتين ، ويكون رخاؤها حتى في اوقات الاضطراب السياسي يستند الى اساس مزعزع كالتجارة الخارجية مثلا .

ولما كانت المدينة في الوقت الحاضر تتمتع بامن كاف من جميع الاخطار وتخضع للاتراك اسيادها القدامى الذين حافظوا على الامن فيها ، فان عدد سكانها في ازدياد ، وقد يبلغ مجموعهم حوالي مائة الف نسمة .

ونصف هذا العدد تقريبا هم من العرب ، وربعه من الفرس ، والربع الباقي خليط من الاتراك والارمن والهنود واليهود والنصارى الكاثوليك ، وقلة من الاكراد الوافدين من جبال كردستان ، ونسبة ضئيلة من العرب المسيحيين الذين يسمون بالصابئة او اتباع (يوحنا المعمدان) (٢٧) .

ومعظم العرب هم ممن ولدوا في المدينة ذاتها او في المناطق المجاورة لها مباشرة ، يضاف اليهم الوافدون من سكنة بغداد ، والقرنة ، والقرى الممتدة على ضفاف دجلة والفرات ، وكذلك بعض اعراب الصحراء القادمين من بلاد نجد ،

والمشتغلين بالتجارة من الكويت و (القرين) (٢٨) ذلك الميناء البحري العظيم الذي يقع في ذلك الجزء من الجزيرة العربية .

والحرف التي يحترفها العرب اكثرها تجارية وذلك بين الطبقة الرفيعة منهم اما ابناء الطبقة الدنيا فحرفتهم الزراعة والاعمال اليدوية .

ومذهب هؤلاء العرب بصنفيهم الاغنياء والفقراء هو المذهب السني وهم متسامحون تماما ازاء الناس الذين يعتنقون اديانا مخالفة لدينهم .

ولباس التجار الذين هم من اصل بصري وكـذلك القادمين من الموصل وبغداد يختلف قليلا عن لباس ذات الطبقة في سوريا سوى ان لباس التجار في البصرة يكون اكثر عتمة . فهم يرتدون الموسلين الهندي وسراويل الحرير في الصيف بينما يرتدون الملابس الواسعة ذات الالوان الزاهية من الانسجة الهندية والكشميرية في فصل الشتاء وتبدو البدلات التي تصنع من هذه الملابس غالية الثمن

اما اعراب نجد والكويت والقرين فانهم يرتدون الكوفية البدوية المألوفة التي يسمونها المحرمة ، والكفية في حين يطوق الفقراء منهم رؤوسهم بحبـال من الوبر (٢٩) بينما يرتدي الاغنياء انواعا غالية منها وذلك يشير الى اصلهم الصحراوي

وقـد يرتدي هؤلاء احيانا الشال الهندى بينما تتدلى اطراف كوفياتهم على اكتافهم فينتج عن ذلك مزيج غريب من لباس الصحراء والمدينة .

والعباءة البغدادية الخفيفة المطرزة بخطوط بيضاء وحمراء غامقة هي مما يرتديه الـكل في فصل الشتاء ، في حين يلبس الفقراء العباءات السميكة المصنوعة من شكل ونسق واحد .

اما الاغنياء فانهم يستعملون في فصل الشتاء عباءات سميكة سوداء اللون

ذات خط واسع ومثلث من الذهب ينحدر من فوق الكتف الايمن حتى الظهر

والفرس الذين يسكنون البصرة كلهم من الشيعة وهم بسبب ضعفهم يخفون الكراهية التي يوحي بها هذا المذهب ضد السنة من الاتراك والعرب ، حتى ان اعيادهم واحتفالاتهم تكون منعزلة عن هؤلاء لذات السبب .

ومعظم الاغنياء من الفرس هنا هم من التجار الذين لهم علائقهم التجارية التي تربطهم بابناء جلدتهم المقيمين في موانيء الهند الرئيسة ، وفي ششتر والاقسام العليا من ايران ولكن يندر وجود تجار منهم شمالي بغداد من امثال حلب ودمشق لان التجارة هناك في ايدي العرب .

ويحترف افراد الطبقة الواطئة من الفرس حرفا متعددة فمنهم الكتبة والخدم والصناع واصحاب الحوانيت وغير ذلك من الحرف التي لا يأبه العرب بها كثيرا ولذلك نجد الفرس يملأون كل مجـــالات العمل ويرتفعون باستمرار من مرتبة الطبقات الفقيرة الى الطبقات الغنية .

ولا يختلف لباس الفرس هنا الا قليلا عن الملبس الشائع في كل انحاء ايران باستثناء لباس الرأس حيث يعوض عن عمامة الحرير بطربوش من جلد الماعز الاسود اللون ، وعباءة عربية مطرزة وهذه تكفي لتغيير مظهر الملبس كثيرا بحيث لا يستطيع الغريب ان يميز بيسر هؤلاء الفرس عن العرب القاطنين في البصرة .

والحقيقة هي ان الفرس يقدمون على ارتداء الملابس العربية كلية ولذلك لا يمكن تمييزهم عن العرب الا بسحنات وجوههم المميزة لهم ، وبطريقتهم الخاصة التي يلفظون بها الكلمات العربية .

والاتراك قليلو العدد وكلهم يعملون تقريبا في دوائر الحكومة ويرتبطون

بصفة شخصية بالحاكم وهذا الرجل الذي يدعونه هنا باسم «المتسلم» او ملازم باشا الولاية، هو نفسه من ابناء البصرة لكنه متحدر من اصل تركي، وقد امضى سنوات عديدة في اسطنبول. وخاض عدة معارك ضد الروس فهو اكثر تركية من ان يكون عربيا (٣٠).

والضباط الذين كانوا يعملون مع المتسلم كلهم من ابناء العوائل التركية لكنهم ولدوا في مدن بعيدة عن العاصمة من امثال الموصل وبغداد والبصرة.

ويرتدي هؤلاء كلهم الطربوش التركي السائد استعماله فى اسطنبول كعلامة مميزة لملبسهم. في حين لا تختلف ملابسهم الاخرى فى شيء عن الجيد من ملابس التجار هنا.

ولما كان عدد هؤلاء الاتراك قليلا، وربما لا يتجاوز الخمسمائة شخص فانهم يحافظون بحزم على ممتلكات المدينة بمساعدة عدد من الجيورجيين والعرب والاكراد والفرس الذين تستخدمهم الحكومة جنودا لديها، وتدفع لهم مرتبات لقاء ذلك، وتزودهم بالاسلحة والملابس. غير ان هؤلاء الجنود ليسوا متدربين على عملهم هذا

ويقدر عدد الخيالة منهم بحوالي الف وخمسمائة نفر ولكن يندر ان يكون هذا العدد كاملا دائما. اما المشاة فانهم يتألفون من خمس سرايا او «بيرق» (٣١) حيث يبلغ تعداد كل سرية اسميا حوالي مائة بندقية.

وقد تم اختيار حوالى خمسين نفر من هؤلاء الجند حرسا خاصا للمتسلم وهم يصحبونه فى ذهابه الى المسجد ايام الجمع، ويحضرون معه المناسبات الاخرى.

وافراد هذا الحرس من المشاة وحملة البنادق، ويمكن تمييزهم بملابسهم التي تتألف من صداري احمر اللون مخطط بشريط اسود، وسراويل تركية زرقاء،

واحزمة ومحافظ سوداء اللون تحفظ فيها الخراطيش .

وهذا هو النوع الوحيد من اللباس الذي اذكر انني رأيته بين الجنود العرب والاتراك والفرس ، والذي اعتقد أن حرس المقيم البريطاني هنا يستعملونه ايضا يرى مثله لدى الجنود الذين يعملون في بواخر شركة الهند الشرقـية والبواخر التجارية الاخرى التي تصل الى هنا .

ويضع رئيس السلاح (تفنكجي باشي) (٣٢) على رأسه طربوشا واسعا من الفرو ، ومن النوع الذي يستعمله جنود بغداد ، لكن التابعين له ، باستثناء الحرس الخاص الذي مرت الاشارة اليه ، يرتدون ملابسهم حسب اهوائهم وبقدر ماتسمح به احوالهم المادية . وما عدا ذلك فان كل سرية تحمل علامة تميزها عن الاخرى

واتراك البصرة ادنى في مظاهرهم من اتراك اسيا الصغرى والمدن السورية الكبرى وهم يختلفون اشد الاختـلاف عن اتراك ادرنه واسطنبول سواء في قـوة العضلات ، ام في حسن الهيئة او جمال التكوين ذلك ان الجيل الجديد منهم قـد تأثر بعوامل عديدة من امثال الامتزاج بالدم العربي ، واستخدام الرقيق من الزنوج وطول الاقامة في اجواء حارة غير صحية ، فهم في صفاتهم يتمعون بشيء من الثقل والرزانة والتمسك بالعادات القديمه التي تميز اتراك الشمال . لكن لا يبدو عليهم انهم ورثوا حب التظاهر بالعظمة والتفـاخر ازاء الذين يخالفونهم في الدين ، وادبهم وتصرفهم الحكيم تجاه اصدقائهم ، وشجاعتهم التي لاتقحم ضد اعـدائهم . فلديهم من الحكم الاستبدادي ما يعادل سلطة الاتراك الذين يحكمون المدن العربية لكنهم يستعملون هذه السلطة باعتدال تام لا مثيل له .

ولقد كانت نتيجة ذلك كله ان اصبح حكمهم محبوبا من لدن كل الطبقات

ويندر ان تجد عربياواحدا ممن يسكنون المدينة لا يفضل الحكم (العصمانلي) (٣٣) على حكم اي شيخ عربي ، او يتقاعس عن حمل السلاح دفاعا عنه .

ولا يتجاوز عدد الارمن في البصرة حاليا خمسين عائلة وان كانوا قبلا اقل من هذا العدد بكثير ، وهم هنا كما في اي مكان آخر من الامبراطورية التركية ، نشطون صناعيون ومثقفون اذكياء ، نالوا الثقة في اعمالهم كوسطاء في التجارة او ممارسة العمل التجاري كتجار ولا يختلف ملبسهم عن ملبس الاغنياء هنا الا في تفضيلهم الملابس ذات الالوان الداكنة من سوداء وزرقاء والكشمير الاغبر اللون .

ويتحدث الارمن فيما بينهم بلغتهم الخاصة لكنهم يتكلمون العربية والتركية والفارسية بصفة عامة ، وبالاضافة الى هذه اللغات يتكلم البعض منهم الانكليزية والبرتغالية والهندية التي تحقق لهم فوائد كبيرة في ترجماتهم التجارية وللارمن في البصرة كنيسة صغيرة وقسان او ثلاثة قسس يعملون فيها . وطائفتهم محترمة وهادئة واسجل هنا ما ذكر لي عن اهتمامهم الشديد بامر طائفتهم فقد قيل ان ارملة شابة ارمنية توفي زوجها ولم يبق لها من يعيلها وبعد ان قاست كثيرا في سبيل الحفاظ على شرفها سقطت امام الاغراء فعاشت زمنا محظية لدى احـــد الاثرياء لكنها لم تمارس اعمال الدعارة مع غيره .

وحين شاع خبرها قرر الارمن فيما بينهم ان يردوا هذا العار عن امتهم فاخرجوا تلك الارملة من البصرة وبعثوا بها الى بغداد ، وزودوها بما تحتاج اليه من مال كيلا تعود الى ممارسة عملها السابق الذي ادعت ان الحاجة هي التي اضطرتها اليه

اما يهود البصرة فانهم اقل عددا مما كانوا عليه قبلا ولو ان عددهم في الوقت الحاضر يعتقد انه يتجاوز المائة عائلة .

ورؤساء اليهود كلهم من التجار وهم يضيفون الى حذق الارمن ومثابرتهم دناءة وخبثا وعدم اكتراث بالشخص الرئيس الذي يعملون معه وتلك من صفاتهم المميزة لهم فهم يتدخلون فى شؤون الاعمال التي تجري حتى بين الغرباء و يصبحون بذلك هم الرابحون في كل قضية بل اكثر من هذا انهم يحصلون على الربح لهم وحدهم عندما يعملون بصفة سماسرة ووكلاء بينما تحل الخسارة باصحاب العمل الذين كانوا يتعاملون معهم .

واليهود يؤلفون هنا ، كما هو شأنهم في كل انحاء العالم ، طائفة منفصلة يعيش افرادها فيما بينهم حسب ؛ ويتمسكون بخصائصهم التي تميز صفاتهم وسحنات وجوههم وتفرقهم عن بقية العالم من ادناه الى اقصاه .

ولا يختلف ملبسهم هنا الا قليلا عن ملبس الاغنياء لكنهم ، مثل الارمن يفضلون الملابس ذات الالوان الغامقة .

ولباس الرأس لديهم ذو صفة خاصة. فهم بدلا من الطربوش العالي والشال اللذين يرتديانهما الارمن، يرتدون طربوشا احمر مفرطحا ذا حواش في اطرافه ويشد حوله مشد وثيق من نسيج حريرى او قطنى مطرز بالورود ويرتدي الاغنياء منهم ، وما اكثرهم ، ملابس ثمينة جيدة بينما تتدنى البسة الفقراء منهم الى الخرق والاسمال .

ومختلف طبقاتهم تطلق لحاها وتحمل مفاتيح معلقة فى الجانب وتلك تميز طائفتهم عن الطوائف الاخرى .

واللغة الدارجة بين اليهود هى العربية ، ولو انهم فيما بينهم وفي مراسلاتهم مع اليهود الآخرين يستعملون العبرية لكن القليلين منهم يحذقون التركية والفارسية

او اي لسان اخر. ويستطيعون بها ممارسة التجارة التي تؤلف فارقا كبيرا بينهم وبين الارمن.

والكاثوليك اقل عددا من اليهود ومن الارمن، ولا يتجاوز عددهم في الوقت الحاضر العشرين عائلة، وبعضهم من اهل البصرة بينما يوجد اخرون بينهم قدموا اليها من بغداد ومن حلب وكلهم من التجار واصحاب الاعمال وهم لا يختلفون في لباسهم عن الجمهور الاباغطية الرأس الداكنة وما خلا ذلك فهم في لغتهم وتصرفهم لا يختلفون عن بقية السكان.

ولهؤلاء الكاثوليك كنيسة ملحقة بمستشفى الرهبان الكرمليين المقيمين هنا منذ زمن طويل (٣٤)

ولقد كان فيما سبق عدد من هؤلاء الرهبان ينتمون الى احدى جمعيات التبشير. وحتى في السنوات ألاخيرة كان يوجد منهم اثنان على الدوام. اما في الوقت الحاضر فلا يوجد سوى راهب واحد ايطالي الاصل في الستين من عمره امضى في البصرة زهاء ثلاثين سنة لم يزر اوربا خلالها سوى مرة واحدة. وهو من افضل افراد هذه الطائفة الذين التقيت بهم على ما اذكر.

ورغم طول اقامته في هذه البلاد فانه يندر ان يتكلم لغتها بطلاقة.

وقد غدت وحدته لا تطاق بعد ان فقد اخر رفيق له من طائفته فادمن على تناول الخمرة ليسلي نفسه بها.

وحين اصبح مسلكه مشينا ومفضوحا اثناء السكر اقبل عليه ابناء طائفته والزموه باغلظ الايمان بان يكف عن تناول هذا السم ولقد قبل بما اشترطوه عليه لكن هذا الشرط، حسب اعترافه، كلفه غاليا الا وهو التضحية بالسلوى

الوحيدة التي كان يتسلى بها وهو يدب الى باب قبره ! .

والصابئة طائفة من المسيحيين الذين يعتبرون انفسهم من اتباع « يوحنا المعمدان » وتتألف طائفتهم هنا من حوالى ثلاثين عائلة وهم يرتدون نفس ملابس العرب فى هذا المكان ولا توجد وسائل للكشف عن هويتهم [٣٥] فلغتهم هي نفس لغة المسلمين التي يتحدث بها سكان المدينة والمقر الرئيس للصابئة هو . القرنة في نقطة التقاء نهر دجلة بنهر الفرات وفي ذلك المكان يعيش مطرانهم وتقيم حوالى مائة عائلة منهم هناك .

ويوجد عدد قليل منهم في مدينة «سوق الشيوخ» [٣٦] المدينة العربية الكبيرة التي تقع في اعلى القرنة . كما ينتشرون ايضا فى سهل خوزستان وششتر ودزفول [٣٧] والاماكن الاخرى هناك غير ان حدودهم ضيقة ويعتقد بان مجموع طائفتهم اقل من الف عائلة وللصابئة كتابهم الذي يتلوه المصلون منهم عند عقد قران الزواج وعند دفن الموتى . ويقال ان هذا الكتاب مطول . وكان في اول الامر يتلى فيما بينهم وفى الاحتفالات الخاصة التى تقتصر عليهم وحدهم ، لكنهم ما لبثوا مؤخراً ان اخذوا يتلونه علانية ومن دون ان يعترضهم معترض

وليست للصابئة كنيسة قائمة . لان اماكن العبادة في نظرهم يجب ان تبنى مجددا في كل مناسبة جديدة . ولذلك فالمعتاد لديهم ان ينشئوا ، حين تحل مثل هذه المناسبات ، حوطة من القصب بعد عملية تطهير متعبة ، ثم تدشن وتعمد ارض هذه الحوطه لممارسة العبادة فيها بعيداً عن اعين الغرباء حتى اذا ما انتهت الطقوس هدمت الحوطة وازيلت اثارها من الارض .

ويبلغ اهتمامهم بطهارة طعامهم درجة شاذة وبشكل مماثل تماما للطائفة

البرهمية فى الهند . فهم لا يشربون الماء الا اذا كانوا قد استقوه بايديهم من النهر وحملوه في الاوعية التي يستعملونها وحدهم ، وبعدان يغسلوا تلك الاوعية ويطهروها بايديهم مرارا .

واذا ما اشترى احدهم عسلا او مادة اخرى من السوق فلا بد من صب ماء معمد عليها وتظل بعد ذلك مغطاة مدة من الوقت كيما تتطهــــر قبل ان يتم تناولها .

وحتى الثمار ، فهى وان كانت قد جنيت طازجة من فوق الاشجار فلا بد من تنظيفها بذات الطريقة كيما تتطهر من كل الافات والشرور .

ولكن الشيء الفريد هو ان الصابئة في الوقت الذي يركزون فيه اهتمامهم بالطهارة الدينية للطعام الى درجة غير معروفة لدى بقية الطوائف المسيحية الاخرى تراهم يمارسون عباداتهم واعيادهم من دون طهارة .

فعلى النقيض من اشارة المسيحيين العامة الى ان الطهارة مقبولة من الرب وميلهم الى تطهير الروح والجسد من الانفعالات والشهوات ' يعتبر الصائبة هذه الطهارة رجساً منكرا ، ونكرانا للعطايا التي هيأها الخالق لمخلوقاته بوفرة(١٠٣٧) .

فهم فى اخلاقهم ليسوا اكثر استقامة ولا اكثر فسادا من الاقـــوام الاخرى التي تجاورهم .

على ان من الفضائل التي تتحلى بها الصابئة هى الثقة المتبادلة بين بعضهـم البعض اذ يقال ان خيانة الثقة تبدو في نظرهم اكبر من جريمة القتـــل والزنا والفسوق مجتمعة .

وليس من شك ان هذه الصفة الخاصة بالاضافة الى نفرتهـم من الغـــرباء

وقصر الزواج فيما بينهم ، هو الذي حافظ على تالفهم مثل اليهود وبقية الطوائف الدينية اللا اجتماعية الاخرى التي لا تود الاختلاط مع الاخرين ، وتحـــافظ الانانية لديها على تجمعها وعدم اندماجها في الطوائف الاخرى .

ورؤساء بعض عوائل الصابئة في البصرة هم من الصناع وارباب الحرف ولا سيما صياغة الذهب ولفضة • وحتى في المدن الكبرى التي يكون عددهم فيها كبيرا تقتصر اعمالهم عادة على الصياغة وما شابهها دون المشاركة في اعمـال الزراعـة او حمل السلاح ، وهم في هذا يشبهون يهود اوربا تماما لانهـم لا يمارسون سوى اعمال السمسرة واقراض الاموال وصياغـــة الذهب والفضة والجوهرات ، وبيع السلع بصفة متنقلة وغـــيرها ، مما لا يألفه يهود آسيا الذين يقصرون اعمالهم على التجارة ويندر بينهم من يمارس الاعمال الميكانيكية او الصناعية [٣٨] .

والهنود في البصرة جلهم من طائفة البانيان [٣٩] وكلهم يعملون في التجارة على حسابهم كما يعملون وسطاء ووكلاء لغيرهم من التجار وهم يتمتعون ـ مثل الارمن ـ برضا المقيم البريطاني وحمايته لهم وذلك لان رؤساء الطائفتين مرتبطون على الدوام بخدمة شركة الهند الشرقية في معملها بالبصرة.

وللبعض منهم اتصالات مباشرة مع التجار من ابناء جلدتهم في بومباي . غير ان الكثيرين منهم يتاجرون بتوسط البانيان المقيمين في مسقط وقد لاتوجد سوى قلة منهم ممن يتاجرون مع البنغال راسا [٤٠] .

ولكي يتلاءموا والمكان الذي حلوا فيه ، وهو البصرة ، تراهم قـد طرحوا العمامة المميزة لهم جانبا ، واستعاضوا عنها بعمامة حمراء اللون نصفها عربي الشكل ونصفها الآخر هندي

اما بقية ملبسهم فهو خليط من الملبسين الفارسي والعربي لكنهم لايرتدون ايامن هذين النوعين بصفة خالصة ، ولا يبدو عليهم انهم قد حافظوا على جزء من ملابسهم الهندية ، بل ان اكثريتهم قد ازالو النقطة التى يرسمونها على جباههم والتي تميز بذلك طائفتهم .

وما خلا هذا التقارب في استعمال الملابس الاجنبية بينهم هنالك تساهل تام منهم في اظهار انوساوس الهندوس نفسها قد تم اقتحامها وان هذا الوساوس - كما هو بالنظر الى الطوائف الاخرى - قد تلونت بعادات الناس المحيطين باصحابها ولذلك راحت تتراخى امام التغيير البطيء والمحقق الذى يحققه الاختلاط الطويل المستمر مع اناس يدينون بعقائد اخرى .

والجنود الذين يؤلفون حرس المعمل الانكليزي معظمهم من الهندوس . وبالاضافة الى ذلك يعمل عدد منهم بصفة عمال في ذلك المعمل . ولما كان هؤلاء يعيشون سوية فانهم يحافظون بذلك على عاداتهم الهندية بشكل لايتغير . وقلة منهم قد جاؤا بزوجاتهم معهم غير ان العدد الاكبر من الهنود يعيشون هنا من دون زوجات وقد يبلغ عددهم مائتي شخص . ولما كانوا يتمتعون بحرية ممارسةعباداتهم من دون ان يخصص لهم مكان للتعبد فيه ، ولا يلقون اية معارضة فى ذلك من الحكومة او من الافراد ، فانهم يعيشون في يسر ورخاء .

والاكراد القلائل الموجودون في البصرة لايؤلف عددهم طائفة مميزةلهم، لكن معظمهم يزاولون العمل فى الدوائر المختلفة تحت اشراف الاتراك ، وفي حمل السلاح وهي المهمة التي ينهض بها هؤلاء الجبليون بكل اعجاب وذلك بسبب ما الفوه من عادات ومميزات .

ولا يوجد من المعامل الباقية هنا سوى المعمل الفرنسي موجود اسمياً منذ ان انتقل «البارون فيغورو»[٤١] ، الذي كان يقيم في البصرة ، الى بغداد . وما خلا رفع العلم الابيض في ايام الاحاد من قبل احد الرهبان الكرمليين الكاثوليك فلا يوجد عمل آخر ينهض به المقيم الفرنسي .

وقد تضاعف هياج بعض الذين كانوا يأملون تجدد التجارة الفرنسية قبل شهرين وصلت باخرتان من موريشسوس[٤٢] الى مسقط وهما تحملان العلم الفرنسي .

غير ان نهاية رحلتها كانت كارثة . كانتا تتألفان من باخرة وسفينة شراعية وكانت الاولى مسلحة لغرض الدفاع وكانت الثانية تبحر تحت حماية الاولى . ولما كانت الباخرة تحمل اموالا كثيرة على ظهرها فقد راحت تشترى السلع لنفسها وللسفينة الشراعية معا . وحين اجتازت رأس الحد (٤٣) وتأكدت من زوال كل خطر عليها سارعت تطلب السفينة الشراعية التي ابحرت بسرعة نحو مسقط حيث اصبحت المسافة بينهما بعيدة جداً .

في هذه اللحظة برزت بعض قوارب القراصنة من «القواسم» (٤٤) فاندفعت بسرعة نحو السفينة الشراعية واذ لم تجد اية مقاومة منها نهبت كل ما كانت تحمله من اموال بل ان القراصنة جردوا السفينة وملاحيها من كل ما يمكن حمله .

وحين شكا ربان السفينة من هذه المعاملة التي عومل بها رعايا دولة ليست في حرب مع القواسم قيل له ان في مستطاعه ان يهنىء نفسه لانهم عرفوا بانه من الفرنسيين . ولو خالجهم ادنى شك في كونه انكليزيا لقطعوا عنقه واعناق ملاحيه

من دون تمييز .

ويبدو ان السفينة كانت تحمل على ظهرها احد المنوط بهم مراقبة الشحنة ممن سبقت له الخدمة لدى امام مسقط وكان يتكلم العربية بطلاقة ولذلك اتصل هذا الرجل بالقراصنة وحصل منهم على امان لحياة افراد السفينة .

غير ان القواسم لم يكتفوا بنهب السفينة بل حاولوا اغراقها فراحوا يدفعون بها من كل الجوانب لكنهم اخفقوا في ذلك لان السفينة كانت محكمة الصنع ولانهم عجزوا عن تنفيذ مأربهم .

اما السفينة الفرنسية الاخرى فقد ظلت خامدة في ذات الوقت على مسافة من مكان الحادث ، غير قادرة على الظفر باية مساعدة لانقاذها . وقد وصلت السفينتان بعد ذلك الى مسقط ولكن ضاع الغرض من رحلتها كلية ، وانهارت الآمال في انتعاش التجارة الفرنسية في البصرة نهائياً .

* * *

يرجع تاريخ انشاء المعمل الانكليزي الى اول زيارة قامت بها احدى البواخر البريطانية الى البصرة وذلك سنة ١٦٤٠ م [٤٥] . وقد ظل المعمل قائماً بلا انقطاع منذ ذلك الوقت . على ان بناء المعمل ومقر رئيسه تغير تغيرا تاما . فقد كان موقعه في وقت من الاوقات في وسط المدينة ، ثم نقل في وقت آخر الى مكان ناء عنها على ضفة النهر وفي مكان يدعى «المعقل» [٤٦] .

اما الآن فانه يقع في الطرف الجنوبي من الجدول المركزي [٤٧] الذي يعد من النهر داخل المدينة ، وعلى مسافة مناسبة من مسكن المتسلم ومن دائرة الكمارك .

والمعمل الحالي ، وهو من افضل الابنية في البصرة ، تم تشييده على يد المقيم

السابق المستر مانستي [٤٨] على ارض بناية قديمة اشتريت لهذا الغرض . وقد تم تحسين المعمل وتوسيعه ليصبح ملائماً للمقيم ، وللتابعين له ، ومقراً لزوارق البواخر البريطانية التي تصل النهر .

والبناء الذي تشغله شركة الهند الشرقية هنا بناء محترم وهي تنفق على ادامته حوالي خمسة آلاف باون سترليني سنويا مقابل الفائدة التي تتوفر لها جراء ذلك وهي سلامة الاتصال وسرعته ايام الحرب ، وحماية التجار الذين يفدون الى هنا من الهند وتأمين وسائل الراحة لهم ذلك لان الشركة لاتربح بل تخسر من وراء السلع التي تبعث بها الى هنا للبيع . وهذه السلع قليلة العدد والكمية ، وهي في معظمها تتألف من مواد معدنية والبسة منسوجة تصدرها الشركة من انكلترا وتبعث بها الى اي مكان تحصل على اسواق لها فيه ولو ادى ذلك الى حصول خسارة محددة في ذلك .

وكان في البصرة قبلا مقيم من منتسبي الخدمة المدنية في الهند وكان له طبيب جراح من منتسبي الجيش اما الوكيل الحالي فكان جراحا يعمل مع المقيم السابق المستر مانستي وقد عهد اليه بمهمة الجراح والمقيم معا .

وما عدا ذلك يوجد عدد من الوسطاء والمترجمين ، وافراد الخدمة المسلحة ورئيس لحرس من الجنود التابعين لفوج «بومباي» البحري والذين يقيمون في ثكنات ملحقة بدار المقيم .

والنفوذ الذي يتمتع به المقيم كبير كما يتوقع ذلك من احترام المؤسسة التي يرأسها ، ومن وصول سفن الشركة المسلحة ، والتجارة الواسعة التي تنقل الى الهند بالسفن البريطانية ، وكذلك من وجود احد الكبار في ديوان باشا بغداد ممن يمكنه تقديم الطلبات المباشرة اليه لرد اي اذى . وكل هذه الفوائد يجرى تعزيزها بالمسلك

الشخصي الذي يسلكه المقيم الحالي الدكتور (كولكون COLQHOUN)
الذي امتدت حمايته حتى الى اليهود والمسيحيين ، والذي ابدى صلابة كافية في مقاومة كل اعتداء يقع على الامتيازات التي يتمتع بها ، وفي مراقبة الاحـــوال القائمة بين الحكومة والاهالي ، او بينها وبين الشركة التي يمثلها مراقبة دقيقة ·

والوضع القائم في البصرة ملائم جداً للنشاط التجاري . وحتى عند حدوث عقبات قد تضعها احدى الحكومات السيئة او عدم سلامة المرور من المدينة واليهـا تظل البصرة تتمتع بوفرة من السلع تكفي لان يغتني الكثيرون من ارباحها ولتزويد حاجة عدد كبير من الناس .

وليس مستطاعا وضع تأريخ عن هذه التجارة حتى من المقيمين القدامى هنا لان قلة من الناس ممن يهتمون بالحفاظ على ذكريات الماضي ، ولان الحـكام وتوابعهم في الدوائر يتغيرون بسرعة فلا توجد سـجلات لتأريخ قديـم يستطيع اخلافهم تدقيقها والاعتماد عليها .

والفترة التي نتحدث عنها تمتد الى حوالي خمسين سنة قبـل الان ، حين كانت تجارة البصرة مزدهرة تمام الازدهار وحين كانت المواد المستوردة من المنتجات الهندية ، واصدار الثروات تبلغ مقادير عالية لتبرهن بذلك على اصولها في القصص الذي كان يروى عن عصر الخليفة هرون الرشيد ·

ويظهر من الوثائق الصحيحة ان تجارة كلكتا ومدراس وسورات وبومباي مع البصرة في سنة ١٨٠٥ حققت حوالي نصف مليون باون سترليني من الارباح للهند البريطانية في السنة الواحدة ·

فهذه التجارة في نماء لا في تقلص ومقدار الاموال التي تدخل فيها اصبحت

اكثر من السفن المعدة لنقلها .

ففي السنة الماضية اقبلت خمس عشرة سفينة من البنغال وبومباي يبلغ معدل حمولة الواحدة منها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة طن . وهذه السفن تأتي بانسجة الحرير من البنغال والاقمشة الاخرى والفلفل والادوية والرز والسكر والاصباغ والمنسوجات القطنية الاخرى ، كما تجلب من « سورات » (٤٩) كل انواع المصنوعات والشالات والالبسة الصينية ، والورق الصيني ، والاصباغ والقهوة والصمغ ورؤوس السكر والمواد الاخرى بالاضافة الى ما تنتجه الهند من مواد اخرى كالرصاص والحديد والقصدير والفضة والفولاذ الى جانب الصادرات الاوربية .

ومقابل ذلك تنقل هذه السفن بصفة رئيسة الخيول العربية والمسكوكات الاوربية المختلفة ، واللؤلؤ من البحرين ، والتمور من الجزيرة العربية ، والنحاس من « طوقات » والعفص من كردستان ، وسبائك الذهب والمرجان من البحر الابيض المتوسط ، اذ تنقل بالقوافل من حلب ، والاصباغ من الجزيرة العربية وماء الورد من البصرة ، والعطور والفواكه المجففة ، والخيول احيانا ، من مينا بوشهر بالاضافة الى مواد اخرى من مسقط .

وتؤلف المسكوكات الذهبية والفضية اعظم مقدار في القيمة الحقيقية واجور نقلها تحقق ارباحا كبيرة للسفينة التي تنقلها ، ذلك لان اجرة النقل هذه تبلغ اربعا في المائة من قيمة تلك المسكوكات الى البنغال ، وثلاثا في المائة الى بومباي واثنين في المائة الى مسقط ، وواحدا في المائة الى بوشهر . وكثيرا ما يحدث ان تبلغ اجرة نقل هذه المسكوكات في احدى السفن خمسة الاف باون سترليني وهذا

يعنى ان مجموع قيمة تلك المسكوكات يبلغ مائة وخمسين الف باون سترليني

وتأتى الخيول فى المرتبة الثانية بعد المسكوكات الثمينة ويتم شراء هذه الخيول فى البصرة من جميع الانحاء المحيطة بها لكن المفضلة منها دوما هي الخيول النجدية .

وهناك نظام من الباب العالى ، يمنع تصدير الخيول من اى جزء من اجزاء الامبراطورية التركية جريا على المبدأ القديم الذى يحصر ما تحتاج اليه الامة داخل اراضيها .

غير ان نتائج تطبيق هذا النظام جعل الناس لا يهتمون بتربية الخيول الا للاستعمال الخاص او بالنسبة للطلب عليها من الاخرين لاستعمالها من قبلهم . ولهذا السبب كان يصعب قبل عشرين سنة خلت جمع خمسين جوادا عربيا فى مدة سنة لاى غرض عدا الاغراض العسكرية .

على ان تصدير هذه الخيول الى الهند يوفر ارباحا كبيرة ولذلك كان حاكم البصرة يتلقى الرشوات ليغض بصره عن ارسال هذه الخيول فى السفن الانكليزية واذ حدثت هذه السابقة لم تبق هناك اية مشقة في الظفر بدات الامتياز في كل سنة ذلك لان الاتراك يتمسكون بالعادات القديمة ويطبقون الاوامر السابقة اكثر من تطبيقهم امرا اخر حتى وان كان صادرا عن الباب العالى .

ومنذ ذلك الوقت حتى الان ازداد تصدير الخيول الى درجة انه تم فى هذه السنة وحدها تصدير حوالى الف وخمسمائة رأس منها الى بومباي ومدراس وكلكتا ، ويذهب حوالى نصف هذا العدد الى هذه المدن بينا يذهب ثلثه الى البنغال والباقى منه الى مدراس ويبلغ معدل ثمن الرأس الواحد من الخيول التي ترسل الى

بومباى حوالى ثلثمائة روبية (٥٠) وتكون اجرة الشحن مائة روبية، ونفقات الصيانة والعناية من يوم شرائها الى يوم بيعها مائة روبية ايضا. يضاف الى ذلك رسم كمركي مقداره خمسون قرشا لكل رأس تستوفيه دائرة الكمرك في البصرة ما عدا الرشوات التى تدفع كي يسمح للسفينة بالمغادرة، والنفقات الطارئة الاخرى فذلك كله يجعل معدل كلفة الرأس الواحد من الخيل التي تصل الى بومباى حوالى ستمائة روبية عدا رسوم التأمين ومخاطر الخسارة التي تحدث بسبب الموت والتي لا تدخل في حساب هذا المبلغ.

اما معدل السعر الذى يباع به الحصان الواحد في بومباى فهو حوالى ثمانمائة روبية يخصم منه نحو مائة روبية نفقة الانزال من السفينة والصيانة الى ان يتم البيع، وكذلك اجور الدلالة وما شاكلها فلا يبقى من الربح الصافى سوى مائة روبية عن كل رأس.

والخيول التي ترسل الى البنغال تكون عادة اجمل واعلى سعرا واعظم عدد من هذه الخيول يرسله المقيم البريطانى في البصرة وعلى حسابه الخاص ويبلغ معدل سعر الرأس الواحد منها حوالى الف روبية · واجرة الشحن الى كلكتا مائتا روبية للرأس الواحد والرسم الذي تستوفيه دائرة الكمرك من المسلمين خمسون (رومي) (٥١) ويدفع مثل هذا المقدار اجرة شحن الى بومباى. غير ان ما يستوفى من الرعايا البريطانيين هو عشرون رومي حسب.

وقد تبلغ نفقات الصيانة وما شاكلها من يوم الشراء الى يوم البيع مائتي روبية كما تدفع مائة روبية اخرى عن رسوم التأمين والخسارة بسبب الموت والوكالة وما الى ذلك بحيث يرتفع معدل كلفة الرأس الواحد من الخيل التي

ترسل الى البنغال الى الف وخمسمائة روبية ويكون معدل سعر البيع الفى روبية او مائتى باون سترليني وهذا اعلى من سعر الخيول التي ترسل الى بومباى .

* * *

يجرى فرض الرسوم على الاستيرادات من الهند طبقا لتعريفة كمركية تعقد بين الامة التي تعود اليها ملكية السلع وبين الباب العـــالى . واذا لم يطالب التاجر بامتيازات هذه التعريفة فانه اذ ذاك يعتبر من رعايا الامبراطورية التركية ويدفع الرسوم طبقا لذلك .

والتعريفة الانكليزية تحدد الرسم على جميع الاستيرادات من الهند بمقدار ثلاثة في المائة من قيمة البضاعة وهذه النسبة تنظم حسب السعر الذى تباع به البضاعة فعلا فى البصرة . ولذلك ان يكون الرسم الكمركي مستحق الدفع الا بعد ان يتم البيع فعلا .

ويتمتع الرعايا البريطانيون بامتياز تفريغ بضائعهم اما فى المصـــل ، او في المسكن المخصص لهم او في المخزن حيث يستأجرون مكانا لها هناك طيلة مدة اقامتهم من دون ان يذهبوا بها الى دائرة الكمرك التي يتحتم على السلع الاخـــرى نقلها اليها .

والثقة التي اودعها الاتراك في صدق الانكليز وامانتهم بلغت درجـــة ان الموظفين الاتراك راحوا يحسبون المبيعات دون حاجة الى التأكد منها (٥١ـأ).

وكان يسمح للزوارق الملحقة بالسفن الانكليزية ان تمر بالنهر الى داخـل المدينة وتعود فيه دون ان يجرى تفتيشها ولو ان هذه الامتيـازات غالبا ما يـساء استعمالها من قبل العرب الذين يتولون مراقبة الشحنات والذين يعملون فى السفن التي

تحمل الاعلام البريطانية .

ومع ان الرسم الذى يدفعه الانكليز هنا اقل مما يدفعه غيرهم من التجار الا ان الرسم الحقيقى الذي يدفعه الانكليز غالبا ما يكون اكثر مقدارا .

فصندوق الصبغ مثلا يكون الرسم المكمركى عنه حسب التسعير القديـم سبعة ونصف في المائة وهذا الرسم لا يتعدى تسعة قروش ونصف . غير انه لما كان صندوق الصبغ الجيد يباع بمعدل يتراوح بين ثمانمائة والف قرش فان الرسم الذى يدفعه الانكليز بنسبة ثلاثة فى المائة يبلغ فى مثل هذه الحـالة ثلاثين قرشـا وسبب هذا الفرق ناجم عن زيادة السعر الحقيقى للسلعة بين فترة واخــرى ، وزيادة المحتويات فى كل صندوق ولهذا السبب نجد بعض التجار المصدرين هنا في البصرة يطبقون ذات العملية عند تصديرهم المواد الى البنغال وذالك بان يعمدوا الى حـزم رزمتين من السلع في رزمة واحدة ، فتسجل في بيان الاصدار قطعة واحدة ،وبهذه الوسيلة يوفرون دفع الرسم عن رزمة واحدة منهما .

على ان موظفى الكمارك في كلكتا ليسوا عبيدا للرشوة مثل الموظفــين الاتراك ، ولذلك تراهم يفتحون هذه الرزم المزدوجة ويستوفون الرســم عن كل رزمة منهما وقد قيل ان موظفى الكمارك فى كلكتا قد فطنوا الى هذه الحيلة فاعتبروا تالك السلع مهربة واستوفوا من اصحابها حوالى عشرين الف باون سترليني .

والملاحظ ان جميع الامم قد وقعت على معاهدات كمركية مع الباب العالى وان هذه المعاهدات تنظم الرسوم الواجب دفعها .

ولكن حدث ذات مرة ان وصلت الى البصرة باخرتان امريكيتان فى جولة استطلاعية وحملتا معها مختلف المواد للبيع ، كما جلبتا نقودا لشراء مواد اذا لم تجد

سوقا لتصريف بضائعهما فيها .

ولما لم تكن الباخرتان انكليزيتين فقد احتار الموظفون الاتراك لاول وهلة في امرهما وهل يعتبرونهما اوربيتين ام يعاملونهما معاملة رعايا الامبراطورية التركية .

وقال بعضهم ان هاتين الباخرتين افرنجيتين اقبلتا من العالم الجديد « ينكي دنيا » وهو العالم الذي يعتقد بعض اهل البصرة بان سكانه كانوا قد هبطوا من القمر قبل اربعمائة سنة مضت !!

ولما كان سجل تقدير الرسوم المستعمل في دائرة كمرك البصرة قد وضع قبل ظهور « العالم الجديد » - حسبما اتفق الجميع على ذلك - فلا مجال لتطبيق احكامه على رعايا ذلك العالم . ولما لم يكن لهؤلاء الامريكان سفير ولا لديهم معاهدة مع الباب العالى ، وجب اعتبارهم اناساً لا صفة لهم ولا يمكن تصنيفهم وكان من حسن حظ اولئك الامريكان ان استعمل المقيم البريطاني نفوذه في اتمام صفقة البيع بان تم اعتبارهم من الفرنجة ، ومعاملتهم طبقا لذلك ، واستوفي منهم نفس ما يستوفى من الرعايا الانكليز من رسوم

* * *

كانت القوة البحرية لمدينة البصرة فى وقت من الاوقات قوية بدرجة وافية لبسط سيطرتها على الخليج العربي كله وكان الاسطول التركى في عهد سليمان باشا والى بغداد (٥٢) مؤلفا من حوالى عشرين باخرة جيدة التسلح وكانت تقوم باعمال الخدمة الحربية فى ذلك الخليج

غير ان هذه البواخر تقلصت في الوقت الحاضر الى ست او خمس بواخر قديمة لا توجد واحدة منها صالحة للملاحة في البحار .

والواقع انه لم تقع في الوقت الراهن اية محاولة لارسال هـذه البواخر الى البحر فى تجوب النهر بزعم تطهيره من المهربين . وبينا تقف واحدة منهاعند مدخل نهر البصرة لحراسة دائرة الكمرك ، يضع رئيس الربابنة (قبطان باشي) باخرته الـتي تحمل العلم في «المناوي» لترد على تحيات البواخر التى تمر بها ،ولتعلن باطلاق مدافعها عن زيارة المتسلم .

لقد كان الخليج فى عهد سليمان باشا ، او قبل نصف قرن ، يموج بالقراصنة اكثر من الآن . ففي ذلك الوقت هبت السفن التابعة لامام مسقط الى مساعدة باشا بغداد في تطهير هذا البحر من اولئك القراصنة ، وفتح مجال المرور فيه امام السفن التجارية . حتى لقد سمح لامام مسقط نفسه بارسال ثلاث سفن الى البصرة في كل سنة ، وكانت كل السلع التي تفرغها سفن الامام فى البصرة آنذاك معفاة مـن الرسـوم .

* * *

لايحفل الريف المحيط بالبصرة باى لون مـــن الوان الجمال . فعلى ضفاف «الفرات» (٥٣) في اعالي المدينة واسافلها ، تمتد بساتين النخيل والخضرة بما يبهـج العين ، لكن الريف فيما خلا ذلك منبسط لا يرى فيه سوى القليـــل من القرى والناس ويخيم عليه السكون الممل الموحش . والارض التي تحيط بمدينة البصـرة مباشرة ارض صحراوية ينبسط فيها الافق اشبه بالبحر ، وتغطيها المياه المتسـرية

من النهر (٥٤) مــن جهة واحدة ومن « خــور عبدالله » (٥٥) من الجهة الثانية لفترة تقرب من ستة اشهر في السنة . ولكن معظم مياه هذا النهر تذهب الى البحر ، ويكون احيانا عميقا بدرجة تكفي لمرور القوارب فيه من البصرة الى الزبير المدينة التي تقع على بعد عشرة او اثنى عشر ميلا في الاتجاه الجنوبي الغربي من البصرة .

وحين يختفي هذا النهر (٥٦) بفعل التبخر ويغور ما بقى منه في الارض تظل الارض الصحراوية زمنا طويلا لا يمكن المرور فيها لان التربة تكون طينية خالية من الرمل ، حتى اذا ما جفت تكونت فوقها طبقة من الملح ذات سمك كاف لتجهز المدينة والقرى المجاورة لها بهذه المادة . وهذا الملح سواء كان مختزنا في التـربة ام ياتي به (خور عبدالله) من البحر ، يحيل المنطقة كلها ، والى اميال عديدة تمتد طولا وعرضا ، الى ارض مقفرة غير صالحة للانتاج . ولذلك يعكف الاهـلون على احاطة اجزاء من هذه الاراضي على مقربة من اسوار المدينة ، بجدران صغيرة ثم يبدأون بارواثها من قنوات النهر الذي يزود المدينة بالماء ففي السنة الاولى من البدء بهذه العملية لا يتكون اي انتاج في التربة لكنها تتجدد وتنقى ثم تزرع في السنة الثانية وتأخذ خصوبتها في الزيادة باطراد ، ولما كانت مياه الصحراء لا تنحبس الا لبضع سنوات تتحول تلك الاجزاء التي زرعت فيها الى بساتين وحدائق جميلة تنتج كل ما يلائم المناخ من انتاج .

فلو كانت الحـكومة ذكية ، والاهلون متأثرين بها لانها تبدي اهتـــماماً بمصالحهم ، ولاعتبارات اخرى تتعلق بذريتهم ، لتحولت كل هـذه البقــاع الصحراوية ، والتي تمتد الى اقصى ما تراه العين شرقي اسوار المدينة ، الى حقول

عديدة وفرة ، ولعاش الناس الذين يسكنونها سعداء

اما في الوقت الحاضر فحين يدور المرء حول اسوار المدينة ولا سيما من الجهتين الغربية والجنوبية ، لا يشاهد سوى قفار لا حدود لها تمتد بلا انقطاع حتى حدود سوريا ، ولا يعثر نظره وهو يحدق في الافق الواسع الا على قمم منازل الزبير ، وبعض مواقع المراقبة التي ترى في جوار تلك المدينة ، وسلسلة جبال « سنام » (٥٧) الذي تغطيه قمة زرقاء اللون اشبه بالسحاب الكثيف فوق ناحيته الغربية .

وجو البصرة حار بصفة متزايدة خلال الصيف ، او ابتداء من شهر نيسان حتى تشرين الاول ومع ذلك فهو ليس شديد الحرارة مثل جو بغداد حين ترتفع درجة الحرارة فيها الى ١٢٠ درجة بينا يندر في البصرة ان تتجاوز ١١٠ درجة وقد يكون قربها من البحر من اسباب هذا الاختلاف بالاضافة الى زيادة الرطوبة في الهواء ، والى سقوط الندى المنعش في الوقت الذي تشتد فيه حرارة الجو .

والمعروف ان فصل الخريف هنا يعد من الفصول التي لا تلائم الصحة وان نسبة قليلة من الافراد هي التي تستطيع النجاة من اصابتها بالحمى التي تصيب الكثيرين منهم (٥٨) .

ويعتبر فصلا الشتاء والربيع من الفصول البهيجة في البصرة وذلك بسبب درجة من البرودة في الشتاء تستلزم ارتداء الملابس السميكة الدافئة والغرف المفروشة بالسجاد والمزودة حتى بالمدافىء .

اما في فصل الربيع فلا يسقط سوى القليل من المطر وهذا من شأنه ان يقطع التمتع بالجولات الحلوة في الهواء الطلق صباحا .

والمعتاد ان يفد المرضى من الهند الى البصرة لاستعادة صحتهم .

على ان قذارة المدينة المتناهية والتي تجاوزت في ذلك كل ما شهدته من المدن التركية والعربية ، تعد من العوائق التي تعوق المرء عن التجوال فيها حيث تكون هذه القذارة ايام الصيف بشكل لا يطاق وذلك بسبب حرارة الجو ، وضيق الممرات والقاء الاوساخ والقاذورات في الشوارع مما يؤثر في صحة المارة وراحتهم .

اما في ايام الشتاء فان التجول على ظهور الخيل خارج اسوار المدينة يظل منقطعا اياما عديدة بسبب هطول ولو ادنى كمية من المطر .

على ان من اسوأ النواقص التي يشعر بها المريض القادم من الهند للاستشفاء هنا في البصرة هي انعدام المجتمع ، ما خلا الافراد العاملين في المعمل الانكليزي .

فما عدا المقيم البريطاني الحالي لا يوجد في البصرة كلها فرد واحد ذكرا ام انثى ، من اهلها ام غريب عنها يستطيع ان يستمتع هو وجماعته بما يستمتع به المجتمع الاوربي عادة

ونتيجة لذلك فلا يوجد من يستطيع ان يحظى بزيارة حافلة تستمر اكثر من نصف ساعة في الصباح ، كما ان ايا من هؤلاء الزوار لا يعرفون الانكليزية او اية لغة اوربية اخرى .

فهذه المعايب لا يستطيع التغلب عليها حتى المضيف السخي الذي يملك مكتبة وعدداً من اصطبلات الخيل ونظرا لانعدام مثل هذه الاشياء فان الاستفادة من جو الشتاء اللطيف ، ووفرة المواد التي تحتاج اليها المائدة من الفاكهة والخضار

وادوات اللعب الممتازة ، لا يحس بها اطلاقا هنا وهي مما يحتاج اليه المريض الوافد من الهند .

* *

تشابه الصفة التي يتميز بها عرب البصرة وغيرهم ممن يعيشـون على ضفاف دجلة والفرات صفة عرب الصحراء مشابهة اكثر مما هو معروف منها في اي مكان آخر في المدن وفي الاراضي المزروعة . فالسكان يعاملون الغرباء باحترام ، ولا يوجد مكان واحد من الامكنة التي زرتها حتى الآن الا ويقابل الانكليزي فيها بالتجلة سواء من لدن الحكومة ام الاهالي . كما توجد درجة غير معتادة من التسامح ازاء اتباع الديانات المختلفة ومعاملتهم مثل معاملة المسلمين وذلك فرق كبير بالنسبة الى الامور الدينية بصفة عامة .

وعلى الرغم من التمييز الذي لا يمكن تجنبه بين السكان ، وانتشار الثراء في مدينة تجارية كهذه ، فهناك ضرب من البداوة وروح الاستقلال بين الطبقات الدنيا من سكان المدينة مما لا يوجد مثاله لا في مصر ولا في سوريا .

والكرم من الامور الملموسة والحماية تطلب وتعطى حتى في الحالات التي ترتكب فيها الجرائم . في حين ان قوانين الثأر بالدم ، وفرض اقصى العقوبات على الزنا والدعارة تطبق هناك بذات الشدة التي تطبق بها في قلب الجزيرة العربية .

فقد لاحظت خلال اقامتي في بيت المقيم البريطاني جملة من خدم المتسلم الذين التجأوا الى المقيم وطلبوا الحماية منه . ومع ان الحماية قد منحت لهم الا انهم ظلوا لاجئين في بيت المقيم الى ان نسيت جرائمهم او سومحوا بشأنها .

ومثل ذلك يفعل الاشخاص الذين قد يسيئون الى المقيم فانهم يهربون الى دار المتسلم طلباً لحمايته فينالونها ويمكثون هناك . فهذا النوع من « الحساب الجاري» قائم بين الاطراف الذين يمنحون مثل هذه الحماية ، حيث يتم في التالي اطلاق صراح هؤلاء فرداً مقابل فرد . مثلما يجري تبادل الاسرى على هذا النمط في اوربا ، او ان يجري نقل الموظفين وتغييرهم او وفاة احد المواطنين الذين يمنحون مثل هذه الحماية فهناك نوع من الاحسان المفهوم ضمناً والذي يشبه تسلم السجناء من السجن .

ان مثالا من الكرم حتى بين الاعداء ، وذلك ما وقع في احدى المناطق المجاورة للبصرة ، يظهر لنا كيف تستطيع العادة ان تتغلب على المشاعر الطبيعية فينا .

كان « ثويني » شيخ المنتفق (٥٩) الذي يبسط سيطرته تقريباً على كل الاراضي المزروعة من الحلة الى البحر في خصومة شديدة ولمدة طويلة مع الشيخ « غضبان » الذي يسيطر على منطقة السويب (٦٠) قبالة شط العرب . وكان المثل في البصرة يضرب بشدة عداوة الرجلين فيقال « مقت ثويني لغضبان » ، وكانت تلك العداوة بينهما اشبه بالعداوة الموروثة بين حكومات الاقاليم المتنازعة.

وشاءت الاقدار المعاكسة ان تجرد الشيخ ثويني من مشيخته ، وان يلجأ الى عتبة باب عدوه القديم في منطقة السويب .

وما ان سمع الشيخ غضبان (٦١) بانباء هرب الشيخ ثويني واقترابه من منطقته ، حتى نهض لتوه واحضر كل البارزين من اتباعه ، وسار لملاقاة الشيخ ثويني .

وامتطى الشيخ الهارب جواد حاميه الشيخ غضبان ، وتوجه الى داره معززاً مكرماً ، ثم نزع غضبان خاتمه من اصبعه ووضعه في اصبع ثويني وهو يقول

« ما دمت تحت سقف داري فانت في امان تام ، واني بهذا الخاتم قد جعلتك شيخاً على السويب واقتص من كل من لا يعترف بسلطتك » .

ولقد امضى ثويني زمناً دخيلا عند عدوه الذي بذل جهوداً مضنية حتى استطاع ان يخفف من غضب باشا بغداد(٦٢) الذى جرد ثويني من كل املاكه وبتأثير غضبان استعاد ثويني كامل سلطته في مشـــيخته ، ومع ذلك ظلت العداوة السابقة بين المنفق والسويب شديدة على مثل ما كانت عليه قبلا .

وتروى عن شيوخ الصحراء حوادث عديدة مماثلة لهذه الحادثـة لا يمكن لاحد ان يشك في صحة وقوعها ولو انه يصعب ايجاد التفسيرات الصحيحة لمثل هذه البواعث والاحاسيس المتبادلة بين الافراد .

لقد قص علي احدهم مثلا اخر يصور الطاعة العمياء للشيوخ والرؤساء، وهو يروى للتدليل على الخلق العربى .

فالشيخ ثوينى نفسه كان ، بعد ان استعاد نفوذه ، عدوا لدودا للوهابيين . وكانت قبيلته تطيعه اطاعـة عمياء جعلت منها رجلا واحدا . وكان اسمه لايحقق الوحدة بين اتباعه حسب بل يثير الفزع في قلوب اعدائه في اي مكان يذكر فيه .

وكان الشيخ عبدالله بن سعود [٦٣] زعيم الوهابيين آنذاك راغبا منتهى الرغبة في اغتيال الشيخ ثوينى ، ولذلك كان يدعو اتباعه المحيطين به ان يبرهنوا في ذلك على ولائهم لسيدهم .

وقد ذكر انه كان لعبدالله خمسون عبدا من السودان ، وكان هؤلاء عـلى اتم الاستعداد لاقتراف جرائم القتل ، وممن يفخرون بانهم يغسلون ايديهم بدماء البشر .

كانت الخطة قد اعدت لاغتيال الشيخ ثوبنى . ومع ان الموت المباشر كان عقاب مثل هذا العمل الا ان تنفيذه احدث بين اولئك العبيد احساسا بانه من الافعال المشرفة الممتازة .

ولذلك عهد الى احد اولئك العبيد الذين يوثق بهم اشد الثقة تنفيذ هـذه المهمة . وما ان وصل ذلك العبد الى خيمة الشيخ ثوبنى حتى استقبل بالحفاوة التي يستقبل بها الغريب عادة .

ومكث العبد فى خيمة الشيخ الى ان حل وقت صلاة المغرب فتسلل وراء الشيخ ثويني عندما كان يتوضأ واذ نهض مـــن مكانـه عاجله العبد برمـح فارداه قتيلا (٦٤)

ولما كان هذا الحادث قد وقع وسط مضرب القبيلة فقد مزقت جثة ذلك العبد اربا والقيت الى الكلاب لتنهشها .

وكانت نتيجة ذلك الحادث تفكك القبيلة وتشتتها .

وطبقا لما قاله احد افرادها ممن شهدوا ذلك الحادث « ان القلوب الـتي كـانت تحت زعامة ثويني صلدة كقلوب الاسود ، وكـانت قادرة على فتح العالم قد تهاوت الآن اشبه باوراق الخريف ، وقد فقد اولئك الذين كـانت الشمس تشرق عليهم ابطالا ، الظل الذي كان ينشره عليهم » .

كـان لزعيم الوهابيين ، وهو في عنفوان سلطته ، من النفوذ والسلطان كل ما كـان معروفا قبلا وفي الوقت الحاضر .

وكـانت الاوامر الـتي يصدرها سارية المفعول من نجد الى حدود اليمن ، ومن شواطىء البحر الاحمر حتى الخليج العربي .

لكنه ، بعد ان لحقت به الهزائم الكبيرة اليوم على ايدى الجيش المصري الذى يقوده ابراهيم باشا (٦٥) اخذ زعيم الوهابيين هذا يهرب من قلعة الى قلعة ومن موقع الى اخر .

اما اولئك الذين كانوا ايام عزه من اخلص اتباعه فقد اصبحوا الان وفي ساعة المحنة ، من الد اعدائه

ويظهر انه لم يكن شيء ا كثر خطأ من المحاولة التي اريد بها توحيد قبائـل الصحراء الكبرى تحت زعامة الوهابيين فقد كان الاعتقاد السائد ان عقيـــدة « عبد الوهاب » (٦٦) كانت الشعلة التي اوقدت نيران حرب صليبية جديدة (٦٧) وكانت الحماسة الدينية الرباط الذي وحد المصلحين الجدد

على أن ما يعرف عن اعراب الصحراء هو قلة الغيرة الدينية لديهم ، والتي تختلف عن عقيدة الدين وتطبيقه كيما يفترض المرء ان هذه الغيرة وحدها هى التي اثارت حماستهم .

فقد كان مجال السلب الذي يغريهم دائما ناتجا عن عادة تكونت لديهـم زمنا طويلا حتى اذا ما انفجرت هذه الحرب اصبحت تلك العادة اكثر اغراء من نقاء الارواح . وكان نهب الاماكن المقدسة والمعابد على ايدى هؤلاء المفسدين (٦٨) وكذلك الاغارة على السفن الهندية المثقلة بالسلع اكثر قيمة فى نظرهم من قتل الكفار بحد السيف .

لقد تدنت سلطة الوهابيين في الوقت الحاضر . فهذا عبد الله بن سعود الذي كان قبل سنة او سنتين يحكم كل الجزيرة العربية تقريبـا ، غدا الان منبـوذا من اصدقائه ، وراح اعداؤه يطاردونه ويتعقبونه

و كان الاعتقاد السائد هنا هو ان باشا بغداد و باشا مصر قد ينهيان هذه الحرب في أي وقت ممكن ، وتحطيم سلطة الوهابيين تحطيما تاما . وقد تأكد انهما ضيقا الخناق على ابن سعود ، وانهما يريدان تصفية حسابهما مع اسطنبول .

وتدنت سلطة الوهابيين الى درجة انهم اصبحوا غير قادرين على الحاق الاذى في البر ، وانه لا يحتاج الا الى استنفار القواسم القراصنة في البحر لاستئصال نفوذ الوهابيين . ولغرض تنفيذ هذه المهمة تتجه كل الانظار الان الى الانكليز

وحوادث القرصنة والاغارة شائعة بين عرب هذه المناطق . فحين كان احد الشيوخ العرب يحكم البصرة (٦٨ـ أ) مؤخرا ، لم يكن مأمونا لدى الناس ان يمر احد الجداول من المدينة الى النهر بعد الساعة الرابعة لان الزوارق كانت تهاجم وتنهب في وضح النهار ، ولا يستطيع احد ان يخرج من بيته بعد غروب الشمس كما لا يقدر احد في وقت هذه الحكومة ان يتجاوز اطراف المدينة اذا لم يكن مصحوبا بجماعة مسلحة لحمايته

على ان قوات الشرطة في عهد المتسلم الحالي حسنة التنظيم ، ومعنوياتها جيدة بصفة عامة ولذلك غدا مأمونا زيارة اي جزء من المدينة ليلا ام نهارا .

ويجد هذا الرجل نفسه سرورا في تجواله في الشوارع وفي انحداره باحد الزوارق في الجداول متنكرا لا يصحبه احد سوى عبد حبشي . ولقد اصدر المتسلم مؤخرا اوامر تقضي بحظر حمل السلاح من قبل الاعراب الذين يدخلون المدينة ولذلك غدا حكمه محترما ، وتنفيذ اوامره عاماً واذا ما صادف ان عثر وخادمه اثناء تجوالهما مساء على اشخاص يخالفون تلك الاوامر ، القى القبض عليهم

ونقلوا في اليوم التالي الى «جسر الملح» (٦٩) على مقربة من المعمل البريطاني، وبعد ان يعرضوا على الجمهور وتدق اذانهم بمسامير على الاعمدة لعدة ساعات ينقلون الى الساحة الواقعه امام قصر الباشا في سوق القمح ويجلدون مئات الجلدات ، ثم تحلق لحاهم وشواربهم ويطاف بهم ، وهم في هذا الوضع ، بالمدينة ومن ثم يطلق سراحهم بعد ان يحظر عليهم دخول اسوار المدينة مرة اخرى .

ومع ان هذه الشدة قد وطدت الامن في المدينة وفي المناطق المجاورة لها مباشرة ، فقد وقعت حوادث سلب كثيرة في الطريق بين البصرة والقرنة وبينها وبين (الدبة) (٧٠) في الجنوب

فعلى ضفاف دجلة والفرات ، وعلى ضفاف شط (الحي) (٧١) والكارون (٧٢) لا تزال الحالة هناك اكثر سوءا ، لان جميع العشائر الضاربة على امتداد هذه الانهار تشترك في هدف واحد هو مهاجمة الزوارق المحملة بالسلع التي تمر بتلك الانهار فحين يكون الجو حسنا وتستطيع الزوارق ان تأخذ سبيلها وسط النهر تكون في امان عادة ولكن حين تهب رياح الجنوب الشديدة وتضطرها احيانا الى ان تلتجيء على مقربة من اليابسة تصبح الاغارة عليها ونهبها امرا محتوما .

وقد وقع الحادث التالي في الشهر الحالي

كان احد القوارب الكبيرة منحدرا من بغداد وهو يحمل اموال قافلة قادمة من دمشق تبلغ قيمتها عشرة «الكالك» روبية او حوالي مائة الف باون سترليني (٧٤) وكان يراد لهذه الاموال ان تشحن باحدى السفن الى البنغال وبعد ان سار القارب جوبه برياح جنوبية شديدة فتوقف عند احد الشواطيء ونزل منه ربانه ليتعرف على الارض التي وصلها وهناك التقى بثلاثة او اربعة من الاعراب

عرف منهم ان قسما من قبيلة بنى لام ، التي تشتهر باعمال السلب، يخيمون بعيـدا عن المكان .

ومع ان اولئك الاعراب قدا كـدوا لربان القارب ان القبيلة بعيدة عن الموقع الا ان الواقع هو ان شيخا كان قد ضرب خيامه وراء الاشجار ولذلك طلب اولئك الاعراب الى الربان ان يذهب معهم ويقدم الى الشيخ ما يستحقه من الاحترام .

وقبل الربان بذلك لكنه ما ان سار قليلا حتى امسك به اربعة من الاعراب فاوثقوه بالحبال من يديه وساقيه وحين رأى بقية ملاحي القارب ما حل بصاحبهم، ولاحظوا قلة عدد اولئك الاعراب ، قفزوا من القارب وبايديهم اسلحتهم لانقاذ ربانهم ، لكنهم ما ان تحركوا حتى فوجئوا بحوالي مائتين او ثلثمائة رجل يخرجون عليهم من بين الاشجار فيستولون على القارب ويقتلون من قاومهم من الملاحين .

وما لبثت الاموال ، وكانت معظمها من المسكوكات الذهبيـة والفضية ان افرغت من القارب وتم نقلها الى الصحراء وحطم القارب ذاته .

اما الربان الذى التقيت انا نفسى به وقص علي هـذه الحادثة فقـد ترك موثقا على الارض وهو مصاب بثلاثة جروح من ضربات سيف او رمح لانه قاوم الاعراب الاربعة الذين اعتقلوه اول مرة . وقد استطاع بعد صعوبة بالغة ان يتحرر من وثاقه ، وان يذهب الى احدى القرى المجاورة ثم يبلغ البصرة في رحلة طويلة وجروحه لما تلتئم بعد .

ولقد بعث المتسلم بولده الشاب مع قوة من رجال الامن الى محل الحادث حالما سمع به ، لكن قطاع الطرق كانوا انذاك في مكان بعيد مأمون لان الصحراء

كانت منفتحة امامهم من جميع الجهات .

* * *

والملاحظ ان عرب البصرة والمناطق المجاورة لها اكثر امتلاء في اجسامهم من عرب اليمن وعمان والحجاز ، لكنهم ليسوا ضخاما مثل عرب مصر او سوريا ولقد وجدتهم ، رجالا ونساء ، اكثر قبحا من اولئك . فما عدا الاوشمة الباهتة المنقوشة عليها فان وجوه النساء معتمة وسخة وعيونهن عشاوات ، واجسامهن هزيلة قبل ان يبلغن الثلاثين من اعمارهن .

اما الرجال فتظهر عليهم علائم البؤس والسقم التي تظهرهم وكأنهم اكبر عمرا من اعمارهم الحقيقية والطفح الجلدي الذي يبدأ بحلب ويمتد الى اورفه وماردين فالموصل وبغداد غير معروف في البصرة ، لكن هناك عددا من المحرومين يعيشون على الصدقات في اكواخ منعزلة عن بقية السكان على ضفاف الجدول الذي يمتد الى النهر .

على ان الانطباع العام الذي يتكون لدى الاوربي الذي يزور البصرة هو انها مدينة تافهة البناء نصف مخربة ، يخيم عليها مناخ لا يطاق طيلة نصف السنة وتغمرها الاوساخ التي تكفي لنشر مختلف الامراض ، ويسكنها اناس جهلة بؤساء فيمحو المنظر .

ومقابل كل هذه المعايب فلا تضم البصرة فائدة سوى ملائمتها للتجارة واحتمال جوها اثناء فصل الشتاء ، ووفرة الاعمال فيها .

تصويبات عن الجزئين

الاول والثاني

ما ان صدر الجزء الاول من هذا الكتاب حتى قوبل بقبول حسن من لدن الباحثين والكتاب الافاضل الذين تستهويهم امثال هذه الرحلات وكان ثناء الكثيرين منهم عاطرا على دقة الترجمة وعلى الشروح والتعليقات التى اضفتها الى متن الترجمة .

ولقد تفضل البعض منهم فكتب الي مشكورا يصحح بعض الاسماء التي وردت في تلك الشروح وكان في مقدمتهم الاستاذ المحقق محمد صديق الجليلي الذى ذكر لي في رسالته الكريمة التصويبات التالية :

١ ـ ان نهر داماكوبى (ص ٥٤ موجود الان فعلا ويقصد به جدول ماء قرية (ديرقبو) التى تقع بين محطة تل كوجك والقامشلي .

٣ ـ ان (حمدان) التى ذكرت في ص ٥٧ بانهـا من قرى اليزيديـة هي قرية (حميدات) التى تقع في اخر مرحلة للقادمين الى الموصل من حلب وسكانها عرب .

٣ ـ ان حامد باشا والي الموصل (ص٥٨) هو الوزير احمد باشــا بن سليمان باشا الجليلي الذي كان واليا على الموصـل من اب ١٨١٢ الى حزيران ١٨٢٢ .

٤ ـ ان مسبيلا التي ذكرت في ص ١١٥ بانها الموصل القديمـة لا علاقـة لها باسم الموصل الحالي لان زينفون حين وصـل مع العشرة الاف المتراجعين الى خرائب نينوى سأل احد الفلاحين عن تلك الخرائب والانقاض فاجابه بانها (مشبله) وهي تعني المزبلة في العربية تماما .

٥ ـ وبالاضافة الى تصويبات السيد الجليلي ، فقدتأ كدت انا نفسي من وجود بعض الاسماء المغلوطة منها : ان اسعد باشا الذي ورد ذكره في الصفحـة ٢١٦ من الجـزء الاول هو سعيد باشا بن سليمان باشا الكبير تولى ولاية بغداد في شباط سنة ١٨١٣ وقد اعـــدمه داود باشا الكرجي في اواخر شباط ١٨١٧م

٦ ـ ان ساردیس عاصمة ليديا ص ١٨٨ تقع شرقي مدينة ازمير

كذلك ورد في الصفحة ١٢٠ من الجزء الاول ان بحر اليوكسين هو بحر قزوين ولكن الصواب انه هو البحر الاسود.

وورد في ص ١٨٩ ايضا ان اعمدة هرقل يقصد بها حـدود المملكة البيزنطية والصحيح ان المراد باعمدة هرقل هوجبل طارق .

وذكرت (بكتريا) في ص٢١٧ بانها من الاقاليم الشرقية لايران والصواب ان بكتيريا يقصد بها بلاد الافغان الحالية .

وورد في الصفحة ١٨١ من هذاالجزء ، أي الجزء الثاني ، اسم داود افندي ويقصد به داودباشا الكرجي اخر الماليك في العراق .

وجـاء في الصفحة ٢٢٠ كلمة (النبى) ويقصد به الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم .

وورد في الصفحة ١٣٧ اسم الشاه زادي ويقصد به الشاه زادة محمد علي ميرزا ملك فارس وكان مقره في كرمنشاه وجاء في الصفحة ١٣٦ اسم « جنساري اغا » والمقصود به اغا الانكشارية وهو هنا يعرف باسم « سيد عليوى » وكان من الد اعداء سعيد باشا وهو الذى قام باغتيـــاله عندما استولى داود باشـــا على بغداد .

وذكر اسم « اسد باشـا » في الصفحة ١٦٦ من هـذا الجزء ايضا ويقصد به سعيد باشا والى بغداد الذى لقي مصرعه على يد داود باشـا في شتاء ١٨١٦ م وجاء في حاشية الصفحة ٢٣٧ من هذا الجزء اسم (الاشوريين) والمعتقـــد ان المقصود بذلك الكردوشيون او الاكراد ولم يثبت تاريخيا ان الاكراد كانوا من الاشوريين .

وذكر بكنغهام في الصفحة (١٦٤) اسم الكوفة بما يفهم منه ان هـــذه المدينة تقع على الجانب الايمن من نهر دجلة وذلك خطأ فاضح لان الكوفـة تقع على الجانب الايمن من جدول من الفرات يعرف باسم (نهر الكوفة) .

غير ان كلمة (الكوفة) كانت في العهدين الاموي والعباسي تطلق على كل المنطقة الممتدة من النجف حتى بغداد .

وورد في الصفحة ١٦٦ ذكر اسم (اسد) باشا والصحيح هو سعيد باشا بن سليمان باشا وقد اغتاله داود باشا الكرجي بعد ان استولى على بغداد .

وكان سعيد باشا هذا قد تولى منصب ولاية بغداد في ١٥ شـوال سنة ١٢٢٨ هـ ـ ١٨١٢ م وقتل في العاشر من ربيع الاول سنه ١٢٣٢ هـ ـ ١٨١٧ م .

اما ابوه سليمان باشا الكبير فقد تولى ولاية بغـداد في ذى الحجـة سنة

١٢٢٢ هـ ١٨٠٨ م وقتل في اواخر سنه ١٢٢٥ هـ ـ ١٨١٠ م

ورد ذكر (سربول) تحت رقم (١٤) من الصفحة (٢٠٦) وهذه القرية تقع على بعد سبعة عشر ميلا من «قره‌تو» وكان لها ذكر معروف في التاريخ القديم ففي مكان هذه القرية كانت تقوم مدينة (خلمان) او (خامانو) الشهيرة التي وقعت فيها معارك واسعة بين الاشوريين وقدماء الفرس .

وذكرت مدينة حلوان تحت رقم (١١) في الصفحة (٢٢١) وهذه مدينة تقع على مقربة من قصر شيرين الحالية فتحها المسلمون سنة ١٩ للهجرة بقيادة البطل جرير بن عبدالله وهي من ارض العراق .

ورد في الصفحة ٢٤٠ ذكر قلعة سماها بكنغهام باسم «دوز غورا» والذي نعتقده ان هذه القلعة هي حصن «مادروستان» وتقع على طريق بغداد ـ خراسان وتبعد بمقدار مرحلتين عن مدينة حلوان فيها ايوان عظيم بناه « بهرام جور » ولازالت آثاره شاخصة .

ورد في السطر الاول من الصفحة (٢٧٨) اسم كولكون او كولكهون طبيب المقيمية البريطانية في البصرة . وكان كولكهون هذا قد تولى منصب المقيم البريطاني في بغداد خلفا للمقيم السابق ماستي وبقي في هذا المنصب حتى ايلول سنة ١٨١٨ م حيث خلفه فيه الكبتن تيلر . CAP . TAYLER

شروح وتعليقات المترجم

على الفصل التاسع عشر

(١) كان الرحالة الاجانب اول الذين اطلقوا على الخليج العربي اسم الخليج الفارسي اما عن جهل او عن امعان وتعمد بقصد الكيد للعرب لان الفرس وقفوا الى جانب كل الغزاة الذين حاولوا الاستيلاء على الخليج ومنهم البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والانكليز واخيرا الامريكان . وقد عرف الخليج العربي باسمه العربي هذا منذ القدم ، وحين انتشر الاسلام في العراق وانشئت مدينة البصرة سمي باسم (خليج البصرة) وقد ظل هذا الاسم مثبتا في الكتب والخوارط الى ما قبل سنوات قلائل وقد استوطن العرب منذ العصور الموغلة في القدم جزر هذا الخليج وسواحله الغربية والشرقية على حد سواء (انظر طبعه كتاب : (الصراع على الخليج العربي) تأليف سليم طه التكريتي ١٩٦٦)

(٢) صحيفة صوت الشرق ORIENT HERALD هي الصحيفة

التي اصدرها بكنغهام في بريطانيا بعد ان تخلى عن عمله مع شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند (راجع مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب)

(٣) اخذ اسم « البصرة » من صفة الارض التي قامت عليها. ذلك ان كلمة (بصرة) و(بصرى) في العربية تعني الجبس او الحجـارة البراقة ولم تكن في موقع البصرة عند الفتح الاسلامي اية قرية او منطقة مأهولة وانما كانت تقع على مقربة منها نقطة تدعى (الخريبة) نزلها المسلمون لاول مرة واقاموا معسكرهم فيها ثم هجروها وبنوا البصرة سنة ١٦ هـ على يد القائد المظفر عتبة بن غـزوان وبامر من الخليفه عمر بن الخطاب (رض) لاحظ بحث (النصرة في اخبـار البصرة) تحقيق الدكتور يوسف عز الدين في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد السابع عشر

(٤) واحدة من هذه المدن التي شيدها سلوقس باسم افاميـا على مقربـة من مدينة حمص الحالية في سوريا.

(٥) المعمل البريطاني: معمل لتصليح السفن وحزم البضائـع انشأته

شركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة سنة ١٦٣٩ م ففي هذه السنة حصلت الشركة على امتيازات لها من الدولة العثمانيـة كان من بينها انشاء هذا المعمل. وكان المعمل الانكيزي في اول الامر يقع على الضفة اليسرى من نهر العشار للصاعد فيه من شط العرب، وعلى مقربة من سراى الحكومة القديم في المنطقه التى تعرف الان باسم

(السيف) انظر خريطة مدينة البصرة ص)

(٦) باب المجموعة والمجموعي ايضا يقع في الناحية الجنوبيـــة من البصرة وعلى جدول يتفرع من نهر « الخورة » .

(٧) باب السراجى في محلة السراجى التي يمر بها نهر السراجي: وقيــــل ان اسم النهر والمحلة سمي باسم رجل كان يصنع السروج في تلك المنطقة لال راشد حكام البصرة (انظر الحيدرى : احوال البصرة)

(٨) باب الرباط نسبة الى محلة الرباط التى سميت باسم نهر الرباط الواقع شمالي البصرة قبل المعقل وهناك محلتان تعرفان بهذا الاسم هما الرباط الكبير والرباط الصغير .

(٩) ذكر بكنغهام ان هذه الباب سميت باسم (بكنا) وهــــو تحريف لعبارة (بكر اغا) اسم متسلم البصرة في ذلك الوقت .

(١٠) يقصد بذلك العمد التى تحرك بها الزوارق والتى يسميها العامة عندنا (المرادى) جمع (مردي) والكلمه اعجمية .

(X) يقصد بكنغهام بالحصن الدائرى قلعة القمنداان او القمنــدر (اي امر البحرية كوماندر) وهى ثكنــه بحرية عسكرية كانت تقــع على الضفة اليسرى من نهر العشار اما المسجد ذي المنارة الصغيرة الذى يقع على الضفة اليمنى العشار فهو جامع المقام الحالي .

(١١) كوفوس ..(HOI).. الذى نعتقده ان هذه الكلمة محرفة عن كلمة

تيلوس ،وهو الاسم القديم الذى اطلقه اليونانيون على جزر البحرين الحالية اذ ان الاسم السومري لهذه الجزر هو « دلمون » وقد تحور الى تلمون وتيلوس فيما بعد .

(١٢) هى محلة المقام الحالية في العشار التي يقع فيها المسجد المعروف باسم جامع المقام ، ودائرة الكمارك وسوق الهنود وكلها تقع على الضفة اليمنى من نهر العشار وتطلق كلمة مقام عادة على الامكنة المقدسة كالاربطة والمراقد وغيرها

(١٣) يقصد المؤلف بالقناة الرئيسة هنا نهر العشار .

(١٤) الذي نعتقده هو ان كلمة «المناوي» كانت تحريفاً لكلمة « ميناء» وكانت هذه المنطقة تقع في الاصل على نهر «المناوي» غربي نهر العشار . وقد اتخذت مكاناً لرسو السفن وتفريغ حمولتها فيهاوكانت في اول الامر في شكل قرية مسورة تعتبر الميناء الرئيسي للبصرة وكانت الدول المتنافسة على احتلال الخليج العربي والبصرة تنزل حمولة سفنها في المناوى ومنهاهولندة التى انزلت سلعها في هذه المنطقة سنة ١٦٣٩ م .

(١٥) علي باشا هو علي بن افراسياب السلجوقي تولى امارة البصرة بعدوفاة ابيه سنة ١٦٠٣ وكان حازماً قديراً عادلا احبه الاهالي كثيراً ولما توفي سنة ١٦١٧ م تولى ولاية البصرة مكانه ابنه حسين باشا وسرعان ماخالف سنن ابيه وجده وراح يستبدفي حكمه وينزل الظلم بالاهاين فاستغاث الناس بالسلطان الذي جرد عليه حملة بقيادة مرتضى باشا

فهرب حسين الى ايران واصبح مرتضى باشا هو الوالي .

(١٦) تالمينا TALMENA يخيل الينا ان هذه الكلمة محرفة من كلمة «تلمون» وهو الاسم الذى كان يطلق قديما على البحرين .

(١٧) اناميس ANAMIS الظاهر ان هذه الكلمة محرفة في الاصل عن كلمة ميناء العربية .

(١٨) اخذت هذه من كلمة سكالا SCALA الايطالية وهي في الظاهر محرفة عن الكلمة العربية «السقالة» اي الاداة التي ترفع بها الاثقال ولا تزال كلمة « اسكلة » مستعملة بهذا المعنى في لغتنا العامية في العراق وتطلق على الاداة التي تستعمل في البناء او المكان الذي تجمع فيه الاخشاب ايضاً .

(١٩) تطلق كلمة المتسلم على حاكم المدينة او المنطقة والذي كان يعين بارادة ملكية من العاصمة اسطنبول ايام الحكم العثماني .

(٢٠) ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، البصرة بصرتان العظمى بالعراق والاخرى في الغرب ولم يذكر وجود مدينة باسم البصرة قرب مسقط وان كانت كلمة البصرة يطلقها العرب على الارض الغليظة .

(٢١) جوديا JUDEA هي مدينة اليهودية الواقعة في منطقة جبال اليهودية في فلسطين كما نعتقد ان المقصود من مدينة « بصرة »

القريبة من اليهودية هو مدينة بصري ، التي تقع في سهل حوران وهذا هو الاصوب كما يخيل الينا وتعرف بصرى لدى الافرنج باسم بوسترات BOSTRAT ويسميها العامة « اسكى الشام » اي الشام القديمة .

(٢٢) المكابيون MACCABEES من الاسر الحاكمة اليهودية في فلسطين رئيسها يهوذا الذي تولى الحكم في الفترة (١٦٦ ـ ١٦١ ق ٠ م ٠) وقد استمر حكم المكابيين الى ظهور السيد المسيح (ع) وحدثت بينهم وبين عرب البادية معارك عديدة

(٢٣)،(٢٤) أخطأ المولف اذ ذكر ان مدينة البصرة تقع على نهر الفرات بينا هي تقع على شط العرب المتكون من تلاقي دجلة بالفرات في مدينة القرنة . اما مدينة «بوزرا» التي قال عنها انها تقع في سوريا فيقصد بها «بصرى» التي يقول ياقوت الحموي عنها انها في موضعين احداهما في الشام من اعمال دمشق وهى قصبة اقليم حوران وكان المسلمون قد نزلوا بها في اول غزوة لهم لبلاد الشام وقد صالحهم اهلها دون قتال .

(٢٥) النبطيون NABATEANS ويسمون بالنبط والانباط ايضا . قوم من العرب قطنوا جنوبي فلسطين واشتهروا بالتجارة ونحت بيوتهم في الجبال واشهرها (بطرا) او البتراء ومن مدنهم الاخرى صلخد وصلع وبصرى والحجر كان بينهم اطباء وشعراء من سلالتهم قبيلة الحويطات الحالية في شمالي الحجاز اوالاردن .

(٢٦) يقصد به وباء (الكوليرا) او الهيضة وهذه ليست هى المرة الاولى التي تصاب فيها البصرة بالهيضة فقد ظهر المرض فيها سنة ١١٠٢ هـ ١٥٩٣ م فكان يموت كل يوم خمسمائة نفس واكثر الموتى كانت تطرح في الازقة والاسواق ولا يوجد احد يدفنها .. (ابن غملاس البصرة ومتسلموها ص ٦٣)

(٢٧) يوحنا المعدان JOHN THE PABTIST بن زكريا واليصابات احد انصباء المسيح (ع) عاش متقشفا في برية اليهودية بفلسطين ظهر في الثلاثين من عمره على نهر الاردن فتعمد بالماء للتوبة والدعاء للرجوع عن الخطيئة وبشر بظهور المسيح ولذلك سمى بالسابق حاكمه هيرودوس ملك اليهود وقطع رأسه .

(٢٨) سماها المؤلف باسم غرين GRAINE والاصل هو (القرين) وقد اطلقه الاوربيون على جزيرة وموقع جنوبى الكويت الحالية اما كلمة (الكويت) فهى تصغير لاسم (كوت) اى الميناء وكان يعرف باسم(كوت محمد ابن عريعر) احد مشايخ العرب وقد استوطنه آل الصباح بعدان اختلفوا مع عمومتهم ال خليفة و نزحوا عن البحرين .

(٢٩) يقصد به العقال العربى وهو بسيط الشكل بين عرب الصحراء حتى الان اذ لا يزيد عن عقال البعير الذى اخذ عنه ، في حين يتفنن سكان المدن في العراق وسوريا والاردن والجزيرة العربية وامارات

الخليج العربى في صنع انواع مختلفة من هذا المقال .

(٣٠) كان متسلم البصرة في الوقت الذى قدم فيه بكنغهام اليهـا اى سنة ١٨١٦ م يدعى (بكر أغا) وهـو بصرى المولد تركى الاصل وقد دام حكمه في البصرة سـبع سنوات من سنة ١٨١٣ الى ١٨٢٠ الموافقة للفترة من ١٢٢٩ الى ١٢٣٦ هـ (حامد البازى : البصرة في الفترة المظلمة ص ١٧٤)

(٣١) بيرق كلمة تركية تعنى العلم او الراية او االواء وهي ترمز الى احدى وحدات الجيش وتطلق في التركـية كلمة (سنجق) بمعنـى الراية او اللواء ايضا .

(٣٢) تفنكجي ـ بالكاف والجيم المعجمتين تعنى صانع البندقية او حاملها وهي مأخوذة من (تفنـكه) ولا يزال العامة عندنا في العـراق يطلقون على البندقية اسم (تفكة) بالكاف المعجمة .

(٣٣) عثمانلى وعصمانلى نسبة الى الحكومه العثمانية التي تسمت بهذا الاسم الذى عرف به مؤسسها الاول (عثمان) كما يقصد بالكلمة (التركى) الجنسية ايضا .

(٣٤) الرهبان الكرمليون طائفة من المسيحيين كانت منتشرة في العراق ثم سكنت جماعات منها جبل (الكرمل) في فلسطين فعرفت بهـذا الاسم وقد نشطت هذه الطائفة في تأسيس الاديـرة والمدارس

والمستشفيات كاداة للتبشير مما سهل اعتماد الدول الاستعمارية عليهم في توطيد اقدامها في البلدان العربية ومنها العراق .
ولقد سكن الرهبان الكرمليون البصرة لاول مرة سنة ١٦٢٣م وكان الشيخ مغامس المنتفكى الذى حكم البصرة عدة سنوات ، قد وقع مع الهولنديين معاهدة في سنة ١٧٠٥م تعهد فيها بحماية الكنيسة الكرملية ولم يسكن الكرمليون بغداد الا في سنة ١٧٢١ م (حامد البازى : البصرة في الفترة المظلمة ص ١١٧) ولا يزال للكرمليين حتى الان مدارس عديدة في بغداد والبصرة وغيرهما تعرف باسم مدارس الاباء الكرمليين .

(٣٥) يمكن تمييز الصابئة في العراق عن غيرهم بلحاهم الطويلة واستعمالهم اليشماغ الاحمر وقد اخذت هذه الملائم بالزوال بعد انتشار التعليم فيما بينهم وارتدائهم الملابس الاوربية .

(٣٦) ذكر بكنغهام (سوق الشيوخ) باسم (شوكا شاوه) وقد كان الشيخ تويني زعيم عشائر السعدون هو الذى شيد مدينة سوق الشيوخ هذه وسميت بهذا الاسم نسبة الى شيوخ السعدون

(٣٧) تدخل هذه الاقاليم الثلاثة ضمن بلاد ايران في الوقت الحاضر وكانت خوزستان ، وهى تعرف باسم الاحواز وعربستان جزءاً لا ينفصل عن العراق منذ القدم الى ما قبل اقل من مائة سنة تقريبا .

(٣٧ ـ ١) في قول بكنغهام هذا شيء كبير من الخلط والاضطراب وخير مصدر للتعرف على طقوس الصابئة وعاداتهم هو كتاب « الصابئة المندائيون » الذي وضعته المستشرقة الانكليزية اللادي دراور وقام بترجمته ونشره كل من الاستاذين الصابئين نعيم بدوي وغضبان رومي .

(٣٨) كان اليهود في العراق يمارسون مختلف اعمال التجارة والسمسرة والعمل في الدوائر الحكومية واحتراف الطب والمحاماة والتدريس الى جانب الصناعة والصياغة لكنهم ظلوا بعيدين عن ممارسة الاعمال الشاقة كالزراعة والبناء وشق الطرق وغيرها كما ظلوا بعيدين ايضاً عن الخدمة في القوات المسلحة الا ما ندر .

(٣٩) البانيان طائفة من الهنود عبدة الاوثان يتميزون عن غيرهم بلباس الرأس اذ يرتدون عمامة كبيرة ويصنع كل واحد منهم ما يشبه الضفيرة الصغيرة في وسط رأسه وهم اشد قسوة على المسلمين من غيرهم من الطوائف الاخرى .

(٤٠) البنغال من اقاليم الهند الشرقية الواسعة ويقع بين جبال هملايا وهو يشمل حوض المجرى الادنى لنهري الغنج ، وبراهما بوترا الشهيرين في الهند .

(٤١) البارون فيغورو عين مقيما لفرنسا في البصرة سنة ١٨١٦ م ثم انتقل الى بغداد فمكث فيها مدة غير قصيره وكان من الشخصيات

المحبوبة ولكن نفوذه في بغداد كان اضعف من نفوذ المقيم البريطاني وذلك بعد هزيمة نابليون في معركة واترلو

(٤٢) جزر مورشيوس جنوبي رأس الرجاء الصالح في المحيط الهندي احتلها الفرنسيون سنة ١٧٢٦ م ثم اخرجهم البريطانيون منها واحتلوها مكانهم سنة ١٨١٠ وقد ظلت هذه الجزر مستعمرة بريطانية الى ان اعلن استقلالها في نيسان سنة ١٩٦٨

(٤٣) ١ ـ رأس الحد يقع على خليج عمان وهو تابع للاراضي التي تؤلف امامة مسقط في الوقت الحاضر وتقع على مقربة منه مدينة صور الميناء التجارى الشهير في عصور الغزو الاوربي للخليج

٢ ـ القواسم قبيلة عربية هاجرت من سامراء في العراق الى الخليج العربي واستقرت في ساحل عمان منذ القرن السادس عشر الميلادي واتخذت مقرها اول مرة عند « رأس الخيمة » وهو المكان الذى اقام فيه شيخ القواسم خيمته هناك فسمي باسمها وقد تعاظم امر القواسم فسيطروا على معظم اجزاء الخليج العربي في القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر وبلغ اسطولهم عدة مئات من السفن والقوارب لكن بريطانيا ما لبثت ان وجهت اليهم حملات بحرية قوية في سنة ١٨٠٤و١٨٠٥ فدمرت مدنهم ثم وجهت اعظم حملاتها اليهم سنة ١٨٢٠ فقضت على مملكتهم وربطتهم بمعاهدات جائرة لايزالون يئنون منها حتى الان .

انظر كتابنا (الصراع على الخليج العربي) ومقالنا (القواسم

وبريطانيا في الخليج العربي » المنشور في مجلة «الاقلام» العراقية العدد الثاني عشر من السنة الرابعة الصادر في اب ١٩٦٨ .

(٤٥) الثابت ان الانكليز وصلوا البصرة لاول مرة سنة ١٦٣٥ م وانزلوا فيها بعض البضائع التى جلبوها معهم بحرا وربحوا من من وراء بيعها وفي سنة ٦٣٩ عينت شركة الهند الشرقية وكيلا لها في البصرة لاول مرة انظر (الدكتور زكى صالح بريطانياوالعراق ص ٥٤ طبعة ١٩٦٨ .

(٤٦) نسبة الى نهر المعقل الذي حفره معقل بن يسار المازني وقدتحرفت هذه الكلمة بفعل الاجانب الى ماكل والى ماركيل والى ماركين ولايزال بعض البصريين حتى الآن يسمونها بهذه الاسماء المحرفة .

(٤٧) الجدول المركزي يقصد به نهر العشار الذي يبدأ من شط العرب ويخترق البصرة من الشرق الى الغرب .

(٤٨) المستر صموئيل مانستي كان وكيلا لشركة الهند الشرقية الانكليزية في البصرة ابتداء من سنة١٧٨٤ وقد بقي في البصرة حتىسنة ١٧٩٢ حين ادى الخلاف الذي وقع بينه وبين متسلم البصرة آنذاك الى نقل مقر وكالة الشركة الى الكويت انظر (د. احمد ابو حاكمة : تاريخ الكويت الجزء الاول حاشية ص ٥٨ طبعة ١٩٦٢) .

(٤٩) سورات احد موانيء الهند وهو اول مكان استولت عليه شركة الهند الشرقية الانكليزية في القارة الاسيوية واتخذته مقرالتوسعها الاستعماري في الشرق وقد انتزعته من ايدى البرتغاليين بعد معركه

معهم وذلك سنة ٦١٢ وفي سنة ١٦٩٣ حصلت الشركة على اذن من حاكم سورات بانشاء معمل للحرير فيها ومن يومها توطدت قدم بريطانيا في الهند .

(٥٠) الروبية عملة هندية ادخلها الانكليز الى العراق بعد احتلالهم اياه في الحرب العالمية الاولى وظلت متداولة فيه حتى سنة ١٩٣١ حين صدرت العملة العراقيـــة وتبلغ الروبية في الوقت الحاضر خمسة وسبعين فلساً .

(٥١) رومي لفظة اطلقها الاتراك على عملة معدنية تعرف باسم القرش الرومي او القرش الشامي وكان القرش يعادل واحداً مـن اثنين وثلاثين من الروبية .

(٥١ ـ أ) الواضح ان المغريات التي كـان الانكليز وغيرهم مـن الاجانب يقدمونها الى الموظفـــين الاتراك وانغماس هؤلاء الموظفين في في الاختلاس والرشاوى هو الذي جعلهم يتساهلون مثل هـــذا التساهل بالنسبة الى السلع الانكليزية لا بسبب ثقتهم بالانكليز كما يذكر بكنغهام ذلك .

(٥٢) سليمان باشا والي بغداد ويعرف باسم سليمان الكبير تولى منصب الولاية سنة ١٨٧٠ وبقي فيه حتى سنة ١٨٠٢ وكان مـن اصدقاء بريطانيا وذلك لان المقيم الانكليزي في بغداد المستر لاتوش هو الذي ساعد سليمان الكبير في الظفر بمنصب الولاية فبقي هذا مخلصاً للانكليز منفذا لمطاليبهم طيلة ايام حكمه .

(٥٣) اخطأ بكنغهام في ذكر اسم نهر «الفرات» هنا والمقصود به طبعا هو نهر شط العرب الذي يبدأ من اختلاط دجلة بالفرات في القرنة وينتهي في الخليج العربي عند مدينة الفاو .

(٥٤) كلمة « النهر » في هذا الموضع يقصد بها « العشار » الذي يخترق مدينة البصرة .

(٥٥) خور عبدالله نهر كبير يأخذ مياهه من الخليج العربي جنوبي ميناء «ام قصر» ثم يتجه الى الشمال الغربي حتى يصبح قريبا مـــن منطقة الزبير وذلك في اوقات المد ومواسم هطول الامطار .

(٥٦) يقصد بهذا القول «خور عبدالله» الذي مرت الاشادة عنه .

(٥٧) جبل سنام هو الجبل الوحيد القائم في بادية العراق الجنوبية ويقع في اقصى الشمال الشرقي منها ويبعد بحوالي خمـة عشر كيلو متراً عن « صفوان » وزهاء اربعين كيلومتراً عن الزبير ويبعد بنحو خمسين كيلومـتراً عن مينـاء ام قصر (انظر « البادية » تأليف عبدالجبار الراوي)

(٥٨) المعروف ان حمى الملاريا كانت هي المرض الرئيسي الواسع الانتشار في البصرة وان عدد الافراد الذين لا يصابون بهذا المرض قليل جداً وقـد ظل هـذا المرض يفتك بأهـالي البصرة الى ما قبـل خمس عشر سنة .

(٥٩) الشيخ ثويني بن محمد بن عبدالله بن مانع بن شبيب من اقوى شيوخ

المنتفك واكثرهم شجاعة لعب دوراً خطيراً في محاربة الفرس ومقاومة الوهابيين استولى على البصرة سنه ١٧٨٧ م-١٢٠٢هـ واعاد الامن والاستقرار اليها وشجع حركة التجارة والعمل فيها ولم يدم حكمه فيها اكثر من ثلاثة اشهر وكان نفوذه يمتد من اواسط الفرات حتى الكويت وقد دبر الوهابيون مؤامرة لاغتيال الشيخ ثويني ونجحوا في ذلك عن طريق احد العبيد التابعين لهم. وقد اندحر الشيخ ثويني في معركة « ام العباس » امام القوات التركية والتي تحالفت معها قبائل كعب ضده

(٦٠) اخطأ المؤلف في تهجئة كلمة السويب فسماها الشوب هكذا والسويب وهي ناحية الآن، من المناطق الهامة في محافظة البصرة تمتد اراضيها على ضفاف دجلة فشط العرب وتجاور الاحواز التي تقع الآن داخل اراضي ايران وكل سكانها من العرب الاقحاح يسكنون في اكثر من ثلاثين قرية ويمتهنون الزراعة ومركز الناحية يقع على بعد سبعة كيلومترات شرقي القرنة (انظر عبدالرزاق الحسني : العراق قديماً وحديثاً ص ١٨٦) .

(٦١) الشيخ غضبان هو بن محمد امير قبائل كعب تولى الامارة في الفترة ١٧٨٢ ـ ١٧٩٢ م اصطدم مع سليمان باشا والي بغداد وكان غضبان يسيطر على الاحواز « عربستان » وحتى الجانب الشرق من شط العرب .

وحين اصطدم الشيخ ثويني مع سليمان باشا هرب خوفاً من بطشه التجأ

الى الشيخ غضبان الذي كان يقيم آنذاك في « الدورق » اي الفلاحية عاصمة الاحواز في ذلك الوقت .

(٦٢) كان والي بغداد هذا هو سليمان باشا الكبير وهو من المماليك وقد مرت الاشارة اليه .

(٦٣) الشيخ عبدالله بن سعود هو عبدالله بن الامام فيصل تولى الامارة بعد وفاة ابيه سنة ١٨٦٦ م ولكن نازعه عليها اخوه سعود فنشبت حرب اهلية بينهما وتغلب سعود واحتل الرياض واذذاك هرب عبدالله واستنجد بمدحت باشا والى العراق فارسل هذا حملة احتلت الاحساء وثار اهل الرياض على سعود فطردوه منها واذذاك عاد اليها عبد الله ، وكان يقيم في الاحساء ، سنه ١٨٧١م غير ان سعود انتزعها منه وقدمات عبدالله في الرياض سنة ١٨٩٠م بعد ان اصبح الحكم فيها لابن الرشيد .

(٦٤) وقع حادث اغتيال الشيخ تويني سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧ م) بعد ان حارب الوهابيين واصاب منهم مغنما وكان العبد الذي اغتال الشيخ ثويني يدعى « اطعيس » باع نفسه بخمسمائة ريال فضي وقد اقبل على خيمة الشيخ وانحنى ليقبل يده ثم بادره بضربة من حربة مسمومة ولا يزال المثل عن هذه الحادثة شائعا بين عرب المنتفق الى اليوم اذ يقولون « باع بيعة اطعيس » (ذكرى السعدون للشيخ علي الشرقي ط بغداد ١٩٢٩ ص ٣٦

(٦٥) ابراهيم باشا هو ابن محمد على باشا الكبير خديو مصر وقد قاد

بنفسه الحملة التي جهزها ابوه ضد الوهابيين في الجزيرة العربية كما خاض معركة ضد اليونانيين هي معركة موره وانتصر فيها عليم واصطدم بالجيش العثماني في سوريا وهزمه وكان ابراهيم باشا من قبل قد قضى على حكم المماليك في مصر وقد ولد ابراهيم باشا في الروملي سنة ١٧٨٩ م وتوفي في القاهرة سنة ١٨٤٨م

(٦٦) يقصد به الامام محمد عبد الوهاب (١٧٠٣_١٧٨٧م) مؤسس المذهب الوهابي وهو من المذاهب السلفية التي تعتمد على التمسك بنصوص السنة وحدها وكان الوهابيون يلقبون انفسهم بالموحدين ويسمون طريقتهم بالمحمدية ويذهبون مذهب ابن حنبل في الفقه ومذهب ابن تيمية في التفسير .

(٦٧) يقصد بكلمة الصليبية هنا الحرب الدينية

(٦٨) يعتبر الوهابيون كل زخرف وتزيين للمعابد والمقابر بدعة وردة الى عبادة الاصنام ولذلك فان تجريد الاماكن المقدسة من هذه التحف وما شاكلها ليس القصد منه نهبها ، كما تصور المؤلف ذلك ، وانما تطبيقا لمبادىء المذهب الوهابي في هذا الشأن وان كانت هذه العملية لاتخلو من لون من الوان النهب بالنسبة لمن قام بها من الوهابيين .

(٦٨ _ أ) هذا الحاكم العربي هو الشيخ مغامس بن مانع المنتفكي الذى استولى على البصرة وحكمها مدة سبع سنوات وقد مرت الاشارة عنه .

(٦٩) كان هذا الجسر يدعى جسر الموباح لا الملح وهو يقـع على نهر الموبلـح احد فرعين من نهر المناوى اما الفرع الاخر فيدعى (الخورة) المعروف بهذا الاسم الان .

(٧٠) « الدبة » تقع في منطقة العشار على مقربة من الشكنة القديمـــة ومن الشارع المتفرع من شارع الاسود قريبا من شط العرب

(٧١) شط الحي يقصد به شـــط الغراف الحالي الذي تقـــع مدينة الحي (واسط القديمة) عليه

(٧٢) نهر كارون يطلق عليه العرب اسم « دجيل الاحواز » وهو ينبع من جبال ايران ويصب في شط العرب

(٧٣) يبدو ان بكنغهام قد بالغ كثيرا في تقديره قيمة هذه الاموال . ذلك لان كلمة (لك) ـ وهي هندية استعملها ـ تعنى (الفا) وعلى هذا فلا يصح ان نعتبر العشرة الـكاك تساوى مائة الف باون لانهـا تعادل في الواقـع عشرة الاف باون

مواضيع الكتاب

الصفحة	الموضوع



تصحيح اخطاء مطبعية

وقعت ، للاسف الشديد اخطاء مطبعية كثيرة بسبب عدم الدقة ومراعاة التصحيحات . و بعض هـــذه الاخطاء بسيطة يسهل على القارىء الكريم معرفة الصواب منها .

سطر	صفحة	الخطأ	الصواب
١٩	٧	رنبل	رنل
١٢	٤٠	نيوبولا	نيوبولاسر
٤	٤٢	بيلوبونيس	بيلوبونبس
١٩	٦٧	برسيوليس	برسبوليس
١٩	٧١	للكتاباب	لكتابات
١١	٧٤	(١٧)	(١٨)
١٥	٧٤	(١٨)	(١٩)
١٨	٧٤	(١٩)	(٢٠)
١٩	٧٤	(٢٠)	(٢١)
١٧	٧٥	(٢١)	(٢٢)
١٢	٧٨	(٢٢)	(٢٣)

سطر	صفحة	الخطأ	الصواب
٢٠	٧٨	(٢٣)	(٢٤)
١٢	٧٩	(٢٤)	(٢٥)
١٨	٨٠	(٢٥)	(٢٦)
١	٨٢	(٢٦)	(٢٧)
٤	٨٢	(٢٧)	(٢٨)
٩	٨٢	(٢٨)	(٢٩)
١٣	٨٤	(٩)	(٢٩)
١٤	١٢٠	(١)	(٣٧)
٥	١٢١	(٣٧)	(٣٨)
٢	١٢٢	(٣٨)	(٣٩)

ويتم تعديل ارقام الشروح التي ترد بعد ذلك تبعاً لهذا التصحيح

٨	١٤٥	يسنمح	يسمح
١٥	١٤٩	اقلبهن	اقلهن
٥	١٥١	الملك السادس عشر	الملك لويس السادس عشر
٣	١٥٥	دستاغور	دستاغرد
١٢	١٥٥	الخليج الفارسي	الخليج العربي
٨	١٦٨	بوالي	بدالي
٢	١٧٤	هيثت	حيث

الصواب	الخطأ	صفحة	سطر
الغنيمة	الغثيمة	١٧٧	١٢
تورنا داتوم	تورناواتوم	١٨٧	٢٠
داستاغرد	واستاغرد	١٨٨	١٦
الذين	الذي	١٩٧	١٢
KAFUR	KA UR	١٩٧	١٩
النيسانية	النسيانة	٢٠٢	١٨
فسكس	فلسكس	٢٠٤	٩
PROTIUS	١٥٦	٢٠٥	٤
الخلط	الخلظ	٢٠٦	١٣
تحذف كلمة (حتى) من السطر المذكور		٢١٢	١٧
بها	بم	٢١٣	١٧
يكون السطر الثالث من الحاشية الذي يبدأ « في قصر شرين » بمكان السطر الثاني من الحاشية والذي يبدأ بكلمة « هائلة لاتزال » وتحذف كلمة « هائلة » من السطر المذكور		٢١٤	••
ارتمينا	اوتمينا	٢١٥	٣
CHALASA	ASALAHO	٢١٦	١٠
دستاغرد	وستاغرد	٢١٧	١٦

الصواب	الخطأ	صفحة	سطر
الفرص	الفرس	٢١٨	١٧
لذلك	لك	٢٢٤	١٤
شهروز	شهرزور	٢٣١	١٤
(٨)	(٢)	٢٤١	١٨
٨	٧	٢٤٧	١١
٧	٨	٢٤٧	١٤

فهرس الاشخاص والاقوام

فهرس الامكنة والبقاع

طبع بمطبعة دار البصري — بغداد
١٢/ ١٥٠٠ /١٠/٥/١٩٧٠


محل الاهرام
لتجليـد الـكتب
محمود الطائي